طبعة مزيدة منقحة

عارف حجَّاوي

حبر عتيق

كشكول أدب ولغة.. وعبث



مدارات للأبحاث والنشر
MADARAT for Research and Publishing

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

حبر عتيق

كشكول أدب ولغة.. وعبث

عارف حجَّاوي

عن الكتاب..

«امتهن الكاتب الخط العربي زمنًا، وامتهن أبوه الخياطة. وتجده يورد قول أحدهم: «الخطاطون والخياطون يأكلون من أعماق عيونهم»، ثم تجده يورد أحاديث متفرقة عن الخط والخطاطين، وعن الخياطة والخياطين، في أرجاء الكتاب. المؤلف يتحدث عما دبَّ من أحداث الزمن فوق جلده، فاقشعر لها جلده.

كُتبت فصول هذا الكتاب قبل ثلاثين سنة في لندن، ثم نُقحت وأضيفت إليها فصول جديدة في فلسطين وإستانبول. في الكتاب سياحة في اللغة والأدب؛ فيه عبث شاب في أواسط الثلاثين، وفيه مرارة لا بد أن تتسلل إلى قلب شيخ يرى السبعين تزمجر أمام عينيه.

«حبر عتيق» يضم قصص الشعراء والكتَّاب قديمًا وحديثًا، عربًا وغير عرب. هو كتاب من كتب النوادر، غير أن المؤلف حاضر في كل نادرة، يقول رأيه ويتحدث عما يشعر به. يتبرم المؤلف من لندن ويداعبها، وهو فيها أجنبي يعيش على الهامش. ويتبرم بإستانبول ويتحدث عن عربها وعما يلاقونه، ويذرف دمعة باردة على فلسطين، ودمعة الشيخ باردة.

أصدق الشعر الهجاء، وأصدق الشعراء الهجاؤون، وقد فتح الكتاب صدره لهم ولشعرهم».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

عارف حجَّاوي

- ولد في نابلس بفلسطين، ١٩٥٦، وفيها نشأ.
- متزوج وله ابنتان، وحفيدان. ويقيم في مدينة رام الله.
- عمل في التدريس المدرسي والجامعي، ثم عمل في الصحف ومحطات الإذاعة والتلفزيون.
- صدر له عن مدارات للأبحاث والنشر: هكذا أكتب (٢٠٢٢)، هكذا أفكر (٢٠٢٢)، أخيار وأشرار.. وظرفاء وثقلاء (٢٠٢٣).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقدمة الطبعة الثانية

لماذا يكتب المؤلِّف مقدمة جديدة للطبعة الثانية من كتابه؟

إمَّا لكي ترضى عنه إِلاهةُ الثرثرة، وإمَّا لأن الطبعة الثانية مزيدة.

هذه هي الطبعة الثانية من كتابي حِبر عتيق، وفيها زيادة كبيرة على طبعته الأولى التي ضمَّت مادَّة كتبتها وأنا في أواسط الثلاثين، وعندما آن الأوان لطبعة ثانية، وقد تجاوزتُ أواسط الستِّين، زدتُ في الكتاب موادَّ جديدة.

والسبب في إلحاقي مادةً إضافيةً بالكتاب «سوء فهم»؛ إذ حثَّني أخي محمد عبد العزيز على إعادة طبع الكتاب، وقال لي: «عليك أولًا أن تحذف منه كذا وكذا، فهذه أشياء ذكرتَها في كتاب لك سابق». فأعمَلتُ القلم وكتبت موادَّ جديدة كي تحل محل تلك المواد «المكررة». ثم إنني تنبَّهت بأَخَرَة إلى أنني لم أقتبس من نفسي سطرًا واحدًا، وإلى أن مادة حِبر عتيق الأصلية لم تتسلل إلى أي كتاب آخر كتبته؛ فبقي الكتاب الأصلي على حاله، ثم ألحقت به المادة الجديدة.

وربما وجد القارئ في نفسه رغبة في أن يرى كيف تغيَّر فكر المؤلف وأسلوبه، وكيف تغيَّرت نظرتُه إلى الحياة، بعد انقضاء ثلاثين سنة.

عارف حجَّاوي

الدوحة في ١٨ حزيران/ يونيو ٢٠٢٣

٢٩ من ذي القعدة ١٤٤٤

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقدمة الطبعة الأولى

الشكر في أول المقدمة لا في آخرها.

الشكر لمصطفى الكركوتي، رئيس تحرير مجلة هنا لندن. وبعد الشكر قصةُ هذا الكتاب. ثم في الختام شكران آخران.

كنت على الميكروفون، وكانت بضع دقائق تفصلني عن دقَّات بيغ بن. كان بيني وبين المستمعين بضعة آلاف من الكيلومترات، وبيني وبين غرفة التحكم لوحان من زجاج. وملأتُ الدقائق بكلام مما يَحسُن أن يقوله رجلٌ فارغ البال: حدَّثتُ المستمعين عن هذه الحديدة التي أمام فمي تنقل لهم صوتي، وحدَّثتهم عن الملل، وعن عقرب الدقائق وعقرب الثواني. وقلت لهم: إن في مقدورهم أن يتحوَّلوا إلى موجة أخرى إن هم أرادوا، وبمقدورهم أن يقذفوا بالراديو من النافذة، ونبَّهتهم إلى أن ينظروا أولًا إلى الشارع؛ حتى لا يقع الراديو على رأس أحد المارة. وحان وقت الصمت.

هذا صمت مدته أربع ثوان: يضبِطُ المذيع كلامه بحيث ينهي جملته بسلاسة عند الثانية الثامنة والعشرين، ويستأنف الكلام عند الثانية الثانية والثلاثين … وبسلاسة أيضًا. وفي هذه الثواني الأربع تنفصل موجات وتتصل موجات … ولا يحس المستمعون بانقطاع.

بعد الصمت أنذرتُ المستمعين -وقد بدأت لهجتي تتخذ سمت الجدية- بنشرة الأخبار التي ستأتيهم وشيكًا. وتحت كلماتي بدأت الرنَّات التمهيدية للساعة العريقة، ثم صمت وجيز … ثم جاءت الدقات الكبيرة لتعلن رأس الساعة.

كان مهندسو البي بي سي قد علَّقوا قديمًا ميكروفونًا في برج ساعة «بيغ بن» ينقل صوت أجراسها مباشرة إلى الراديو، ولكنهم عَدَلُوا بعد ذلك عن الأمر (لعل الميكروفون الذي في داخل البرج صدِئَ أو تلف) واستعاضوا بتسجيلٍ لدقات الساعة. فليعلم الذي كانوا يضبطون ساعاتهم على «بيغ بن» أنهم إنما كانوا يضبطونها على ساعة الاستوديو، وما دقَّات «بيغ بن» التي كانوا يسمعونها سوى تسجيل.

بعد دقات الساعة قرأت نشرة الأخبار. ثم جمعت أوراقي وفتحت بابًا ثم بابًا ثانيًا مجابهًا له، وخرجت من معتزَلي لأجد في غرفة التحكم مصطفى الكركوتي.

ظل واقفًا ينتظرني. قال لي: «هل تعرفُ تكتبُ مثل هذا الذي كنتَ تقوله قبل نشرة الأخبار؟» قلتُ له: «نعم». قال: «فاكتب لـ هنا لندن». فقلتُ: «صار».

كان الزملاء يشتهون الكتابة لمجلة هنا لندن الشهرية حبًّا في الكتابة وفي الـ ١٢٥ جنيهًا إسترلينيًّا. وكنت أشتهي، وللسببين كليهما. وكان يثنيني عن الطلب معرفتي أن الطالب أضعفُ من المطلوب؛ فعندما أصبحت مطلوبًا مضيت أكتب المقال إثر المقال، وكانت لي زاوية في كل عدد.

وارتضيتُ رئيسَ تحريري وارتضاني، فما راجعني في كلمة ولا ناقشني في فكرة، غير أنه كان يقرأ كل ما أكتب قبل نشره، كما يجدر بكل رئيس تحرير أن يفعل، وكان يصدِّر الزاوية بعنوان. ومضيت أكتب اثنين وثلاثين شهرًا لم أخرم منها شهرًا، ونُشر آخر مقال لي في آخر عدد صدر من تلك المجلة. ثم ورثتْها مجلة المشاهد السياسي، وكتبتُ فيها، بالمجان، فقد كنت أُشرف على خطها التحريري. ثم ضاقت إذاعة لندن بالمجلة الجديدة وبما فيها من آراءٍ لا يمكن ضبطها، فباعَتها. وعدتُ إلى عملي في الإذاعة. تركت الميكروفون ووجدت طريقًا إلى عمل إداري. ومرَّت السنوات.

في الحقيقة مرَّت سنوات كثيرة.

مرَّ على آخر هذه المقالات ربع قرن ويزيد، وثبَّطني عن نشرها في كتاب أنني كتبتُ فيما بعد كثيرًا عن اللغة وعن الأدب وعن الإعلام، ونشرتُ كتبًا في كل هذه الموضوعات. على أنه ذكَّرني بكتاباتي تلك في هنا لندن بَسْطٌ وجدته في الإنترنت وأنا أُغَوغل عن نفسي، (وكل الكاتبين يغوغلون عن أنفسهم: شيء من الأنانية، وشيء من رغبة الكاتب في أن يرى أثر كتاباته في أنفس الناس). وفحوى ذلك البَسْط أن صاحبه أراد أن يتسلى في ليلته، فاقتنص من مجموعة أخيه أعدادًا من هنا لندن كي يقرأ ما فاته من مقالاتي.

وقد لمس هذا البسط في نفسي موضعًا طريًّا، فغاص.

ثم اتفق لي أن نظرتُ في مقالاتي في هنا لندن بعد طول افتراقي عنها. وكنتُ قد احتفظت بها كما نشرتْها المجلة، فأما الأصل فهو مخطوط على ورق من كل لون وحجم. كنت أكتب خواطري كلَّما عنَّ لي شيء منها، وقد أستلُّ من كتابٍ عبارة أو نبذة. وتأتي العشر الأواخر من الشهر فأضم ما اجتمع لديَّ من أوراق بعضه إلى بعض فلا أجده كافيًا، فأكتب من الهراء ما الله به عالم، وما سوف تجده في هذا الكتاب.

نظرتُ في مقالاتي العتيقة، وثبَّتني على نيَّة نشرها أن مادتها ليست مما نشرتُه في كتب لي لاحقة، فبي نفورٌ من إعادة تدوير أفكاري. وقد وجدتُ في هذه المقالات بعض الكتابة الخفيفة، وبعض المعلومات اللغوية الطريفة، ووجدتُ فيها أيضًا صورة لثقافتي العربية والأجنبية كما تمثَّلت في تلك السنوات التي قضيتُها في لندن. كنت أختزن في ذهني ما يعرض لي من ثقافة لغوية عند الإنجليز. ولم يكن ثمة إنترنت في ذلك الزمن، فكان ما

أكتسبه جَنَى الكتب والصحف. وكان في بيتي كثير من الكتب العربية، وكنت أرتاد مكتبة جامعية أستعير منها.

ومن فضائل هذه المقالات -وتجدها بين دفتي هذا الكتاب مع قليل من التحرير والتصحيح- أنها مفصصة فصوصًا. فإن شغلكَ وأنت تقرأ شاغل، أو اعتراك مَلَلٌ، سهُل عليك أن تلقيَ الكتاب من يدك سريعًا. ومن مثالبها أنني تركتُ الإشارات الزمنية على حالها، فإن مرَّ بك فيها أن فلانًا مات قبل خمس وعشرين سنة، فما عليك إلا أن تضيف خمسًا وعشرين أخرى. وقد تركتُ في حاشية أول صفحة من كل مقال تاريخ النشر.

ولا يندر أن يمر بك رأيٌ فطيرٌ، أو معلومة مجتزأة؛ فكاتب هذه الصفحات التي ستأتيك كان في أواسط الثلاثين عندما كتبها، وهو الآن قد تجاوز الستين وهو يحررها، ولم يُرد أن يزيد في مادة هذا الكتاب، وإن كان قد نفى عنها بعض الزؤان.

كنتُ قاعدًا في ذات المعاطف، في لندن، وحواليَّ كتب عربية أُدِيمُ النظر فيها، وأقرأ الجرائد وأقلِّب صفحات موسوعة معالم لندن؛ أقرأ في الحين بعد الحين ما كتبه صديقي سومرست موم الذي مات وعمري تسع سنين، وصديقي برنارد شو الذي مات وعمري سالبُ ستٍّ سنين. ولا طاقة لي بالشعر الإنجليزي، فهذا مغلق دوني بستور صفيقة من الإرث اللغوي والحضاري الإنجليزي، وأنا رجل صحافة يستطيع من اللغة الإنجليزية نثر الصحافة، ويستطيع -بعد طول الدربة والصحبة- أدب صديقيه الناثرين المرحومين. وما حاجتي بشعر الإنجليز وقد فُتحت لي مغاليق أعظم شعر في الوجود: شعر العرب؟

(فقرة مقحَمة إقحامًا لغرض نبيل: هذه الفقرة هي -والله أعلم- آخر ما أدقُّه من كلمات هذا الكتاب، وإنما أحشرها هنا حشرًا لأنني لم أجد لها مكانًا آخر. وأنا أدُسُّها دسًّا حتى تنتأ وتبرز. وأنا أقحمها إقحامًا لأنني لم أر في الكُتَّاب من صنع هذا الصنيع. لا تمطر السماء ذهبًا ولا فضة، لكنها أمطرت عليَّ صديقًا أثمن من الذهب. ذلك عمران القفيني. وكان قد صحَّح لي، متبرعًا، آلاف الأغلاط في كتب سابقة فأنقذني من كبوات معيبات. فلما انتهيت من تحرير مقالاتي التي يضمها هذا الكتاب، حاولتُ أن أحجب عنه المخطوطة حتى لا أرهقه. ومرت الأسابيع، ولم أسع في النشر، وبالطبع لم يسع إليَّ ناشر. والناشر في زمننا يريدك أن تحبو نحوه على ركبتيك ويديك ثم تخلع له حذاءيه، ثم جوربيه، ثم تقبِّل قدميه حتى ينشر لك الكتاب. ووقعتِ المخطوطة بين يدي عمران. ورجوتُه ألا يتعب نفسه في التصحيح. كان رجاء يحمل في طياته حرصًا على وقت صديقي، ويحمل في طياته أيضًا تيهًا خفيًّا، فقد ظننت أنني خلَّصْتُ الكتاب من كل عِلَّة. ثم جاءت جريدة التصحيح القفِّينية المعتادة

في اثنتي عشرة صفحة. فإذا محدِّثكم يكتشف أنه ترك بين أسطر كتابه ما تترك العنز المعلوفة في عِراص المنازل. فخلَّصني عمران من أخطاءٍ كثيرة، ونبهني إلى فهمٍ أدقَّ لبيت شعر، وإلى تصحيح لنسبة قول قديم. ولأنني لم أرد إدخال شيءٍ على الكتاب لم يكن موجودًا في أصل تلك المقالات فقد حذفت البيت الذي وهِمْتُ في فهمه، وحذفت اسم قائل ذلك القول القديم. وبهذين الحذفين تخلص الكتاب من بعرتين كبيرتين. فأما ما بقي من أبعار فقد أزيل. فإن بقيت بعرة أفلتت منه ومني فتذكر أيها القارئ قول المبرِّد: «إذا شممت بعر الظباء من ساعته وجدت منه كرائحة المسك». ما الذي ألجأني إلى هذا التشبيه العجيب؟ المعذرة! انتهت الفقرة المقحمة).

(فقرة مقحمة أخرى، لعلها الأخيرة: وقع مخطوط هذا الكتاب بين يدي صديقي اللغوي أحمد عبد الرحيم، فأكرمني بأن قرأه كلمة كلمة، وبأن شككني في أشياء وثبَّتني على أشياء، وأسهَرني ليلة مع المعاجم).

كنت قاعدًا في لندن أتسلَّى بتقليب لغتنا العربية على الوجه والقفا، وأتعلَّم برود الإنجليز، وأحاول أن أتخلَّق بدهائهم. والآن أدقُّ هذه المقدمة وأنا قاعد في بلدي فلسطين. ولا تسل عن سعادتي إذ قُيِّض لي أن أختم أسطر هذه المقدمة بسطر التاريخ، وفيه المكان. وقد وددت لو أنني ذهبت إلى القدس التي تبعد عني ستة عشر كيلومترًا لكي أدق في سطر التاريخ كلمة «القدس». ووددتُ لو أنني ذهبت إلى مدينتي نابلس التي تبعد عني ستين كيلومترًا كي يحمل سطر التاريخ اسمها. لكنني رجل مكسال.

قد كُتب على مدينة رام الله أن تكون نائبَ العاصمة، وهي في هذا كنائب المفعول المطلق، شيء لا يفهمه أحد. وكُتب عليَّ أن أبني بها بيتي، وأن أختم بها هذه المقدمة.

الدوحة في ١٨ حزيران/ يونيو رام الله - فلسطين

الدوحة في ١٨ حزيران/ يونيو ٢٠ تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٧م

الدوحة في ١٨ حزيران/ يونيو ٣٠ المحرم ١٤٣٩هـ

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول

«الزميل» جورج أورويل، الخادم وعزرائيل، المشروبات الساخنة، موقف كلثومي حازم (1)

بداية متعثرة..

الكتابة في اللغة والأدب قد تكون ألف شيء. وقد يتخبط المرء؛ فيجد نفسه يكتب عن شؤون النفط وهو يحسب أنه يكتب عن الأدب واللغة.

لا أدري لماذا تنشر الصحف الأخبار والتحليلات والتعليقات عن النفط وسعر البرميل وحصص الإنتاج والنكد المستمر داخل وخارج الأوبك، وتلك الأرقام والنسب المئوية؟ فالعارفون بأمور النفط يعرفون القصة وما فيها، وشاشات الكمبيوتر تخبرهم بآخر التطورات قبل أن تصل إلى الصحف. والذين لا يعرفون إلا قليلًا لا يريدون أن يزيدوا على هذا القليل شيئًا. والذين ليس لهم في شؤون النفط باع ولا ذراع إنما هم ناس كتب الله عليهم أن يظلوا كذلك ... هم وأولادهم وأولاد أولادهم إلى أن تنقطع ذريتهم، أو إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وما في باطنها.

«الزميل» جورج أورويل

عمل الكاتب البريطاني المشهور جورج أورويل صاحب قصة مزرعة الحيوان ورواية ١٩٨٤ في القسم الهندي الناطق بالإنجليزية من هيئة الإذاعة البريطانية مدة سنتين في الحرب العالمية الثانية. وفي كتابه ذي الاسم الغريب ١٩٨٤ الذي كتبه عام ١٩٤٨، رسم أورويل صورة لما سيكون عليه العالم في عام ١٩٨٤. (اختار الاسم بأن عكس ٤٨ فصارت ٨٤). وقد نُشر قبل سنوات قليلة كتابٌ عن الفترة التي أمضاها أورويل في هيئة الإذاعة البريطانية، وأخذ مؤلِّفُه يتعقَّب مدى تأثير تلك الفترة في كتابات أورويل واكتشف أن كثيرًا من المناظر التي صوَّرها أورويل في كتابه ١٩٨٤ تستند إلى المحيط الذي كان يتحرك فيه آنذاك. ومن أبرز هذه المناظر وصف لمقصف في القصة، نقله أورويل عن مقصف مبنى «البرودكاستنغ هاوس» الذي كان وما زال تابعًا لهيئة الإذاعة البريطانية.

ومن حديث إلى حديث، فهيئة الإذاعة البريطانية (ونحن نسمِّيها هاب، والإنجليز يسمونها بي بي سي، ويدلعونها «ذه بيب») مؤسسة كبيرة يعمل فيها ثلاثون ألف ابن آدم، وهم موزَّعون على مبانٍ كثيرة ولكل مبنى مقصف، وأهم ما في هذه المقاصف أنها رخيصة وأنها مجمع الحكايات، ويُذاع فيها ما لا

يطيقه الميكروفون من وشايات. وقد تطول جلسات المذيعين والمترجمين والمخرجين في المقصف؛ حيث تبدأ الجلسة بتعليق أو نكتة ثم يدلي أحدُهم برأي، فيحتدم النقاش ويُصرُّ صاحب الرأي على رأيه ويذهب في الدفاع عنه كلَّ مذهب، ولا ينقذ الجلسة من هذه الحمَّى إلا قيام هذا الزميل على حين غرَّة قائلًا: عندي نشرة الأخبار، وتهدأ الأحوال إلى أن يغشى الجلسة عنصر جديد معه حكاية جديدة.

الخادم وعزرائيل

ليس كلُّ من فتح فمه محدِّثًا أو صاحب مجلس؛ فهناك من يتقن فن الحديث ولا يتقن فن الإصغاء وهناك العكس. وهناك من لا يحدِّث ولا يصغي. وقد قصَّ عليَّ ياسين الكلاس (وهو محدِّث ومُصْغٍ) قصة. ولن أحاول أن أقلد ياسين في روايتها فهذا فنٌّ يتفرد به، وأنا رجل خُصِصت بإحدى الحسنيين، أقصد الإصغاء. ولكنني سأجرب أن أكتب الحكاية كما أَتخيَّل أن ذلك المجلس قد سمعها.

في قديم الزمان في بغداد، بعث رجل خادمه إلى السوق لقضاء حاجة، لكنه عاد بعد قليل يرتجف خوفًا، وأخذ يتوسل إلى سيده أن يعيره حصانه الأبيض، وكان الرجل لا يسمح لأحد كائنًا من كان بامتطاء صهوة ذلك الجواد الأصيل. وألحَّ الرجل على خادمه بالسؤال عن سبب هذا الطلب الغريب. فقال الخادم: رأيت عزرائيل في السوق، ونظر إليَّ نظرة اندهاش أرعبتني. وأريد أن أهرب على حصانك الأبيض إلى سامراء. فضرب الرجل كفًّا بكفٍّ، ثم أدركته أريحيَّةٌ فسمح للخادم باستعارة الحصان الأبيض. وانطلق الخادم إلى سامراء. ثم نزل الرجل إلى السوق لقضاء حاجته بنفسه. وفي السوق صادف عزرائيل فاستوقفه، وسأله: لماذا بدا عليك الاندهاش عندما رأيت خادمي؟ فقال له الملاك الكريم (وإن لم يكن يحظى بشعبية عالية): لقد أمرني ربُّ العزة أن أنزل إلى الأرض لكي أقبض روح ذلك الخادم في مدينة سامراء بعد ساعات قليلة فقط، فعندما شاهدته في بغداد -ولمَّا يبقَ على الموعد المحتوم سوى قليل- أخذني العجب، وبدت على وجهي الدهشة. فعلم الرجل عندئذ أن خادمه أسرع إلى حتفه من حيث قرر أنه يفر إلى ملاذ آمن.

المشروبات الساخنة

«المشروبات الساخنة» تعبير مترجم عن الإنجليزية. والداعي إلى كثرة استخدامه أن كلمة مشروبات وحدها صارت تعني المشروبات الكحولية، وإذا أردنا أن نتجنب هذا الفهم أضفنا إليها كلمة الساخنة. وكلمة «مشروبات» بصيغة الجمع مترجمة عن الإنجليزية (درنكس)، أما العرب فكانوا يسمون الخمر شرابًا. وكان مجلس الخمر يُدعى في القديم مجلس الشراب،

والكحول كلمة أصلها القديم عربي، ولكنك إذا أردتَ بها الخمر فإنك إنما تترجم هذا المعنى الطارئ عن الإنجليزية، أو عن غيرها من اللغات الأوروبية الحديثة.

التسبيح للخمر

قال بومارشيه الفرنسي في حلَّاق إشبيلية: «يا سيدتي، إن الشرب عن غير عطش وممارسة الحب على مدار العام هما الفارق بيننا وبين الحيوانات … الأخرى». والشرب الذي يريده بومارشيه ليس شرب الماء الزلال. قال أبو نواس:

كسَرَ الجرة عمدًا

وسقى الأرض شرابًا

صحتُ «والإسلام ديني»

ليتني كنتُ ترابًا

والشراب الذي ذهب إليه عميد السكارى في الأدب العربي ليس ذلك الذي يُوَزَّع في الأفراح. قال أبو نواس:

ألا فاسقني خمرًا وقل ليِ هي الخمرُ

ولا تسقني سرًّا إذا أمكن الجهرُ

وقال أيضًا:

أَثْنِ على الخمرِ بآلائها

وسمِّها أحسنَ أسمائها

وما قال النواسي «آلائها» و«أسمائها» إلا وهو يريد التسبيح للخمر، كما كتب طه حسين في حديث الأربعاء. ولن نُمعنَ في ملاحقة أبي نواس على فسوقه، بل نتركه إلى رحمة الله التي تسع كل شيء.

موقف كلثومي حازم

ترجم أحمد رامي رباعيات الخيام عن الفارسية ودفع أبياتًا منها إلى أمِّ كلثوم لتغنيها، فاشترطت عليه أن يُسقِطَ أي إشارة إلى الخمر من بعيد أو من قريب. فانظر كيف صنع أحمد رامي بالرباعية الأولى؛ كانت في الأصل:

سمعت صوتًا هاتفًا في السَّحَرْ

نادى من الحَانِ غُفَاة البشرْ

هُبُّوا املأوا كأس الطِّلا قبل أن

تملأ كأسَ العُمْرِ كفُّ القدرْ

فأبدل رامي كلمتين؛ جعل «الغيب» بدل «الحان»، وجعل «المنى» بدل «الطلا». وفي الأبيات اللاحقة في الأغنية كثير من هذا، فمثلًا وضع رامي «شهد الرُّضَاب» بدلًا من «برد الشراب». والرضاب هو الريق. وكان أدنى إلى الورع أن ترضى أم كلثوم ببرد الشراب من أن تقعد تمص ريق حبيبها.

وممن ترجموا رباعيات الخيام إلى العربية شعرًا عبد الحق فاضل. وهذه إحدى رباعياته:

أنا لا أحتملُ العيشَ بلا خمر تضوعُ

لا، ولا أحمل جسميِ، فهو محمول فظيعُ

أنا أهوى لحظة يسألني الساقي بها:

«قدحًا آخر فاشرب»، وأنا لا أستطيعُ

ألا ترون أن عبد الحق فاضل جعل كلمة «أستطيع» الباهتة غير الشعرية ترن رنينًا في غاية الجمال.

وممن وضعت الخمر لحياتهم فصلًا ختاميًّا مأساويًا زكي مبارك. كتب هذا الناثر يحكي حوارًا دار بينه وبين صديقه أحمد رشدي: «قال رشدي: وتشرب الخمر مع هؤلاء الساقطات؟ فقلتُ: بهذا أكفِّر عن ذنوبي يوم شربتُ الخمر مع بعض الوزراء، والحسنات يذهبن السيئات».

«الدكاترة» زكي مبارك

وُلِد زكي مبارك في قرية سنتريس (بكسر السين الأولى كما ينبِّهنا ابنُها المشهور). ولعل القارئَ يظن أني أريد أن أسرد له تاريخ حياة هذا الناثر الفذ! لا، لن أقول متى وُلد ولا متى مات، بل أحبُّ أن أتنزه في صفحات ديوانه ألحان الخلود الذي صدر قبل ثلاث وأربعين سنة. ولن أنقل من هذا الديوان بيتًا واحدًا بل سأنقل شيئًا من عبارات «الدكاترة» زكي مبارك التي قدم بها قصائد الديوان. وقد نال زكي مبارك عدة شهادات دكتوراه من مصر وباريس، وكان يرفض أن يناديه الناس بلقب دكتور، فهو ليس دكتورًا كطه حسين بل هو (دكاترة).

قال زكي مبارك: «ليس في أشعاري مديح، فما أعرف رجلًا أعظم مني لأنظم فيه قصائد المديح»، وقال: «ما سمعتُ في حياتي صوتًا أرخم من صوت أحمد رشدي، وقد غنَّاني بصوته الرخيم كتاب ليلى المريضة في العراق ثلاث مرات فأشجاني وأبكاني». ولا تتضح المفارقة إلا إذا علمنا أن هذا الكتاب -وهو من تأليف «الدكاترة» زكي مبارك- يقع في ستمائة صفحة. وقال: «لم تكن الحياة هينة بالنسبة إليَّ في العامين الماضيين. خرجت من عملي بوزارة المعارف بعد معركة عنيفة بيني وبين السنهوري، فقد شويت وجهه على صفحات البلاغ وصيَّرته أضحوكة يتندر بها الناس في الأندية والمجالس والقهوات». وقال: «إن الكذب الذي ندخل به النار هو الكذب على الرسول في التشريع، وهو كذب يغيِّر الحقائق فيصيِّرها أباطيل. أما نظم قصيدة على لسان الرسول وهو يودِّع مكة مهاجرًا إلى يثرب فهو افتراء جميل إلى أبعد حدود الجمال».

أرأيت إلى أي حد ذهب الرجل؟ ولكن، أليست هذه الخفَّة وهذا الطَّيش أجمل وأنقى وأروح للقلب من كتابات أولئك الناثرين الذين احترفوا الكآبة واصطناع الجد. أفلا يحق للناثر الفنان أن ينطلق من القيود إلى حد الجنون، أحيانًا؟ ولي كلمة أخيرة: لقد قرأتُ كل ما في الديوان من قصائد موزونة مقفاة، ومن عبارات منثورة جعلها المؤلف مقدمات لقصائده، فلم أجد شعرًا إلا في العبارات المنثورة.

(1) سبتمبر/ أيلول ١٩٩٠.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

معلّم الصبيان العاشق، المعرّي في يوم القيامة، حَيص بَيص وأخواتها (2)

الكاتب الذي يُسرف في تشويق القارئ بالقصص والأحماض ينتهي نهاية سيئة؛ ينتهي إلى فقدان الموضوع، وإلى أن يتخلَّى عن كل أفكاره لصالح طريقة عرضه لأشياء لم تعد تستحق العرض. ولكن ماذا يصنع الذي لا عنده موضوع ولا أفكار؟ يكتب لغة ... لغة فقط.

تسابيح صوفية

قال الحسن بن منصور الحلاج قدَّس الله سره (إن كان القارئ ممن يجلُّه)، ووَكَلنَا أمره إلى صاحب الأمر (إن كان القارئ ممن يرتابون في معتقده)، قال في كتاب له يُدعَى كتاب الطواسين: «أفهام الخلائق لا تتعلق بالحقيقة، والحقيقة لا تليق بالخليقة. الخواطر علائق، وعلائق الخلائق لا تصل إلى الحقائق».

وقال أبو سليمان الداراني: «يا رب، إن طالبتني بسريرتي طالبتُك بتوحيدك، وإن طالبتني بذنوبي طالبتُك بكرمك، وإن جعلتَني من أهل النار أخبرتُ أهل النار بحبي إياك».

وإنما يُدِلُّ هذا الرجل على رب العزة إدلال المحب فهو يحب الله أولًا وثانيًا ويخشاه ثالثًا. حبذا الموقف.

قصة معلّم الصبيان

التقى الجاحظ بمعلم فرأى عنده أدبًا وحكمة وعقلًا، فأخذ على نفسه أن يلزمه ليتمتَّع بصحبته. فعلم يومًا أن المعلم لزم بيته لا يبرحه، وأنه ينوح صباحًا ومساءً؛ لأنه فقد عزيزًا عليه. فانطلق إليه الجاحظ ليعزيه ويقوم بالواجب. دخل عليه قائلًا: أعظم الله أجرك. وواساه بما حضره من عبارات المواساة، ثم سأله: هل فقدت ولدًا؟ فقال: لا. قال: فوالدًا؟ قال: لا. قال: فزوجًا أو صديقًا؟ فقال المعلِّم: فقدت حبيبتي! فقال الجاحظ في نفسه: هذه أولى الدواهي. ثم قال للمعلِّم: لعلك تجد امرأة تشبهها في صورتها وفي أخلاقها! فقال المعلِّم: وكيف ذلك يا حسرتي، وأنا لم أرها قطُّ؟ فقال الجاحظ في نفسه: وهذه ثانية الدواهي. ثم سأله: وكيف عشقتها ولم ترها؟ فقال المعلِّم: مر رجل في الطريق قبل شهر وهو يسوق دابته ويغني:

يا أم عمرٍو جزاكِ الله مغفرة

رُدِّي عليَّ فؤادي كالذي كانا

فعشقتُ أم عمرو هذه. وقبل يومين مرَّ هذا الرجل نفسه في الطريق وهو يغني:

لقد ذهبَ الحمارُ بأم عمرو

فما رجعتْ ولا رجع الحمارُ

فعلمت أنها ماتت، فها أنذا حزين كما ترى. فعزم الجاحظ على تأليف كتاب عن الحمقى، وعلى أن يجعل فاتحته عن معلِّمي الصبيان.

لغتنا الجميلة.. والبهائم

• السبب والنتيجة: السبب هو الحبل، والنتيجة هي ما تلده الناقة، ويقال: نَتجت الناقة أي وَلدت، ونُتجت أي أُولِدت إيلادًا.

• الغنائم: جمع غنمة. والجمع الآخر الأغنام، وكانت الأغنام مما يسهُل على الغزاة سوقه عندما يغيرون، فسُمِّي كل ما يناله المحاربون أغنامًا أو غنائم.

• الأناقة: أصلها واضح؛ أصلها الناقة. والناقة أدق جسمًا وأرشق حركة من الجمل. وكانوا في الزمان القديم يقولون للرجل الذي يتظرَّف: لقد استنوقت أو تنوَّقت؛ ومن هنا جاء فعل «تأنَّق» فلان، فهو أنيق.

• العقيلة: يريدون أحيانًا أن يسرفوا في التأدب فيقولون: عقيلة الوزير الفلاني أي زوجته. والعقيلة هي الدابة المربوطة، والعقل هو الربط. ومعيار حُسْن التصرف عند العرب القدماء أن يربط الإنسان دابته ولا يتركها طليقة. ومن هنا الحديث: اعقل وتوكل. فأصبح «عاقل» الناقة عاقلًا بإطلاق.

• السياسة: هي في الأصل سياسة الخيل، والسائس معروفة. ثم صار الساسة يسوسون بني آدم.

• الرياضة: هي ترويض الخيل، ثم صار الناس يروِّضون أجسامهم.

• الصادرات: هي الجمال والنياق التي ترتدُّ عن المياه بعد الشرب. والواردات العكس.

رحلة إلى الآخرة

غبر عليَّ زمن كنتُ فيه معلِّم صبيان. أذكر أنني طلبت منهم مرة أن يكتبوا موضوعًا إنشائيًّا بعنوان: «رحلة إلى الآخرة». طلبتُ إليهم أن يقوموا بسياحة

في الجنة والنار، وأن يتحدثوا عما شاهدوا وعمَّن شاهدوا.

أحد التلامذة أراد أن يشاهدني في الجحيم مطروحًا في مقلاةٍ عظيمة وأحد خزنة جهنم يقلبني بعصًا غليظة وأنا أتقلَّى في الزيت الحار.

وتلميذ آخر رآني جالسًا القرفصاء على حجر يتوهج، وبيدي قلم ودفتر وأحد الزبانية يأمرني أن أنسخ كتاب القراءة مائة مرة. غير أن معظم التلامذة أرادوني منعَّمًا في الجنة. وأما مدير المدرسة فكان نصيبه عند الجميع جهنم وبئس المصير، وبما أنني عمِلت في عدة مدارس فإنني أضمن أن تتبدد الشبهة.

وأخرج من حديث الهزل إلى حديث الجد، وقلما أفعل، وإن فعلت فإلى حين. لقد توقعت أن تقوم قيامة أولياء أمور التلاميذ على مثل هذا الموضوع الإنشائي، وترقبتُ أن تثور الثائرة على إعطائي التلاميذ موضوعًا كهذا. ولكنني فوجئتُ بأمرين؛ الأول: أن معظم الطلاب حدَّثوا أهاليهم عن الموضوع، والثاني: أن جميع من بلغني خبر منهم حمدوا الأمر واستحسنوه. شعرتُ أن الناس أقل تزمُّتًا مما نظن. أحسست بانفراج وتفاؤل. ومع ذلك كله، فنحن نعيش الآن في عصر التزمُّت. كان أجدادنا أجرأ في تناول مسائل القصص الديني؛ فأول من رحل إلى الآخرة (قبلي وقبل تلامذتي وقبل دانتي الإيطالي) أبو العلاء المعرِّي.

المعرّي في يوم القيامة

لم يرحل المعرِّي بشخصه إلى الآخرة، بل أرسل إليها الأديب الحلبي (ابن القارح). فقد كتب أديب المعرَّة رسالة إلى أديب حلب (تقع في أربعمائة وخمسٍ وخمسين صفحة من صفحاتنا المطبوعة، هذا في طبعة بنت الشاطئ التاسعة لـ الرسالة وحدها، بعد تخليصها من المقدمات والملاحق). وفي هذه الرسالة يتمنى المعرِّي لابن القارح أن يكون مثواه الجنة. ويستطرد أبو العلاء إلى وصف الجنة، ثم يقص على ابن القارح في مئات الصفحات كيف أدخله الله الجنة، وكيف التقى فيها بالشعراء وناقشهم في شعرهم، وكيف زار جهنم. ويصف المعرِّي أنهار العسل المصفَّى، ويجعل فيها أسماكًا أشكالًا وألوانًا. ويصف حيوان الجنة ونباتها، ويرسم خريطة مفصلة لتضاريسها. ولكن، كيف دخل ابن القارح الجنة أولًا؟

لقد أخذ يحاول استرعاء انتباه رضوان خازن الجنان في يوم الحشر فلم يفلح، ومدحه بالقصائد لكن دون جدوى، فاستشفع حمزة عم النبي فأرسله إلى عليٍّ، فأرسله إلى فاطمة الزهراء، فأمرت إحدى جواريها أن تحمله على ظهرها لتجتاز به الصراط المستقيم. وعند باب الجنة طلب منه رضوان جوازًا

(وكلمة «جواز» استعملها أبو العلاء) فأراد ابن القارح أن يأخذ ورقة من شجرة في الجنة تتدلى أغصانها إلى الخارج فرفض رضوان. ولكن شفاعة آل البيت أدخلته الجنة دون جواز. وليس في وسعي أن أختصر رسالة الغفران. إنني مندهش لأن المسلمين تقبلوها، غير أن تلك العصور تميزت برحابة الصدر، وعندي ثقة -أو شيء من ثقة- في أن رحابة الصدر ستكون أقوى من التزمُّت فيما نستقبل من سنين.

حَيص بَيص وأخواتها

إذا تحيَّر القوم واختلطت عليهم الأمور قيل: إنهم وقعوا في حَيْص بَيْص. وقد نؤول الحيص بالحيرة، وأما البيص فكلمة على وزنها ورويها، ولكن لا معنى لها، وإنما جيء بها لتقوية المعنى. ومن هذا الباب خراب يباب، وعطشان نطشان، وحيَّاك الله وبيَّاك. وقد سمَّى أهلُ اللغة في القديم هذه الظاهرة «الإتْباع»، وقد قتلوها درسًا وبحثًا حتى لقد ألَّف فيها ابنُ دريد كتابًا مستقلًّا، وتناولها السيوطي في كتابه المـُزهِر في اثنتي عشرة صفحة، ثم اعتذر عن تقصيره محيلًا القارئ إلى كتاب له مخصَّص لهذا الغرض سمَّاه الإلماع في الإتْباع. وقد تكون الكلمتان كلتاهما ذواتيْ معنى؛ كأن تقول: فلان «وسيم قسيم»، والخبر «شائع ذائع»، وفلانة «غضَّة بضَّة»؛ فهناك في اللغة غضاضة وهناك بضاضة وكلتاهما بمعنى طراوة، والغضة البضة هي تلك المرأة التي تراها فتضع يدك على قلبك وتقول آه. (وهناك غضّ الأبصار، جعلنا الله وإياكم من أصحابه).

وقد أسرفت اللغات الدارجة في الاتكاء على هذه الظاهرة، فإذا سألت صديقك وهو غضبان إن كان عنده حلاوة؟ فقد يردُّ قائلًا: «لا حلاوة ولا بلاوة». اللغات الدارجة جعلت ظاهرة الإتباع قاعدة يُقاس عليها، ولم تقصرها على ما هو مسموع ومستقر في المعجم الشفهي.

ولا تنفرد العربية بالإتباع، بل إنك ترى الإنجليز يقولون: «ويلي نيلي» يريدون شئت أم أبيت أو طوعًا أم كرهًا. ويقولون «هوكَس بوكَس» بفتح الكاف في الكلمتين، يريدون بها جلا جلا، أو هراء، ويقولون: «همبتي دمبتي» أي الحدباء القصيرة والمقصود البيضة.

قل ما تشاء

• قل المِنطقة بكسر الميم أو المَنطقة بفتحها؛ فبالفتح هي اسم للمكان المحاط (وهمًا أو حقيقة) بنِطَاق، وبالكسر هي الحدُّ الذي يحد المكان.

• قل: مَساحة بفتح الميم؛ فهذه ميم زائدة تفيد المكان، وأصل الفعل ساح يسيح أي تجوَّل. وقل: مِساحة بكسر الميم؛ فهذه ميم أصلية من الفعل مسح،

والمساحة على هذا هي المصدر، وهي مثل كِتابة ودِراسة وصِحافة. وأنصحك بالأولى إن أردت الإشارة إلى قطعة من الأرض، وبالثانية إن أردت علم قياس الأرض. وإن كنت تكتبها في مقال أنصحك بألا تشكلها.

• أكتبُ الصراط بالصاد أو السراط بالسين؛ فهي كلمة لاتينية الأصل معناها الطريق المعبَّد. وهي باللاتينية ستراتا، وبالإنجليزية ستريت. وقد كتبها قدماؤنا على الوجهين، وأنصحك بالصاد؛ إذ ورد بها الرسم القرآني المشهور، وهو أهم من أن نجعل له ضرة.

• البرد القارص خطأ شائع صوابه «القارس» أي الشديد. ولكن، إذا قال لك أحدهم: إن البرد الشديد يؤذيه كما لو أنه يقرصه قرصًا، فإنك لن تستطيع أن تستنجد الخليل بن أحمد لدحض شعور أخينا المذكور.

التبرير مطية الجهلة، ولكن الجهلة يصنعون اللغة مثلما يصنعها العارفون بالأصول والفصول، ونصيحتي الأخيرة: «قل ما تشاء»، ودع الناس يقولوا (أو يقولون) ما يشاءون (أو يشاؤون).

(2) أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٩٠.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

شعر أبي العِبَر خالٍ من العِبَر، وصرخات أبي ريشة نابعة من القلب، الدمعزة وأخواتها (3)

استولى عليَّ اليوم مزاج استهلاكي، فأخذت أقلب صفحات كتاب تصدره فصليًّا سلسلة متاجر مشهورة وتعرض فيه بضائعها بشكل جذاب. وصنعتُ قائمة بأشياء أريد شراءها، ووقّعت في أسفلها ووضعتها في مغلَّف. ثم فارقني ذلك المزاج الاستهلاكي؛ فمزَّقت المغلَّف والقائمة فوفرت بذلك مالًا كثيرًا وكسبت متعة التسوق. إن متعة شراء الأشياء التي لا نحتاج إليها غريزة أصيلة. إنها سبب شقاء العالم الثالث. ما لنا ولهذا، فلنتحدث عن شاعر.

أبو العِبَر

قال أحد نقَّاد الشعر القدماء: «إن قلت شعرًا فليكن جيدًا أو ليكن باردًا كشعر أبي العِبَر، وإياك والفاتر». والشعر البارد هو الهزل المملوء بالسخافات والمفارقات؛ كقول بعضهم:

كأنَّنا، والماءُ من حولنا،

قومٌ جلوس حولهم ماءُ

وهذا شعر لا يخلو من طرافة، وإن خلا من المعنى. ولكن، مَن أبو العبر هذا؟ إنه أبو العباس بن محمد بن أحمد، وهو من البيت العباسي، بيت الخلافة، وقد ازدهر حمقه وتجلى بَردُه في أيام المتوكل العباسي، وكان شاعرنا قد نيَّف على الخمسين عهدئذ. وقيل: إن المتوكل كان ينصب المنجنيق على شاطئ بركته المشهورة في سامراء ويرمي بأبي العبر بالمنجنيق عاليًا في الهواء ليقع في وسط البحيرة، وكان أبو العبر إذا علا في الهواء صاح: «الطريق … الطريق»، (مثلما يصيح المطرِّق أمام موكب الأمير)، فإذا غطس في الماء أخرجه السابحون أو رموا عليه شبكة من زورق واصطادوه كما يصطادون السمك.

وكان له مجلس في غاية العجب: كان يجلس وأمامه وعاء فيه ماء قذر، وفي يده قصبة طويلة، وعلى رأسه حذاء يعتمره، وفي قدميه قلنسوتان (والقلنسوة من قبعات ذلك الزمان) وحوله ثلاثة من مساعديه في صناعة الحمق والبله يدقون بالهواوين حتى تكثر الجلبة. ويأخذ بإملاء أشعاره الباردة

على الناس، فإن ضحك أحد الحاضرين قام أحد المساعدين فصبَّ على رأسه من الماء القذر، أو ضربه أبو العبر بالقصبة ورش عليه بها الماء، وقد يُحبس الضاحك في كنيف (هكذا كانوا يسمون بيت الراحة أيامئذ) إلى أن ينفضَّ المجلس ولا يخرجونه إلا بدرهمين.

وكان ما يقوله أبو العبر من الشعر وغيره مشحونًا بالمفارقات إلى درجة أن أحدهم سأله: من أين تأتي بكل هذه الحماقات؟ فقال: أُبكِّر فأجلس على الجسر ومعي دواة ودرج من الورق فأكتب كل شيء أسمعه من كلام الذاهب والجائي وكلام الملاحين وسائقي الحمير حتى أملأ الدرج على الوجهين، ثم أقطعه نصفين وألصقه مخالفًا فيجيء منه كلام في غاية العجب.

وقد جرب أبو العبر الشعر الرصين، ولكنه كان شاعرًا وسطًا، فلم ينفق سوقه في زمن كان فيه أبو تمام والبحتري، فاتخذ طريق الهزل فطار صيته وأصبح من ندماء الخليفة.

وكان أبو العبر يُكنى في أيام الرصانة أبا العباس، فلما كبسه الحمق صيَّر كنيته أبا العبر، وكان يزيد فيها في كل سنة حرفًا، فلما مات كانت كنيته «أبا العبر طرد طيل طليري بك بك بك».

شطحة لغوية

المُزُّ (بضم الزاي) هو الطعم الذي بين الحلو والحامض وفيه بعض مرارة. والمِز (بكسر الميم) في الإنجليزية هي بين المسز والمس. فكلمة مسز يلحقها اسم عائلة زوج المرأة، ومسز تشير إلى أن المرأة متزوجة، وكلمة مس يليها اسم عائلة المرأة، فالمس عَزَبة. وقالوا: لماذا يكون رجل مِسْتَرًا حرًّا؟ (المتزوج مستر والعَزَب مستر). ولماذا نقيِّد المرأة؟ فوجدوا أن المخرج بين مسز (Mrs) و(Miss) إنما هو (Ms) التي تنطق مِزّ. وقد درجت الكلمة كثيرًا.

وهكذا تحررت المرأة وانفضَّ الإشكال، وإن كانوا ما زالوا يبحثون عن وسائل لعتقها من رقِّ الإنجاب وفوارق الأجور وأشغال المنزل وعشرين شيئًا آخر. ومحاكاة للإنجليز اخترعنا كلمة الآندة؟ وهي كما لا يخفى على ذهن القارئ اللبيب -وقارئ هنا لندن يجب أن يكون لبيبًا، وإلا فإنه قد لا يفطن إلى ما يعتمده حضرة الطابع الكريم من زرع لغز أو أحجية في كل سطر... وذلك بالطبع لإمتاع القارئ وتنبيه خياله- كنت أقول: إن كلمة الآندة هي حاصل قسمة مجموع السيدة والآنسة على اثنين. وهذا باب طريف في اللغة يسمونه «النحت»، أي صنع كلمة واحدة من أحرف كلمتين بحيث تحمل هذه

الكلمة معنى يذكِّر بالمعنيين. ويبدو أن كلمة الآندة لم تحظَ عندنا بمثل ما حظيت به شقيقتها الإنجليزية «المز» من القبول.

الدمعزة وأخواتها

فأما ما هي (الدمعزة) فأمر نرجئه إلى حين، وأما أخواتها فمنهن الكبتعة ومعناها قولك للرجل: كبت الله عدوَّك، والبسملة ومعناها قولك: بسم الله الرحمن الرحيم، والحولقة: لا حول ولا قوة إلا بالله، وبعضهم جعلها الحوقلة بتقديم القاف. وهذه كلها تندرج في باب من أبواب (النحت). وكانت العرب تستسهل أن تدعو الرجل من قبيلة عبد شمس بالعبشمي، ومن عبد القيس بالعبقسي، وأن تنسب إلى امرئ القيس على مرقسي، وكانوا يقولون لبني الحارث: بَلحارث على النحت، ومثلها بَلعنبر وبَلهجيم. وقد ذهب العرب في النحت طرائق قددًا، وساروا فيه على أساليب سماعية وقياسية، ولكنهم لم يفوقوا في هذا الباب أهل الإنجليزية والألمانية، وإن تفوقوا في باب الاشتقاق.

لقد أسرفت اللغات الأوروبية في توليد الكلمات عن طريق النحت، وانتفعت بذلك كثيرًا في إيجاد أسماء للمسميات الطارئة في العلوم والآداب. يستخدمون البوادئ واللواحق (وهي كلمات أقزام من قبيل (Anti) و(Non) و(able) و(ism) قد لا يكون لها معان محددة إذا وردت وحدها فما إن تلتصق بكلمة سابقةً أو لاحقةً حتى تكتسب الكلمة معنى جديدًا)، وتراهم يجمعون بين الكلمتين بشَرطة أو بدون شَرطة. وقريب من هذا النمط كلمة الأفرو-آسيوي التي نقلناها عنهم، وكذلك كلمة سوسيو-إيكونومي التي يريدون بها علم الاقتصاد الاجتماعي.

وقد أسرف الألمان في النحت حتى لتجد عندهم كلمات يصل عدد حروفها إلى العشرين، ويزيد عن ذلك أحيانًا، ويسمونها «الكلمات الأفاعي»، ومنها مثلًا كلمة (Rassentrennungspolitik) ومعناها «سياسة الفصل العنصري» (لا تتعب نفسك بالعدِّ ... ٢٢ حرفًا). ولكن الألمان ليست لديهم كلمة مثل «الدمعزة»، لقد فاتهم جانب الطرافة في اختصار بعض الجمل على طريقة العرب القدماء، ولعل القارئ يجب أن يتسلى بتحليل كلمة «الجعفدة» أيضًا. فماذا عساها تعني؟ إنها حكاية قولك: «جعلني الله فداك»، وأما «الطلبقة» فهي اختصار: «أطال الله بقاءك». و«السبحلة» سهلة ولا شك، وهي حكاية قولك: «سبحان الله». وكلمة التسبيح أجمل منها وأرصن. ومن أخوات «الدمعزة» (وما هي الدمعزة أصلًا؟) كلمة «الحمدلة» وهي معروفة. و«الحسبلة» وهي قولك: «حسبي الله».

وقد حاول منير البعلبكي في قاموسه المشهور المورد أن يحث الرأي العام اللغوي على قبول النحت على الطريقة الأوروبية، فاستعمل كلمات من قبيل

القروسطي (نسبة إلى القرون الوسطى)، والقبتاريخي نسبة إلى ما قبل التاريخ. ولا أظنه نجح، غير أننا تقبَّلنا استعمال حرف النفي (لا) في سياق النحت كما في كلمة اللَّاإرادي واللَّاعنف واللَّاساميَّة.

وقبل أن أنتهي من حديث الدمعزة وأخواتها لا بد أن أعترف للغات الأوروبية بأنها تمكنت من استنباط آلاف الكلمات المفيدة المعاصرة عن طريق النحت (افتح القاموس الإنجليزي وانظر فقط تحت Self أو Co). ولئن افتخرنا بمرونة لغتنا بسبب اتساع باب الاشتقاق عندنا، فعلينا أن نعترف بأن الآخرين لهم أبواب وشبابيك. هذه هي قصة الدمعزة وأخواتها، «دام عزك» يا حضرة القارئ.

عمر أبو ريشة

مات عمر أبو ريشة (١٩١٠ - ١٩٩٠) هذه السنة. كان سفيرًا لبلده سوريا في عدة عواصم. كم من السفراء ماتوا ولم نسمع بهم! قد كان شاعرًا. وعندي أن قصيدته «أمَّتي» عروس شعره.

قال عمر أبو ريشة بعد نكبة فلسطين:

أمَّتي! هل لك بين الأممِ

منبر للسيف أو للقلمِ

أتلقَّاكِ وطرْفي مطرِقٌ

خجَلًا من أمسِكِ المنصرمِ

ويكاد الدمع يَهميِ عابثًا

ببقايا كبرياء الألمِ

كيف أغضيتِ على الذلِّ، ولم

تنفِضي عنكِ غبار التُّهَمِ

أَوَما كنتِ إذا البغيُ اعتدى

موجةً من لهبٍ أو من دمِ

أُتركي الجرحَى تُداوي جُرحَها

وامنعي عنها كريمَ البَلْسمِ

ودعيِ القادة في أهوائها

تتفانى في خسيس المَغنمِ

رُبَّ «وامعتصماهُ» انطلقتْ

ملءَ أفواه الصبايا اليُتَّمِ

لامستْ أسماعَهُمْ، لكنها

لم تلامسْ نخوة المعتصمِ

لا يُلام الذئبُ في عدوانه

إن يَكُ الراعي عدوَّ الغنمِ

ومن قصيدته «عنفوان»:

لم ترتشفْ دمعي شفاهُ الهوانْ

ولم ينادِ المجدُ: هذا جبانْ

فاعصِفْ فإنِّي صخرةٌ يا زمانْ

ويعجبني لأبو ريشة بيتان في الاعتذار قالهما في رثاء السياسي الوطني سعد الله الجابري، وكان الشاعر ناصَره في حياته، ثم خرج عليه وانتقده:

شهد الله ما انتقدتُكَ إلَّا

طمعًا أن تكون فوق انتقادي

وكفى المرءَ رِفعةً أن يُعادَى

في ميادين مجده ويعادي

قصة قصيرة

في الوقت نفسه من كل صباح كان يسير في الطريق نفسه متجهًا إلى المدرسة وبيده حقيبتُه العتيقة، وفيها دفاتر التلاميذ وكتب الرياضيات المقررة، وكتاب سميكٌ آخر يستخرج منه المسائل الإضافية لطلبة الصف النهائي وقبل النهائي. وكان الطلاب يتشاءمون من منظر هذا الكتاب، ولكنهم كانوا يحترمون أستاذهم ويحبونه حبًّا هادئًا لأنه هادئ ووديع.

ولكن، لو أنهم علموا أنه يتمنى أن تموت زوجتُه لَما احترموه، ولو علموا أنه فاسقُ الدخيلة لَسقط من أعينهم، ولو علموا أنه زاني الخيال وأنه لا يعِفُّ عن الرذيلة إلَّا لأنها غيرُ متيسِّرة لغيروا رأيهم فيه. ولو علموا أنه يتمنى أن تتسع شبكةُ الدروس الخصوصية، التي ينصِبها الآن بحياء، حتى تشمل كل بيت في

الحي، وكل حي في المدينة، وكل مدينة في البلد، لاشمأزّوا منه. ولكنهم لا يعلمون.

أقوال غير مأثورة

• اللغة في عين أهلها كالطفل في عين أمه.

• العالم الثالث: كذبة يرددها الجميع، مع أنهم يعلمون أن هناك عالمين: عالم الأغنياء وعالم الفقراء.

• المسرح كائن محكوم عليه بالإعدام، ولكن النقاد يستأنفون الحكم كلما اقترب موعد التنفيذ.

• الثلاجة: صندوق تفتح بابه النساء البدينات في ساعة من ساعات الليل ويقفن طويلًا، مما يورثهن تأنيب الضمير.

• الرجل الشرقي لا يصبح رجلًا إلا عندما يموت أبوه.

• العفة هي أن ترغب فتتمكن فتحجم. وهذا صعب.

• القاموس كتاب يشرح الكلمات التي تعرفها مطولًا والكلمات التي تجهلها باختصار.

• الشعر الذي تحفظه وتحبه هو ما درسته في المدرسة، وكل ما طرأ بعد ذلك دخيل.

(3) نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٩٠.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

رنين الشّعر وذَوق الأمرّين والعنقفير والخنفقيق (4)

الشعر العربي القديم نبيذ عتيق، وضعه أجدادنا في دِنَان، في كهوف، في جبال؛ في بلاد أرضها آلٌ وأهلوها خيال. وسدوا عليه بالطين. واليوم نأتي إلى هذه الدنان فنجد خمرًا أكل الدهر جسمها وأبقى روحًا صرفًا، ثم نسفح هذه الخمر العتيقة ونسقي بها التراب. لقد استعجم علينا الشعر القديم؛ لقلة اهتمامنا به، ولأن سُنَّة التطور قضت بأن نستبدل بالشكل القديم شكلًا جديدًا في الأوزان والقوافي. غير أنه يحلو لنا بين الحين والحين أن نسكب قليلًا من خمرنا العتيقة

في كؤوس كأنهن نجومٌ

دائراتٌ بُروجُها أيدينا

طالعاتٌ مع السُّقاة علينا

فإذا ما غَرَبنَ يغرُبن فينا

أبيات لها رنين

لبعض الأبيات قوة السِّحْر، هذا بيت للمتنبي لا أرى فهم معناه شرطًا لتذوقه، فجرسه وحده غذاء للسمع:

سِربٌ محاسنُه حُرِمتُ ذواتِها

داني الصفاتِ بعيدُ موصوفاتِها

يقول أبو الطيب: إنه محروم من هؤلاء الحسان ولكن محاسنهن ملء العين، فما أقرب الصفات، وما أبعد النساء المتصفات بها. وكما ترى فإن الشرح أحال البيت إلى مقولة أرسطية، ولكن البيت مسبوك سبكًا حسنًا. أعتقد أن حرفي السين في الشطر الأول، وحرفي الصاد في الشطر الثاني، بالإضافة إلى هذه القافية المشبعة المقنعة هي السبب.

وفي هذه القصيدة بيتان في مدح أحد النكرات الذين تدرَّبَ عليهم أبو الطيب في صباه:

أعيا زوالُك عن محلٍّ نِلتَهُ

لا تَخرجُ الأقمارُ عن هالاتِها

ذُكِرَ الأنامُ لنا فكانَ قصيدةً

كنتَ البديعَ الفَرْدَ من أبياتِها

أصرَّ الناقد القديم على أن البيت الثاني هو بيتُ القصيد، ولكنني أرى البيت الأول بين هذين من أبدع الشعر. تخيلوا: هل يمكن للقمر أن يخرج من هالة الضوء التي تحيط به؟ وهكذا الممدوح فهو ثابت في مكانته العالية لا يمكن أن يفارقها.

وقد مدح المتنبي سيفَ الدولة، بعد القطيعة بسنوات، بقصيدة أرسلها إليه من الكوفة فيها بيتٍ رنان جدًّا أذكُره مع أخٍ له، وأمهِّد لذلك بالقول: إن سيف الدولة كان منشغلًا بمحاربة الروم وبتهدئة الفتن الداخلية على أطراف الصحراء في آنٍ معًا. قال أبو الطيب:

أنتَ طُولَ الحياةِ للرومِ غازٍ

فمتى الوعدُ أن يكون القُفولُ

وسوى الرومِ خلف ظهرِكَ رومٌ

فعلى أيِّ جانِبيْكَ تميلُ؟

وإذا ساورَتِ القارئَ حيرةٌ في أيِّهما البيتُ المقصود فهذا من علامات اختلاف الأذواق. أنا أرى أنه الثاني.

وسأقص قصة يتجلَّى فيها الإجماع التذوقي عند القدماء؛ فقد رثا المتنبي أختًا لسيف الدولة بقصيدة كان البديعَ الفردَ فيها بيتان:

طوى الجزيرةَ حتى جاءني خبرٌ

فزِعتُ فيه بآمالي إلى الكَذِبِ

حتى إذا لم يَدَعْ لي صدقُه أملًا

شَرِقتُ بالدمع حتى كاد يشرَقُ بي

ومضت الأيام وشهرة المتنبي في ازدياد. وكان ممن يحسده على صيته الأمير الصاحب بن عباد. وماتت يومًا امرأة من أقارب الصاحب، ودخل عليه كاتبه بعد موتها فوجده حزينًا مكتئبًا فأخذ يعزيه، فقال الصاحب: لستُ حزينًا لموتها. سبب غصتي أنه وردني أكثر من ستين كتابًا في التعزية ليس فيها كتابٌ إلا في صدره بيتَا المتنبي.

«الأبوان» وأخواتها

الأبوان أب وأم، ولكن اللغة العربية جعلت الأم أبًا؛ لتسهِّل التثنية. ومثل ذلك الوالدان، فمع أن كلمة الوالد تستخدم للرجل فلا يغيب عن البال أن الذي يلد هو المرأة (فما يقدِّمه الرجل في هذا المضمار هو، بالمقارنة مع ما تقدِّمه المرأة، كنسبة تسع دقائق إلى تسعة أشهر). وقد سمَّى العرب عمر بن الخطاب وأبا بكر الصديق العمرين، جرى تغليبُ اسم عمر لتسهيل التثنية، وإنما سكَّ العرب هذا التعبير قبل أيام عمر بن عبد العزيز. ومن هذا الباب أيضًا: القمران للقمر والشمس، والبصرتان للبصرة والكوفة، والمشرقان للمشرق والمغرب.

ويختلف عن ذلك تعبير «الجديدين» -الليل والنهار- فهذه كلمة ثالثة جيء بها للتعبير عن كلمتين. ومن هذا الباب أيضًا: الأحمران: الشراب واللحم، والحَرمان: مكة والمدينة، والأزهران: الشمس والقمر، والخافقان: الشرق والغرب، والعراقان: عِراق العرب وعراق العجم، والرافدان: دجلة والفرات. ونسمع عبارة «ذاق الأَمَرَّين»، والأمرَّان هما الجوع والعُري.

وهناك أسلوب آخر: «خِفَّةُ الظهر أحد اليَساريْن» أي قلة العيال هي الثراء الثاني إن فاتك الثراء الأول وهو كثرة المال. وهذا تركيب يُقاس عليه. قالت العرب: «الحِميَة إحدى المَوتَتين»، والموتة الأولى معروفة وهي أن يتخشَّب ابن آدم ويُحمَل إلى حفرته، والموتة الثانية هي الحِميَة عن الطعام والحرمان من أطايبه. وقيل أيضًا: «العقوق أحد الثُّكلين».

ويختلف عن ذلك قولُك: «فلان أحد رجلين: مجنون لا يدري ما يصنع، أو عبقري لا يدري الناس ما يصنع»؛ فهذا من باب المثنى العادي ولكنه تركيب طريف.

العجوز والداهية

كنت قرأتُ فصلًا عقده أحد الآباء اليسوعيين عن أسماء «الداهية» في اللغة العربية. وأذكر أنه أورد ١٣٨ اسمًا للداهية. وبحثتُ عن الكتاب طويلًا فلم أجده، ولكنني عثرت على ما يُغني عنه؛ فقد خصص الثعالبي في فقه اللغة فصلًا للداهية قال في مقدمته: إن الكسائي جمع أربعمائة لفظة بمعنى الداهية أو المصيبة. وقال معتذرًا: إن تكاثر أسماء الدواهي من أكبر الدواهي. والداهية هي النازلة والنائبة والآبدة والحاطمة والفاقرة والقارعة والغاشية والحاقة والطامَّة والصاخَّة والرقمة. ومن أسمائها الحَبَوْكرين والعَضيهة والعنْقَفير والخنفَقيق.

ولئن كان في العربية مسمًّىً واحد له مائة اسم، فهناك أيضًا اسم واحد له مائة معنى … ومعنى. هاكم التفصيل. المؤرخ اللبناني محسن الحسيني

العاملي الذي توفي قبل ٣٨ عامًا نظم قصيدة في الحِكَم والمواعظ في مائة بيت وبيت، وجميعها تنتهي بكلمة العجوز، ولكل عجوز من عجائز العاملي معنى مختلف.

قال في القصيدة:

أتعمَلُ طول دهرك للعجوز

ولا تخشى غدًا حَرَّ العجوز

«الدنيا/ النار»

تروح وتغتدي في جمع مال

لديك من النُّضار أو العجوز

«الفضة»

وفي تحصيله تطوي الفيافي

مُغِذًّا بالسُّرى فوق العجوز

«الناقة»

استطراد: عندما اختُرع الكمبيوتر، أصبح الشغل الشاغل لنا البحث عن اسم له. سمَّاه بعضهم «العقل الإلكتروني»، فاعترض آخرون قائلين: إن العقل ليس آلة التفكير بل هو الفكر نفسه؛ ولذا سمَّوه «الدماغ الإلكتروني» ثم عدلوا عن الاسمين، وقالوا: بل هو «الحاسوب»، وقال آخرون: بل نسميه «الرتَّاب»، ثم غيَّروا رأيهم وسموه «الرتَّابة». وقد نخترع مائة اسم آخر للكمبيوتر، ولكننا بالتأكيد لن نخترع كمبيوتر.

على عتبة الآخرة

هناك باب شائق وطريف من أبواب الأدب يضم الكلمات الأخيرة التي قالها العظماء (أو غير العظماء) على فراش الموت أو على المقصلة. فهل نستطيع إنكار الحكمة البالغة والتجربة الغنية في عبارة يوليوس قيصر التي قالها والخناجرُ تنوشه: «حتى أنت يا بروتوس!»، وكان بروتوس ربيبه، ولكنه تآمر عليه واشترك في قتله. وكان أحد معلِّمينا في المدرسة الإعدادية يروي لنا القصة بالتفصيل ثم يورد هذه العبارة باللغة اللاتينية لتزداد دهشتنا ولكي نرى أننا قريبون من المنبع. ولا أرى بأسًا في الإدهاش على طريقة أستاذنا. قال قيصر: (Et tu, Brute!)

وقال دانتون دكتاتور فرنسا أيام الثورة وقد اعتلى منصة المقصلة، موجِّهًا كلامه إلى القائم على قطع رأسه: «لا تنس أن تتيح وقتًا للجميع لكي يشاهدوا رأسي، فإن فرنسا لن تشهد رأسًا مثله إلا بعد زمان طويل».

وكان لويس السادس عشر الذي قَصلته الثورة قبل دانتون أكثر تواضعًا عندما قال على مشارف الآخرة: «أيها الفرنسيون، أموت بريئًا من التُّهم التي أُلصقت بي. إلهي، لا تحمِّل فرنسا خطيئة دمي».

وأما لويس الثامن عشر الذي ورث العرش بعد الثورة فقد مات «على فراشه» حسب التعبير الشائع. ليس هكذا تمامًا كما يبدو من آخر عبارة له؛ إذ قال: «لا يحسن بالملك أن يموت إلَّا واقفًا».

وأما الكاردينال «وولسي» الذي استصفى الملك هنري الثامن الإنجليزي أمواله وأملاكه في شيخوخته ورماه في السجن، فكانت آخر كلماته: «لو أنني أخلصت لله بنصف القدر الذي أخلصتُ فيه للمُلك لما تخلى عني في أرذل العمر». ومن أشهر عبارات الكاتب الفرنسي الساخر «رابيليه» آخر عبارة تفوه بها: «أنزلوا الستار، فقد انتهت المهزلة». وربما كان سبب شهرة العبارة أن رابيليه دأب على السخرية من كل شيء في العالم أثناء حياته الأدبية، فعندما مات لخص حياته بأنها كانت مهزلة، فكأنه أتى قبل أن يلفظ آخر نفس بإثبات جديد على أن كل ما قاله في حياته كان صحيحًا. وقال الزهاوي الشاعر العراقي الذي مات قبل ٥٤ عامًا:

من قضى نحبَه ونام بقبر

لا يبالي طول الليالي السودِ

لست أَدري أَلِلفناء سنمضي

بعد أنَّا نموتُ أم للخلودِ

حبذا لو حظيت من بعد موتي

بحياتي التي انتهت من جديدِ

وكان آخر شعر لعلي بن الجهم الشاعر العباسي ما قاله وهو جريح بعيد عن وطنه:

وارحمتاهُ للغريبِ في البلد النَّا

زحِ ماذا بنفسه صنعا

فارق أحبابَه فما انتفعوا

بالعيش من بعده ولا انتفعا

يقول في نأيِهِ وغربته

عدلٌ من الله كلُّ ما صنعا

نسأل الله حسن الختام وموتة مريحة كموتة عرفجة. وعرفجة هذا أعرابي ذَبَح جَديًا وأكل نصفه، وشرب قربة ماء، واستلقى في الشمس فنام، فمات في نومه؛ مات شبعان ريَّان دفآن. ومات صامتًا!

أقول ...

على سائماتِ المحيطاتِ تهتُ

على عتباتِ المرافئِ حرتُ

وساءَلني الموج هل يا سليلَ الأعاصيرِ تبقى شراعًا تطوِّحه الأمنياتُ شريدًا تَرودُ أعالي البحار،

وأهلُ المكارم ماتُوا، وأنتَ حيِيٌّ

فقلت له: قد توسَّمتُ فيك الأمانَ، توخَّيْتُ فيك مضاربَ طَيٍّ

ولكنني لم أجدْ ليَ عندك شَيٌّ

وقد لفظتني المرافئُ واستأجرتني صنوفُ التماسيح، أَخدُمُ أَيٌّ؟

وفي ساعةٍ مَّا قبيل الغروب أُحسُّ بأن جميع التماسيحِ حَرْبٌ عليٌّ

أقوال غير مأثورة

• إذا قال لك أحدهم: تعال نتفاهم، فمعنى ذلك: تعال أقنعك برأيي، وإلا فلا تفاهم.

• الإنسان هو ذلك الكائن الذي يغتاب المسؤول عنه في العمل.

• القمر شيء أقرب إلى الاستدارة يظهر في السماء ويراه الناس في القرى.

• الأمَّة: جماعة من الناس يظنون أن كل الروابط تجمعهم.

• لا تذكر لأحد عيبًا من عيوبك، فإنه قد يعجب بصراحتك لحظتئذ، ولكنه سيؤمن بصحة ما قلتَ عندما تقع البغضاء بينكما.

أقوال مأثورة

• الأشباح كائنات تنفي وجودَهَا جميعُ الأدلة، ولكن كل الناس يؤمنون بوجودها. (صموئيل جونسون)

• الجريمة يتبعها دائما الخوف، وهو وحده العقاب عليها. (فولتير)

• الطريقة الوحيدة للتخلص من الإغراء هي الاستسلام له. (أوسكار وايلد)

• أسعد الأمم التي ليس لها ماضٍ، وكذا أسعد النساء. (الكاتبة جورج إليوت)

• أبواب العدالة مفتوحة أمام كل مواطن في إنجلترا، وكذلك أبواب فندق سافوي. (مجهول)

(4) ديسمبر/ كانون الأول ١٩٩٠.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس

ابن عُنَين، صاحب العاطلة،

الأطول ثم الطويلة، ألفية ابن مالك (5)

خروف مشوي محشو بما لذ وطاب، وعليك أن تأكله كله. اللقمات الأولى لذيذات، وعندما تتعدى حدَّ الشبع يصير الأكل عذابًا. بين يديَّ الآن ديوان الشاعر الدمشقي ابن عنين وهو دسم ولذيذ، وأنا أقرأ القصيدةَ والقصيدتين، ثم أضعه في الثلاجة إلى أن أهضم ما قرأت. وسوف أقيم على هذه الصفحة وليمة قوامها بيت من الشعر انتخبته من لحم الرقبة.

ابن عُنين

مات شرف الدين بن عُنين قبل ٨٠٠ سنة، عاش في دمشق وفي غير دمشق، ولكن أشعاره في التشوق إلى بلده أرقُّ ما كتب، وقد سلق أعداءه من أهلها بلسانه، وكتب قصيدة هجا فيها هؤلاء الأعداء واحدًا واحدًا. وهتك أعراضهم، حتى إن الناس أطلقوا على هذه القصيدة اسم «مِقراض الأعراض». وأولها:

أضالِعٌ تنطوي على كرْبِ

ومقلة مستهِلَّةُ الغرْبِ

وأجمل بيت لابن عنين في رأيي بيت وصف فيه ترحاله المتواصل؛ حيث قال:

أُشقِّق قلب الشرق حتى كأنني

أفتِّش في سودائه عن سَنَا الفجرِ

صاحب العاطلة

كيف يتعامل الكاتب مع اللفظة والعبارة؟ هناك ٣٤٧ طريقة لذلك (لا تحمل كلامي على محمل الجد إلا عندما أطلب منك ذلك). هناك الكاتب «المتقعر» الذي يريد نفخ الروح في رميم الأساليب المهملة، إنه تاجر الغريب النافر. وهناك الكاتب «البليد» الذي يُكثِر من الاتكاء على عبارات فقدت قسطًا كبيرًا من عافيتها، فتراه يردد مثلا عبارة «وغني عن القول»، أو عبارة «ومن ناحية أخرى». وهناك الكاتب «الأنيق» وهو يُحسن اختيار الكلمات والعبارات، وإذا أسرف في الأناقة فإنه يشغلك عن متابعة أفكاره، وعند المسرفين في التأنق لا يوجد في العادة أفكار تستحق المتابعة. وهناك الكاتب «الجريء»، ومن

شأنه أن يطوع الكلمات الدارجة أو الأجنبية وأن يَعدِل باللفظة عن المعنى الذي وضعت له، ومصير الجريء أن يتهور.

وهناك «صاحب العاطلة». والعاطلة هي المرأة التي لم تتزين بعقد ولا بسوار ولا بمسحوق ولا بمعجون. واللغة العاطلة هي البسيطة بساطة الخبز، المباشرة التي لا دور للكلمة فيها إلا أن تكون أداةً ذات وظيفة، ولم أعرف أحدًا استطاع أن يكتب بلغة عاطلة سوى صديق لي. يكتب لي رسالة في الشهرين أو الثلاثة أشهر. وعندما أجيبه أجد لذة بالغة في تقليد أسلوبه، مع أنني لا أستطيع مجاراته. فأنا أتقعر كثيرًا (إما لاستعراض المكنون، أو لمجرد التلمظ بتلك التراكيب القديمة التي لها سحر، ولها طعم المعتق من الأنبذة)، كما أنني أتبلد أحيانًا ولا سيما عند تناول مسألة نحوية (فعندئذ أراني أتقمص شخصية ابن هشام الأنصاري، وهو نحوي قديم عزيز عليَّ)، كما أنني أحاول التأنق، ولكن الطبع لا يُسْعِفُ، وأما الجرأة فقلما يسمح بها المقام.

وفي هذا الخضم من الجواذب والكوابح يتعثر القلم كثيرًا. كلما ازدادت الفكرة صفاءً استغنت عن المحسنات.

الأطول ثم الطويلة

الحدُّ الأدنى للقصيدة سبعة أبيات، وقال بعضهم: بل عشرة. هذا في الشعر القديم، وأما الشعر الحديث فإن أقصر قصيدة فيه قد تكون من سبع كلمات موزَّعة على عشرين سطرًا، وتقع في أربع صفحات (لا أدري كيف يصنعون ذلك! ولكننا ندفع ثمنه -نحن القراء- غاليًا).

أما أطول قصيدة في الشعر العربي فهي بلا شك (والكاتب غالبًا ما يستخدم عبارة بلا شك عندما يفتقر إلى الدليل القاطع) «القصيدة العَلوية المباركة»، وهي في مدح الإمام علي وسرد مناقبه ورواية سيرته. عدد أبياتها ٥٥٩٥ بيتًا، جميعها على قافية واحدة، وقد طُبعت في كتاب من ٦٠٣ صفحات، وصاحبها الشاعر عبد المسيح الأنطاكي، المتوفى عام ١٩٢٢. يقول الأنطاكي في «القصيدة العَلوية المباركة»:

والعُرْبُ من قِدَمٍ أسمى الورى حسبًا

إذا رجعنا إلى تاريخِ ماضيها

والله أنزلَ في القرآن آيتَها الـ

غرَّا لتَردَع عنها مستبدِّيها

هذا وهو عبد المسيح، كيف لو كان عبد الحسين؟

ومن الأطول إلى الطويلة ... إلى ...

ألفية ابن مالك

«الألفية» منظومة تقع في ألف بيت، ويكون موضوعها عِلمًا من العلوم تجمع الألفية أطرافه بإيجاز؛ لكي يسهل حفظ قواعد هذا العلم بحفظ ألفيته. وكان أحد النحاة، ويُدعى ابن معطٍ، قد نظم ألف بيت جمع فيها علم النحو. ثم جاء ابن مالك ونظم ألفية بارعة لم تترك قاعدة نحوية إلا أوردتها بلفظ موجز. وعندما تمَّ لابن مالك النظم شرع يكتب أبياتًا يستفتح بها ألفيته:

قال محمدٌ هو ابنُ مالكِ

أحمَدُ ربيِ اللهَ خيرَ مالكِ

وأستعين الله في ألفيةْ

مقاصد النحو بها مَحْوِيَّةْ

تقرِّب الأقصى بلفظ موجزِ

وتبسط البَذْلَ بوعدٍ منجَزِ

حائزةً رضًا بغير سُخطِ

فائِقةً ألفيةَ ابنِ مُعْطِ

ثم إنه أدركه النعاس، فنام، فحلم بابن معطٍ وقد جاءه معاتبًا يقول: «ويحك يا ابن مالك، تسلك في آثارنا وتفخر علينا». فاستيقظ ابن مالك وهو يشعر بالخجل لنكرانه جميل من سبقه، ولكنه لم يرغب في أن يسقط ذلك البيت الأخير فألحق به ما يصلح الخلل، فقال عن ابن معط:

وهو بسبْقٍ حائز تفضيلا

مستوجِبٌ ثنائيَ الجميلا

والله يقضي بهبات وافرةْ

لیِ وله في درجاتِ الآخرةْ

وهكذا تمَّت لابن مالك الديباجة، فعرض منظومته على أهل العلم فاستحسنوها، ولم يبق أحد من طلَّاب النحو إلا شرع في استظهارها، ومرَّت مئات السنين وألفية ابن مالك تعيش أو تعشِّش في بعض المعاهد.

يبدأ ابن مالك سرد قواعد النحو بقوله:

كلامنا لفظ مفيد كاستَقِمْ

واسم وفعل ثم حرف الكَلِمْ

ومعنى ذلك أن الجُملة التامَّة يجب أن تكون مفيدة مثل «استقم»، فهذه جملة من فعل أمر وفاعل مستتر، وأن الكلمات العربية تُقَسَّم إلى ثلاثة أقسام: اسم وفعل وحرف. وتمضي الألفية على هذه الوتيرة، وهي ليست منظومة يسيرة، وقد توفَّر على شرحها وإعرابها عشراتُ النحاة، وعلّقوا على شروحها الحواشي. بقي أن نقول: إن هذه الألفية لا تبلغ الألف بيت، ولكنها تقصر عن ذلك بأربعة أبيات ... ربما أخطأ الرجل في العَدِّ، أو أخطأ الذين عدُّوا بعده.

البحرين.. والبحر

يقول بعضهم «البحراني» في النسبة إلى البحرين. قالها لسان العرب ناقلًا عن سيبويه، وقالها مُحْكَمُ ابن سيده، وقالوا: إنها نسبة على غير قياس؛ كقولك: «صنعاني» في النسبة إلى صنعاء. ولا يُقَال: هذه البحران، وزرت البحرين ... بل هي البحرين دائمًا، والنسبة إليها بحراني أو بحري، هذا في كتب اللغة. وفي زمننا قالوا: إن البحراني هو العربي وهو الشيعي، وشيعة البحرين عرب أقحاح كسُنَّتِها، والجمع بحارنة. لكن الرسمي بحريني، والسلام.

والبحر في التعريف المعجمي هو الماء الكثير، ملحًا كان أم عذبًا، وهو خلاف البرِّ، وهذا التعريف ليس مما يَسُرُّ علماء الجغرافية، فهم يريدون التفريق بين البحر والنهر، وتعريف المعاجم يخلط بينهما. والواقع أن القدماء كانوا يسمون النهر الكبير بحرًا ... وكانت الناس حتى عهد قريب تقول: «بحر النيل» عن نهر النيل.

قصيدة الإيفيننغ ستاندارد

جاء الخريف وسقف لندن غيمة حدباء تهطل بالكآبة

شيء يخبرني بأنك لست تجهلني

أنَّت شعاب النفس وانتشر الخريف على شغاف القلب،

يا رب الفصول أراك تهملني

كتبت هذه القصيدة العصماء على فسحة بيضاء على الصفحة الأولى من جريدة الإيفيننغ ستاندارد في القطار، فسميتها باسم الصحيفة. ثم نسختها على ورقة ثم على ورقة أخرى ثم على ورقة ثالثة، وأدخلت عليها تعديلات لا

حصر لها، محاولًا أن أمسح روح كل شاعر تأثرت به، ولكن القصيدة ظلت شاهدًا على سرقات عدة. أرجو ألَّا أعاود الكرَّة.

قل ما تشاء

• الرئيس «السابق» أم «الأسبق»؟ قالوا: السابق هو السلف الأول للرئيس الحالي، وأما الأسبق فهو أحد السابقين. ولكن الأسبق حسب القاعدة هو الأكثر سبقًا؛ أي أول من تولى منصب الرئاسة. اقترَح بعضهم استعمال كلمة السابق بدون «أل» التعريف للدلالة على واحد من السابقين، فنقول: «وهو رئيس سابق». وقال مؤيدو «الأسبق»: لا ... بل إن الأسبق لا تعني مطلق التقديم فهي من باب أفعل الصفة المشبهة لا أفعل التفضيل. ولا تزال المسألة قيد المداولة.

• قُلْ: «الصَّحَفي»، أو «الصُّحُفي»، وقل: «الصِّحافي» إن شئت، سنفهم ما تريد في كل الأحوال.

(5) يناير/ كانون الثاني ١٩٩١.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس

الجميل والقبيح، شوقي المدّاح النوّاح، وموقفٌ للعقاد(6)

في البلدان المتخلِّفة (التي يسمونها النامية) تنفق الدولة بسخاء على تشجيع الفنون والآداب. وفي البلدان المتقدمة الجمهور نفسه هو الذي يكافئ الأدباء والفنانين بشراء كتبهم وتذاكر مسرحياتهم وأفلامهم. الفنان والأديب يسعدان بهذه المكافأة المباشرة؛ لأنها تعبير صادق عن الإعجاب، فهي عبارة عن رسالة إعجاب مرفقة بشيك. والدعم الحكومي قد يكون معناه أن الأديب منافق وقد لا يكون. وقد يصل الدعم إلى مستحقّيه وقد لا يصل.

حالة تسلل

كان لي صاحب يعمل مترجمًا بجريدة. ترجم يومًا خبرًا عن دخول مغنٍّ مشهور في الإسلام -وهو استطرادًا البريطاني كات ستيفنس الذي صار اسمه يوسف إسلام- وكتب صاحبي في سياق ترجمته: «وقد أسلم كات ستيفنس بعد أن...»، وجاء المصحِّح فشطب كلمة «أسلم» ووضع في مكانها عبارة: «اعتنق الإسلام».

وأتخيل ذلك المصحِّح وقد أخذه الزهو وجُنّ سرورًا بالتعبير الذي أتى به، معتقدًا أنه طبَّق المَفصِل، وقطع دابر اللحن. الواقع أن «أسلم» هي الكلمة الفصيحة القديمة المختصرة التي تؤدي معنى الدخول في الإسلام. ولمن دخل في المسيحية هناك كلمة «تنصَّر»، وفي اليهودية: «تهوَّد». ولا أرى بأسًا في القياس عليهما بالقول: «تبوَّذ» لمن دخل في البوذية، و«تهندس» لمن دخل في الهندوسية ... وأما العقيدة الكنفوشوسية فخليقة أن تقلب ميزان اللغة.

نعود إلى «اعتنق الإسلام» هذا التعبير جاءنا من اللغات الأوروبية الحديثة. وفي الإنجليزية (embrace) تعني المعانقة الجسدية وكذلك الدخول في مذهب، وقد ترجمنا المعنى الثاني ترجمة ... أو أننا ألبسنا لفظ «اعتنق» العربي معنى جديدًا أخذناه عن صنوه في الإنجليزية. وهذه ظاهرة فاشية في لغة الصحافة الحديثة. ومما يحضرني من الأمثلة تعبير «لعب دورًا» وهو ترجمة حرفية عن الإنجليزية فنحن لا نلعب الدور بل نمثله أو نقوم به. ونتيجة لهذه الترجمات، وهي أكثر من أن تُحصى، اتسعت الشُّقَّة بين الأسلوب العربي القديم وأسلوب الصحافة، وحتى الأدب، في أيامنا هذه. هذا أمر لا مفر منه، فالذين يكتبون لنا بالعربية يقرأون بلغات أجنبية ويترجمون لنا من

أساليبها ما يترجمون، إما لأنهم لا يعرفون تعبيرًا قديمًا يفي بالغرض، أو لأنهم تقاعسوا عن البحث في المعاجم، أو لأن أساليب اللغة العربية القديمة محدودة ولا بد من إغنائها بأساليب جديدة. ومن الأساليب المستعارة الجميل والقبيح والمقبول، وهذا المقبول هو كالخبز الذي تأكل به إدامك فلا تذوق له طعمًا فكأنما هو من أدوات المائدة كالملعقة والشوكة. ومن التعابير البليدة «كم هو رائع هذا البستان!»، والروايات المترجَمة تغصُّ بهذا التعبير المترجم. وللتعجب في العربية أسلوبان: ما أروَعَ! وأرْوِعْ بـ.. وقد مات الثاني وعاش الأول، ولا أظن أنه بحاجة إلى ضرَّة … اللهم إلا في حالات قليلة؛ كأن تقول: «كم أتعبتني المجاملات!» فهذا أخصر وآنق من قولك: «ما أكثر ما أتعبتني المجاملات!».

المدّاح النوّاح

كان شوقي شاعر القصر، وله أبيات لا يَسُرُّ أنصاره أنها له. كان يقول للخديوي مثلًا:

فاسمعْ لعبدِك وابنِ عبدِك طائعًا

متطايرًا بك في القوافي صيتُه

وهاك مطلع قصيدة يهزأ فيها بأحمد عرابي بطل الثورة وقد عاد من منفاه:

صَغارٌ في الذهابِ وفي الإيابِ

أهذا كلُّ شأنك يا عُرابي؟

ولكن شوقي هو الشاعر الذي جعل الوطن في مرتبة جنات النعيم؛ قال:

وطني لو شُغلتُ بالخُلْدِ عنه

نازعتني إليه في الخلد نفسي

أحرامٌ على بلابِلِه الدَّوْ

حُ حلالٌ للطيرِ مِن كلِّ جنسِ؟

بعد مرور ستين سنة على وفاة شوقي لا نستطيع أن نقدمه للمحاكمة على مواقفه السياسية، وقد كان الشاعر أبو تمام قبله مدَّاحة نوَّاحة، ولكننا لا نحاسبه إلا بقدر إجادته وصدقه.

قصة كلمة

«وِلنغتون» بالإنجليزية الجزمة المطاطية التي يُسار بها في الوحل ويُخاض بها في المستنقعات. والكلمة ذاتها (بالحرف الكبير) عَلَمٌ على ذلك «الدوق الحديدي» كما كان يلقب: دوق ولنغتون رئيس وزراء بريطانيا (١٨٢٨ - ١٨٣٠) وصاحب نابليون في يوم واترلو. الرجل كان يحب الاختراع؛ فاخترع أشياء عديدة؛ منها عجلة لقياس المسافات، وإبريق عجيب للشاي. ولكن اللغة أبت إلا أن تضع اسمه على اختراع آخر له هو ذلك الحذاء المطاطي.

ومن قصة إلى قصة

هذا الجنرال العظيم الذي هزم نابليون إمبراطور فرنسا لم يدرس فنَّ القتال في أي مكان سوى فرنسا، في أكاديمية «أنجر» للفروسية. وعندما «سيق» إلى ١٠ داوننغ ستريت ليصبح رئيسًا للوزراء كان في أوج شعبيته واحتشدت الجماهير لتحيته فأبدى استياءه من ذلك وقال كلمته المشهورة: «إذا سمحت للغوغاء بإبداء التأييد فتحت أمامهم الباب لإبداء المعارضة لاحقًا». وقد اصطحب ولنغتون معه إلى ١٠ داوننغ ستريت (مقر إقامة رؤساء وزراء بريطانيا منذ مائتين وسبعين عامًا) اصطحب معه سريره الحربي الضيق، فسُئل: «كيف يُتاح لك أن تتقلب على مثل هذا السرير؟!» فقال: «عندما يحين الوقت للتقلب يكون الوقت قد حان للنهوض».

موقفٌ للعقاد

في سنة ١٩٣٠ كان عباس محمود العقاد نائبًا في البرلمان المصري عن حزب الوفد، وقد قال في كلمة له تحت قبة البرلمان: «إن البلاد على استعداد لتحطيم أكبر رأس يخون الدستور ولا يصونه». ولمَّا كان أكبر رأس في البلاد آنذاك هو الملك أحمد فؤاد، ولمَّا كان الملك هو الذي عطَّل الدستور، فقد تربصت الحكومة بالعقاد الدوائر، وعندما انتهت فترته النيابية سجنته تسعة أشهر. وعندما خرج من السجن توجَّه إلى ضريح سعد زغلول مؤسِّس الوفد، وألقى قصيدة استخدم فيها مدة التسعة أشهر بصورة لطيفة. قال العقاد:

وكنتُ جنينَ السجنِ تسعةَ أشهر

وها أنذا في ساحة الخلد أُولدُ

عِداتي وصحبي لا اختلاف عليهما

سيَعهَدني كلٌّ كما كان يَعهدُ

يورو – تانل

ـُ

حفروا الآن نفقًا تحت مياه البحر يربط بريطانيا بفرنسا. وقد أصيب المشروع بنكسات عديدة، وكانت أحيانًا تسود البلبلة في أوساط المستثمرين فيه. وعلى الهامش هناك بلبلة لغوية، فقد احتاروا في إيجاد اسم لهذا النفق؛ فالإنجليز والفرنسيون مختلفون أساسًا في تسمية البوغاز الذي يفصل بينهما: الإنجليز يسمونه القنال الإنجليزي، والفرنسيون يسمونه بحر المانش. وقد استقرت الشركة الحافرة على اسم «يورو-تانل»، ولكن الصحافة الإنجليزية أبَت إلا تسميته «التشانل تانل»، ونحت عامة الناس من هاتين الكلمتين كلمة واحدة هي «تشانل» وشاع هذا الاسم أيضًا. وهناك من يسمِّيه «عابر المانش» ولا أظن أن هذا الاسم سيعيش طويلًا في إنجلترا؛ لاحتوائه على كلمة المانش الفرنسية. وللعلم فإن المسافة بين أقرب نقطتين على الساحل البريطاني والفرنسي ٣٤ كم، ولكن النفق سيأخذ خطًّا فيه التواء وطوله ٣٨ كم، ويمتد النفق بنحو ١٢ كم أخرى تحت اليابسة من الجانبين. وعندما يتم المشروع سيكون بالإمكان التنقل بين البلدين في ٣٥ دقيقة فقط.

مرارة التأقلم

زوجها تحسَّنت أحواله، ومشى في يده القرش، ثم تراكمت الديون وأوصدت الأبواب. كم كان التأقلم صعودًا لذيذ المذاق، وما أمرَّ التأقلم هبوطًا! استمرت في ارتداء حرائرها حتى تهرأت بتعاقب الليل والنهار، والآن تحاول أن تعود إلى طينتها وأن تتخلى عن ترقيق كلامها. ولكن أولاد البلد يتغامزون عليها ويرفضونها؛ لأنها خرجت منهم، والناس الذين فوق ما كانوا قبلوها أصلًا.

أقوال مأثورة

• الخياطون والخطاطون يأكلون من أعماق عيونهم. (خطاط تركي)

• في مقابلة تلفزيونية مع محمد عبد الوهاب، قالت ليلى رستم: يوجد مطعم سمك في زحلة لا تسمع فيه سوى أسطوانات لعبد الوهاب، فالناس لا يذهبون للمطعم ليأكلوا السمك … بل ….، وهنا عاجلها عبد الوهاب بالقول: بيروحوا عشان ياكلوا عبد الوهاب.

• اللغة العربية يسر لا عسر، ونحن نملكها كما كان القدماء يملكونها. (طه حسين)

• إن تاريخ العالم ليس إلا سيرةً لعظماء الرجال. (توماس كارلايل).

قل ما تشاء

• العراق والأردن ولبنان تحتمل التذكير والتأنيث: التذكير على هيئة اللفظ، والتأنيث على إضمار كلمة دولة.

• قل: «مسح فمه بكُمِّه»، ولا تقل: «مسح فاه»؛ لأنك عندئذ ستضطر إلى أن تجعلها «فيه» و«فوه» بحسب موقعها من كل جملة.

• الفرس كلمة مؤنثة، وهذا حقٌّ لأنها زوجة الحصان (وأمه وأخته) وهي مؤنث حقيقي، وأما القوس فلم يقل أحد: إنها زوجة السهم؛ فإن شئت أنثتها وإن شئت ذكرتها. وحتى «الفرس» فكثيرًا ما جاءت لتعني الحصان.

• قل: «أوردت الوكالة خبرًا مُفاده» بضم الميم؛ لأنها مثل المُراد منه، أي أنها اسم مفعول. وقل: «مَفاده» بفتح الميم على أنها مصدر ميمي مثل المَنال أي نيل الشيء والحصول عليه. قل ما تشاء.

(6) فبراير/ شباط ١٩٩١.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع

لا تلحقني.. مخطوبة، خيال سائقي الشاحنات، الفيروزآبادي يغوص في الدأماء الغطمطم للوصول إلى المحيط الأعظم (7)

«الأنواع الأدبية» عبارة مُحدَثة، فقُدماؤنا كانوا يختصرون الطريق إذ يقولون: «الأدب شعر ونثر». وقد جعل طه حسين الأدب شعرًا ونثرًا وقرآنًا. والنقاد الآن يفصِّلون هذا التعريف؛ فيفتحون بابًا للمسرحية، وآخر للقصة القصيرة، وثالثًا للرواية، وهناك شعر قصصي وقصة شاعرية. إلا أن كل النقاد، في كل العصور وفي كل بقاع الدنيا، أغفلوا نوعًا أدبيًّا سأعرض له في السطور القادمة. ولمَّا كنتُ صاحب اكتشاف، فقد سمحت لنفسي بالإطالة.

لا تلحقني ... مخطوبة

قضيت في دمشق بضعة أشهر بوهيمية جاورت فيها خطاطًا ذا مزاج. كتب يومًا لافتة لمتجر أحذية أتقنها غاية الإتقان، وأسندها إلى ما يشبه السلم في مشغله وأخذ يتأملها، ثم جاء صاحبها ليدفع ويتسلَّم، ولكن خطاطنا دفع له ثمن اللوح المعدني وأبى أن يسلِّمه اللافتة شغفًا بها. وليست تلك سوى إحدى بَدَوات صاحبنا، ولو أردتُ أن أسترسل لرويت قصته مع سائقي الشاحنات.

حسنًا، لم لا أسترسل؟

كان صاحبنا يحب التعامل مع سائقي الشاحنات؛ ربما لأنهم أصحاب أمزجة ألعن من مزاجه، وربما لأن الله أعطاهم من الطيبة بقدر ما أعطاهم من حدَّة الطبع وقلة الثقافة. كان يكتب لهم على الدعامة الأمامية أو الخلفية آية أو حكمة أو: «لا تسرع يا بابا نحن بانتظارك»، ولا بد أن أذكر أنه صار يرفض في آخر أيام معرفتي به أن يكتب هذه العبارة الأخيرة، وإن ظل يكتب: «لا تسرع! الموت أسرع»، و«راجعة بإذن الله»، و«كايداهم»، و«يا عوازل فَلفِلوا». وأذكر أنه عاد يومًا إلى غرفته منشرحًا، وسارع -على غير عادة- بقرع باب غرفتي، فعلمت أن معه حكاية شائقة. وتبيَّن لي أن أحد السائقين طلب منه أن يكتب على غطاء المحرك كلمة واحدة هي «يصطفلوا»، أي فليخلصوا أمورهم دون تدخل من أحد و«ليفتصلوا». وهاكم مثالًا على استعمال الكلمة: إذا قلت لأحدهم: إن إخوته يريدون إنفاق حصتهم من الميراث في شراء يخت فاخر»، فإنه قد يقول لك: «يصطفلوا»؛ كأنه ينفض يديه من تصرفاتهم. لقد فرح

صاحبي بكلمة «يصطفلوا» ورأى فيها أدبًا وحكمة، مع أن ذلك السائق لم يخترعها، إن مجرد تفكيره في كتابتها على شاحنته مبادرة أدبية. الأديب لا يخترع الكلمات ولا العبارات ولكنه يضعها في سياق أدبي. وذلك السائق وضع تلك الكلمة (التي أتعبني شرحها) في سياق أدبي عندما طلب من الخطاط كتابتها على شاحنته.

يصطفلوا ... يصطفلوا ظل صاحبي يرددها حتى كدت أبارح الغرفة فرارًا من ابتهاجه المزعج. وعندما قلت له يومًا: «لم لا تخترع عبارات جميلة كهذه؟» رمى بوَفيعَة كان يمسح بها يديه أرضًا، وصرخ في وجهي: «هذا منطق التجار». هذا تفكير لا يصنع أدبًا. خذ مثالًا من الأمثلة لعله يردعك عن أشباه هذه الفكرة الرخيصة: جاءني يومًا سائق، ذو كرش عظيم، ولكن عضلاته مفتولة ووجهه ينضح بالجفاء والقوة. قال لي على استحياء: إنه يريدني أن أكتب كلمتين على مؤخرة شاحنته. الكلمتان هما «قاهرة الأسفلت».

لم أتذوق العبارة بكل أبعادها إلا بالتدريج. الشاحنة عادية لا هي بالجديدة ولا السريعة ولا الضخمة، ولكنها كل ما يملك هذا السائق. وشيئًا فشيئًا أخذتُ أشعر بأنه يعتز بها جدًّا ويحبها. وعندما انتهيتُ من كتابة العبارة، رفضتُ أن أتقاضى أجرًا؛ لأنني أدركتُ أن ما كتبته كان قصيدة بديعة لم يكن لي الشرف في نظمها ... فكافأت الشاعر بكتابتها بخط جميل. العبارة الشاعرية تأتي عفوًا وفي سياق خاص بها.

إلى هنا انتهت المحاضرة التي ألقاها عليَّ صديقي الخطاط. لقد مضى في رحلته مع السائقين طويلًا: كتب عشرات العبارات المألوفة: «لا تلحقني مخطوبة!»، «توكلت على الله»، «إنت عمري»، «أمل حياتي»، وكل أسماء أغاني أم كلثوم، ولكنه كان يعود منتشيًا كلما كتب عبارة فيها بريق أدبي. وأحب أن أوضح ذلك للقارئ بمثال أخير: إن عبارة «القوة لله» عبارة مألوفة لا يدَّعي أحد أنه يحمل براءة اختراعها في جيبه. ولكن صاحبنا رجع إلى الغرفة يومًا وهو يرددها ويرقص طربًا. لقد جاءه سائق شاحنة وطلب منه أن يكتب العبارة. جهز خطاطنا ريشته وعلبة الدهان وقطَّارة البنزين وراح يتفحص الدعامة الأمامية ثم الخلفية. ولكن السائق قال له: لا، أريدك أن تكتب «القوة لله» على الكتلة السوداء المكورة التي تتوسط محور الدوران الخلفي، ففيها تتجمع كل قوة المحرك وتتوزع على العجلتين الخلفيتين. اكتب عليها «القوة لله». أترك الآن للقارئ أن يتصور الفرحة التي انتابت صاحبي الخطاط عندما رأى خيال هذا السائق الفظِّ يكسو عبارة عادية بثوب من الأدب الرفيع. كتبها مستلقيًا على ظهره ... تحت الشاحنة، ولعل هذا ما زاد في سروره.

أقصر قصيدة

الشعر دنيا لا تقيم للكمِّ وزنًا، ولا تقيم للقافية وزنًا، ولا للوزن وزنًا. وهناك ناس يرون في كل موقف نبيل أو غريب أو خارق للمألوف قصيدة. وأنا منهم؛ أرى كلمة «كلَّا»، يقولها موظف عرضت عليه رشوة، قصيدة. فلنترك المثاليات جانبًا، ولنعترف بأن الذين يرفضون الرشوة نادرون. طبعًا هناك من يرفضها لأنه استقل المبلغ أو شعر بخطر. قد ترى في عبارة «القوة لله» قصيدة رائعة، ولكن إذا سألتني عن أقصر قصيدة مطبوعة فهي للشاعر الفلسطيني سميح القاسم؛ قصيدة من أربع كلمات طبعها الشاعر في ديوانه لا أستأذن أحدًا على صفحة كاملة ووزعها على سطرين، وأقسم لو أنه استطاع أن يفرقها على عشرين سطرًا، لما توانى. وسوف أورد نص القصيدة «كاملًا»، غير أنه لا بد من الإشارة إلى أن فيها لمحة جميلة، قد اصطاد الشاعر معنى بديعًا وصاغه بإيجاز باهر. القصيدة هي:

ستضيق نافذتي

ويتسع الجدار

صاحب القاموس

اللغويون القدماء كانت لهم اصطلاحاتهم؛ فالنحو هو العلم بتركيب الكلام وإعرابه، والصرف هو صياغة الكلمة الواحدة واشتقاقها ومعرفة وزنها وما زيد فيها من أحرف. واصطلاح «اللغة» معناه المفردات ومعانيها المختلفة. وقد سُمِّيت القواميس الأولى «كتب اللغة» وسمَّاها بعضهم معاجم، وقال بعضهم: بل الأصحُّ مُعجمات. وعندما وضع الفيروزآبادي مُعجمه سمَّاه القاموس المحيط، (والعنوان على بعض النسخ القاموس المحيط والقابوس الوسيط الجامع لما ذهب من لغة العرب شماطيط)، وقال في مقدمته: إنه أضاف زيادات على من سبقه «غاص من أجلها الدأماء الغَطَمْطَم». والقاموس هو البحر العظيم، ومثله الغطمطم، ومثلهما الدأماء.

اشتُهر كتاب الفيروزآبادي وصار الناس يسمون كل معجم قاموسًا. وقد مات صاحب القاموس قبل ٥٧٥ عامًا في اليمن وقد تخطى التسعين. وكان مولده في فارس، وقد عاش ببغداد والقدس، ورحل إلى بلاد الروم فإلى مصر ثم إلى الهند، وعاش بمكة قبل أن يصبح قاضي قضاة اليمن.

ولكلمة قاموس جرس جميل؛ فهي تبدأ بحرف فخيم هو القاف، وتنتهي بصفير موسيقى على حرف السين، وبينهما حرف مدٍّ يتيح لك أن تطيل أمد النطق بالكلمة إن شئت. ولها معنى جميل وقصة اشتقاقية شائقة. وأما كلمة «المعجم» فهي تذكِّرني برأس كبير لرجل في الخمسين من عمره، رأس

مُدوَّر فيه أذنان صغيرتان قبيحتان وأنف كبير ذي منخرين واسعين تخرج منهما شعرات.

الشعر العمودي

قد يظن المرء أن الشعر العمودي سُمِّي كذلك بسبب شكل الصفحة التي فيها قصيدة من الشعر القديم، ولو كان ذلك كذلك فالأولى أن يسمى شعر العمودين؛ لأن الشعر القديم كان يُكتَب -وصار يُطبع- على هيئة عمودين طويلين من رأس الصفحة إلى قدمها. ولكن، ما لهذا سُمِّي الشعر العمودي عموديًّا. لقد شبَّه النقاد القدماء بيت الشعر ببيت الشَّعر أي بالخيمة، واشتقوا من أجزاء الخيمة أسماء لأجزاء بيت الشعر؛ فهناك الأسباب والأوتاد (والأسباب هي الحبال التي تُشَدُّ بها الخيمة إلى الأوتاد). وأهم جزء في الخيمة العمودُ الذي يقوم في وسطها، ولعل من الطريف أن نلاحظ أن الفعل (اعتمد) مشتق من هذا العمود. قال الشاعر:

والبيت لا يُبتنَى إلا له عَمَدٌ

ولا عِمادَ إذا لم تُرسَ أوتادُ

وقد شاء النقاد القدامى أن يطلقوا مصطلح «عمود الشعر» على السِّمات التي تميِّز شعر الجاهليين والإسلاميين الأوائل ومنها: ابتداء القصيدة بالوقوف على الأطلال والتدرج التقليدي في الموضوعات من غزل إلى وصف ناقة، ومنها قعود القافية مرتاحة في آخر البيت، ورد الأعجاز على الصدور بحيث يكون عجز البيت كالصدى لصدره، فيما يشبه أسلوب «السؤال والجواب» في الموسيقى.

وفي عصرنا هذا أصبح الشعر العمودي كلَّ شعر التزم بالطريقة العروضية التقليدية، بغض النظر عن المعاني والأغراض. وصار يُرَاد بهذا المصطلح مجرد التفريق بين كل أنواع الشعر الحديث، وبين الشعر الذي يصطف في طابورين.

العرب.. لا بسمارك

قبل مائة وثلاثين سنة لم يكن الألمان قد أتموا توحيد بلدهم، وكان مؤرخو تلك الحقبة يطلقون على خريطة ألمانيا اسم «رقعة الفسيفساء»؛ فهي دويلات منتثرة لكل واحدة لون على الخريطة، وألوان في مضمار السياسة. وفي ذلك العهد كان بسمارك قد هَزم الدنمارك وتحول جنوبًا باتجاه الإمبراطورية النمساوية ولم يكن قد أذل فرنسا بعد. باختصار: كان قد بقي على إعلان توحيد ألمانيا بقيادة فلهلم الأول إمبراطورًا بضع سنوات. ولكن تيودور نولدكِه

المستشرق الألماني لم يكن يعلم بما يخبئه التاريخ من مفاجآت عندما ألّف في سنة ١٨٦٤ كتابه مساهمات في فهم شعر العرب القدماء. وقد تميزت أبحاث نولدكه المتفرقة التي جمع شتاتها في ذلك الكتاب بالروح العلمية النقدية، ولكن عاطفته الألمانية غلبته في آخر فقرة من الفصل الأول. ففي هذه الفقرة يورد بيتًا لسعد بن ناشب هو:

سأغسل عني العارَ بالسيف جالبًا

عليَّ قضاءُ الله ما كان جالبا

ويقول معلقًا: بهذه الكلمات يمضي العربي الحر إلى ساحة القتال ولقاء الموت، هذه الروح الرجولية التي تتجلى في قصائد الأعراب القدماء ساكني الصحراء يمكن أيضًا أن تكون قدوة لنا. والآن يبرز أمام الشعب الألماني السؤال عما إذا كان قد عقد العزم على أن يغسل بدمه العار القديم؟ انتهى كلام نولدكه بترجمة عبد الرحمن بدوي. إذا ظن هذا المستشرق أنه يَحسُنُ ببني قومه الألمان أن يستلهموا الروح العربية لكي يوحدوا صفوفهم، فلا غرو أننا -عرب هذا الزمن- أحرى بأن نستلهم روح الرجولة عند أجدادنا. إننا مساكين يُرثى لنا.

أقوال غير مأثورة

• من أعجب الأمور أنني رأيت الخرسان أكثر خلق الله ثرثرة.

• الذي لا يهرع إلى الله إلا إذا مسَّه الضُرُّ هو كمن لا يؤمن بالطب إلا عندما تنفجر زائدته الدودية.

• كانت فتوحات المستعمر القديم نزهات صيد؛ كان يصيد بالبنادق ناسًا يحملون العصي. المستعمر الجديد صار يبيعهم الدولار بدولارين، ويمن عليهم بذلك.

• لا أرى أحدًا يترك الدِّينَ الذي وُلِدَ عليه إلى غيره ... إلا لمصلحة.

• مغفورة هي كل الأخطاء المطبعية ... إلَّا التي أجدها في الكلمات المتقاطعة وفي مقالي.

• لا داعي للمجاملة: المغفل لن ينتبه، والذكي لن يكترث.

• اليقين للأنبياء، أما نحن فيكفينا أن نضع الاحتمالات ونتحسب.

• نسيت كل ما درست في المدرسة عن التاريخ الأوروبي إلا درسين: الوحدة الإيطالية والوحدة الألمانية.

- من متع الحياة شراء ما لا يلزم.

(7) مارس/ آذار ١٩٩١.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن
الجار الحكيم، الخنساء الجديدة،
هل ثمة مترادفات؟ الويل للمنتصر (8)

أُسْطُ على دراهمي، استَدِن وتناسَ السداد؛ أُسْطُ على علبة سجائري ... دخِّن حتى تنجلي أو تموت؛ زرني في منزلي وانزل ضيفًا ثقيلًا أو خفيفًا حتى ينتهي موسم التنزيلات، وحتى تشتري نصف لندن وتنقلها إلى بلدك الذي يلبس الناس فيه الخيش؛ اعزمني على مطعم فاخر على حسابي، استَعِر كتبي وأشرطتي استعارة دائمة. ولكن، لا تنتحلْ عباراتي. وإذا ذكرتَ أيًّا منها في مجلس فانسبها إليَّ. لا تسرق أفكاري. قد تكون فكرتي بسيطة، عميقة، سطحية، فارغة، باهرة، أصيلة، زائفة، ولكنها لي ... وقد تعبتُ في التوصل إليها. الناشرون الشرفاء يرتعدون خوفًا وغضبًا من الناشرين القراصنة. والكتَّاب الشرفاء يشمئزون ويغضبون من المؤلفين اللصوص؛ لأنهم يعجزون أو يعِفُّون عن استرداد المسروقات منهم.

الجار الحكيم

قال لي جار كهل -والكهل هو الذي في الخمسين من عمره أو نحو ذلك، وليس الشيخ الفاني كما يظن كثيرون- قال لي: «مرَّ بي وأنا تلميذ قولٌ لأحد الأعراب أُعجبت به وظننتُ أني فهمته. سُئِلَ ذلك الأعرابي: «أيُّ أبنائك أحب إليك؟ فقال: الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يبرأ، والغائب حتى يؤوب». ظننت أنني فهمت العبارة في لحظة، والآن أعلم يقينًا أنني لم أفهمها إلا بعد انقضاء ثلاثين سنة، ومن حسن حظي أنني حفظت العبارة فعندما أنجبت أطفالًا -والكلام لجاري- صرت أميز الصغير عن إخوته بقيراط عطف ودلال لأنه صغير، وإذا مرض أحدهم زاد حبي له، كأنما لأعوضه عما يقاسي، وإذا سافر أحدهم زاد حبي له اشتياقًا واستيحاشًا. وكنت أتذكر عبارة ذلك الأعرابي كثيرًا وفي كل مرة أزداد فهمًا لها. إنها على اختصارها مملوءةٌ حكمة وجمالًا». (انتهى كلام جاري).

الخنساء الجديدة

سعاد الصبَّاح شاعرة كويتية. إنها غير عادية. وكل شاعر يجب أن يكون غير عادي حتى يكون شاعرًا. عندما برزت أكلها النقاد. قالوا كثيرًا. أرجو أن تزيد هذه الضجة سعادَ بروزًا وشهرة حتى يقرأها ناس أكثر كما حدث مع نزار قباني. قرأتُ لها قصيدة عندما احتُلَّ بلدها، قصيدة عامرة بالإيقاع، حارة

القوافي متينة من كل الأوجه. ولكنها من الشعر السياسي المباشر. قد نحب أن نترك هذا الشعر بضع سنوات قبل الحكم عليه. أريد أن أقتبس من شعرها شيئًا آخر. أريد أن أعرض شيئًا من «شعر» لها لا يحليه وزن ولا قافية.

قالت سعاد الصبَّاح:

عندما أودعك في المطار

ويغيب وجهك في المطار

تنتشر رائحة حنين إليك

ويشم الناس في قاعة المسافرين

رائحة غريبة …

رائحة امرأة تحترق

هذه الشاعرة تجبرني دائمًا على أن أعتبرها النسخة الأنثوية لنزار قباني ولكنها تسبقه في اثنتين، أولًا: الجرأة؛ فالرجل لا تثريب عليه إن تغزل، والمرأة لها الويلات إن فعلت. وقد حبست المرأةُ العربية عاطفتَها وعشقها ألفي سنة. وثانيًا: الابتعاد عن استغلال الألفاظ استغلالًا متعبًا وتوظيف عدة معان وأنصاف معان للكلمة الواحدة معًا. فعندما تقرأ نزارًا تحس أحيانًا أنك تسير في حقل مزروع بالتوريات والإيماءات. سعاد بسيطة جدًّا وكأني بها تعيد قراءة القصيدة عشر مرات قبل نشرها، وفي كل مرة تستأصل منها كلمة صعبة، وتضع في مكانها كلمة سهلة. خذ هذه القصيدة (وهي من سطرين):

يعرفني الناس بك

فأنت عطري الخصوصي

سأقدم شرحي الخاص للقصيدة غير عابئ بما قالوه من أن الشعر إذا شُرح فُضح. البيت الأول يوحي بأن هذه المرأة تابعة تبعية لرجلها فلا تُعرف إلا من خلاله. والبيت الثاني يقلب المعادلة؛ إنها تستخدم نفوذ ذلك الرجل ومكانته وماله وحتى اسمه استخدامًا. إنها توظف ذلك وتقدِّم نفسها في المحافل عن هذا الطريق، ولكن دون أن تتنازل عن أي شيء بوصفها سيدة مجتمع. والتشبيه جديد وجميل. هذان البيتان لا يصدران إلا عن أنثى، وعن سيدة مجتمع وُلِدَت في أحضان العز، وكذا هو حال سعاد الصبَّاح.

قصيدة أخرى:

قل لي: أحبك

قل لي: أحبك

أعرف أنك تكره التكرار

وأعرف رأيك في الكلام الصامت

وفي الصمت الذي يتكلم

ولكنني كامرأة

أحب من يحك لي جلد أنوثتي

وكم تغيظني سعاد بروح الاستسلام الأنثوي التي تضمخ بعض قصائدها مثل القصيدة التالية التي قد لا ترضي المتزمتين:

رجل أنت مكتظ بالنساء حتى التخمة

وحين تأتيني مساءً

مثخنًا بالكحل والعطر والأظافر

أمسح جراحك بماء الورد

وأتوسل إليك أن تخلع خوذتك وتجعلني

معركتك الأخيرة.

ما رأيكم بهذه الجرأة؟ ما هذه المازوخية التي قد لا نتوقعها من امرأة معاصرة وأميرة وشاعرة؟ ذلك لأن سعاد الصبَّاح صادقة. إنها تستوفي الشرط الأول للشاعر استيفاءً تامًّا. وقد أتراجع بسهولة عن كلمة مازوخية. أنا لا أفهم المرأة بما يكفي.

موقفٌ للعقاد

عندما نُودي بأحمد شوقي أميرًا للشعراء أُقيم في المناسبة حفل بحديقة الأزبكية -عندما كانت حديقة- وكان الحفل برعاية سعد زغلول زعيم حزب الوفد، وأقوى رئيس وزراء عرفته مصر الملكية. ولكن عباس العقاد -الوفدي القريب من سعد- لم يكن يَعُدُّ شوقي إلا مقلِّدًا، فنشر مقالًا يفيض سخطًا وتهكمًا في البلاغ، صحيفة الوفد، في اليوم التالي. غضب سعد زغلول، واستدعى العقاد؛ لأنه تجرأ على تسخيف الشاعر والحفل غير عابئ بأن زعيم الحزب يرعى هذا الحفل. فقال العقاد لزعيم الأمة: «ما أنت والشعر يا باشا!» فصمت سعد، ومضى العقاد يكتب في البلاغ. عنوان هذه الفقرة «موقف للعقاد». لا، بل هو موقف لسعد زغلول، هكذا يكون السيد.

هل ثمة مترادفات؟

المشي (درجات): فإذا أسرع المرء قليلًا قيل: إنه يسعى ثم يُفيض، والسعي والإفاضة من شعائر الحج، ثم يهرول ثم يعدو ثم يشدُّ، والشدُّ هو أسرع العدو.

والمشي (أنواع): فالصبي يدرج، والرضيع يحبو، والشاب يخطِر، والشيخ يدلِف، والذي يسير على قدم واحدة يحجُل، والمقيَّد في الأغلال يرسُف. وثمة الاختيال والتبختر والتبهنس والتمطي. وإذا مشيت إلى الخلف فهذا تقهقر. ومشية المسرع الخائف المتلفِّت حواليه تسمَّى الإهطاع، وهي في التنزيل. والذي يجرُّ فضل ثوبه من ورائه ويرفس ما مسَّ الأرض من قُدَّام نقول عنه: إنه يرفُل؛ ومن هنا يقولون: فلان يرفُل في العزِّ والنعيم. ونغضُّ الطرف عن الخندقة والنعثلة والضكضكة والانكدار والانصلات والإحصاف والهوزلة.

كل ما ذكرتُ من كلمات لا يدخل في باب المترادف؛ فكل كلمة لها معنى مختلف، ولعلنا لا نجد كلمتين متشابهتين جدًّا سوى: مشى وسار؛ أقول: «متشابهتين» لا مترادفتين؛ لأن القواميس تنصُّ على أن المشي هو مطلق نقل القدم من مكان إلى مكان بإرادة، وأما السير فهو المشي ليلًا، والأشهر السُّرى، أو هو قطع مسافة على القدمين بنشاط.

رحم الله النحوي القديم الذي سُئل عن المترادفات الكثيرة للسيف فقال ما معناه: هناك اسم واحد للسيف هو (سيف)، والبقية صفات.

الويل للمنتصر

نُقل على لسان كليمنصو الفرنسي أنه قال في مؤتمر فرساي بعد الحرب الأولى: «الويل للمنهزم». وأتخيل أن واحدًا من خلفائه على الأقل قال -وهو يرى صعود نجم النازية في ألمانيا-: «الويل للمنتصر».

مشكلة الحرب في القرن العشرين هي أن غبارها ينقشع عن طرفين مهزومين. ولكنه قد يمضي زمن طويل قبل أن يقلع البشر عن الحروب؛ لأنهم تعودوا عليها.

بعد انتهاء الحرب الثانية قال سياسي أمريكي: «سنحوِّل ألمانيا إلى حقل للبطاطا»، ولكن زملاءه الدُّهاة تجنبوا الشَّرَك الذي وقع فيه كليمنصو، وأغدقوا الأموال على عدوهم السابق حتى أصبح عملاقًا اقتصاديًّا. وقد رأى رئيس إحدى الدول الصغيرة في إفريقيا هذه المفارقة فجمع وزراءه وقال لهم: «سوف نشنُّ حربًا على أمريكا، وعندما ننهزم ستغرقنا بالأموال». فحكَّ أحد الوزراء صدغه هنيهة ثم قال: «ولكن يا سيادة الرئيس، ماذا لو انتصرنا؟»

ابتهال

أقولها على امتداد النَّفَس ... يارب! أقولها وقد أحدقت بي قطعة من الليل وضغطني الهم، يا رب سُدَّت الأبواب إلا بابك الواسع المـغلق في وجهي، وانقطع الرجاء إلا من تلقائك، خذ بيدي فقد سقطت في الوحل، يا رب أصحابي الذين يملكون أن ينفعوا وأن يضروا انقلبوا دبلوماسيين يحسنون تزجية العبارات اللطيفة، يا إلهي لا أعرف كيف تواتيهم البراعة في صوغ عباراتهم الملساء التي ليس تحتها شيء، يا ربي خذ بيدي من الوحلة، قد أتعبني السقوط.

أقوال مأثورة

• لا أحب أن يكون في العالم شخص أحسن مني إلا أنت. (أبي)

• تلقيت رسالة من مستمع ضرير جعلتني أوقن أن الإذاعة فن لا يموت. (الزميلة سهام الكرمي)

• الحب الزوجي مثل طعام المستشفيات. (زميل)

(8) إبريل/ نيسان ١٩٩١.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع
يا طوال العمر،
كسل المترجمين، المتآخيات، تيودور نولدكه (9)

قبل موته بقليل أخذ فرانتس شوبرت الموسيقار النمساوي يبحث عن معلِّم لكي يتقوَّى في موضوع «الكونترابونكت»، التداخل اللحني. ولكنه مات وعمره ٣١ عامًا بمرض التيفوئيد، وربما بالزهري الذي كان مصابًا به. وهذا يذكِّرنا بسيد درويش الذي داهمته المنيَّة شابًّا وهو يحاول أن يسافر إلى إيطاليا ليستزيد موسيقيًّا، وكان عمره حين مات ٣١ سنة أيضًا. لا ندري ما علاقة كل ذلك بالأدب أو باللغة. ولكننا نزعم -على سبيل الاعتذار- أن قصص العظماء وسيرهم أدخَلُ في باب الأدب منها في أي باب آخر. شوبرت هو صاحب السيمفونية الناقصة، وكان قد أهداها مكتوبة بالنوتة إلى الجمعية الموسيقية في مدينة كراتس النمساوية فأُهملت أربعين عامًا، وعندما اكتشف وجودها تبيَّن أنها ناقصة، ومع ذلك طارت شهرتها في الآفاق.

الأعين الزرق

لم يعرف العرب الأعين الزرق حقًّا إلا بعد الإسلام عندما انتشروا في الآفاق. كانوا يرون هذه الصفة من المقابِح. وقيل: إن زرقاء اليمامة التي عاشت في الجاهلية كانت زرقاء العينين فعلًا، ورغم فضل هذه المرأة على قومها، هذا الفضل الذي جلبته بحدَّة نظرها، فإن الأعين الزرق بقيت صفة مستكرهة حتى في عهد المعرِّي بعد الإسلام بـ ٤٠٠ سنة؛ إذ يقول أبو العلاء: «ما في الأرض امرأة كحلاء تودُّ أن عينها من الزرق». وما زال هناك ناس يتشاءمون من العين الزرقاء حتى يوم الناس هذا، وقديمًا قال الشاعر:

لقد زَرِقتْ عيناك يا ابنَ مكعبر

كما كلُّ ضَبِّيٍّ من اللؤم أزرقُ

هذا شيء كان. واليوم صارت زرقة العينين مستحبة؛ ربما لأن زرق العيون استعمرونا وأدخلوا في رُوعنا أن سَحْناءهم هي المثل الأعلى للجمال. الحقيقة أن العيون السود سوادًا حقيقيًّا حالكًا نادرة ندرة العيون الزرق زرقة شديدة صريحة. وتلك الأولى عزيزة المنال خارج شِبْهي الجزيرة (العربية والهندية) والثانية لا توجد إلا في أوروبا. ولمن ولد في بلاد الشام -مثلًا- حيث ملتقى الأجناس ومختلَط الأعراق ليس هناك إلا أنصاف الحلول.

صديقة صديقي

صديقة صديقي تحاول أن تفهم العرب. جربتْهم وعايشتهم وزارت بلادهم. وحسبت أنها بدأت تفهمهم وخلصت إلى نتائج لا تخلو من تعميم: العربي يعشق السيطرة ويحب أن يقضي حاجاته وحده، ويأنف من التعاون. ومرَّ بصديقة صديقي وقتٌ كانت تتحدث فيه عن العرب حديث الخبيرة، فكأنها أصبحت لا تخفى عليها من شأنهم خافية. إلى أن كانت تلك الجلسة التي التأمت في مطعم لندني حيث أخذ رجلان يتناقشان في نسبة بيت من الشعر. هذا يقول: «البيت لحسَّان»، وذلك يقول: «البيت للحُطيئة». وكالمعتاد تدرج النقاش من احتداد إلى تبادل للتجهيل إلى صراخ إلى ... مغادرة أحد الخصمين المطعم. حدث ما حدث والآنسة الشقراء تظن أن الخلاف يدور على قضية سياسية خطيرة. وعندما استفسرت عرفت أن المسألة تدور على أُبوَّة بيت شعر عمره ألف وأربعمئة سنة. دهشت، ذهلت، صعقت، ثم أخذت تدرس نفسية العرب على أساس جديد هو السلفية والتمسك بالماضي. ازدادت بهم إعجابًا؛ لأنهم يعيشون الماضي وكأنه حاضر، فيضيفون إلى أفقهم بعدًا زمانيًّا فسيحًا، ولأنهم قوم تختلط الحقائق عندهم بالأساطير فلا يُعييهم إيجاد تفسير لأيِّ ظاهرة.

حماريات

• جمع كلمة حمار ليس مسألة بسيطة: هناك حَمير وحُمُر وأحمِرة وحُمُور وحُمُرات. وجمع كلمة حمارة: حمائر. ولكن العرب درجت على تسمية أنثى الحمار أتانًا، والجمع أُتُن.

• العَير (بفتح العين) هو الحمار، والعِير (بكسرها) قافلة الحمير، وصارت تُطلق على كل قافلة حتى غلب في الاستعمال أن العِير قافلة الجمال.

• الحمار البلدي حمَّال الأثقال يُسمى الحمار الأهلي في الكتب القديمة وكنيته أبو صابر، والحمار المخطط هو الحمار الوحشي، وكانت العرب تأكل لحمه وتستطيبه.

• قال الشاعر:

لا يصبر الحرُّ تحت ضَيْمٍ

وإنما يصبر الحمارُ

• قصَّ أحمد شوقي قصة حمار وجمل هربا من عبودية الإنسان وانطلقا إلى الفيافي، ولكن الحمار رجع عن رأيه وقال لرفيقه:

لا بدَّ لي من عودةٍ للبلدِ

لأنني تركت فيه مقودي

وتكلم الجمل:

فقالَ: سِرْ والزمْ أخاك الوتَدا

فإنما خُلقتَ كي تُقيَّدا

• وقصَّ شوقي قصة الأسد عندما استوزر حمارًا، فأتى الوزيرُ الحمارُ بالأعاجيب في قراراته الحمارية، فتضعضعت هيبة المملكة، فسأل الأسد القرد عن السبب، فقال القرد:

رأيُ الرعيَّةِ فيكمْ

مِن رأيكم في الحمارِ

يا طوال العمر

منذ أن قرأت عن فولتير في كتاب وِل ديورانت الذي أسماه مترجموه العرب قصة الحضارة وأنا أقاوم شغفًا استولى عليَّ في متابعة سير أولئك الرجال الذين يولدون بأجسام هشَّة ويصابون بالعلل في صغرهم ثم يعمَّرون ويخنقون السبعين أو الثمانين أو التسعين. كان فولتير ضئيلًا نحيلًا مهزولًا، وبدأ يُنذر نفسه بالموت منذ أن تخطَّى العشرين، ولكنه عاش أربعًا وثمانين سنة. وكذا المعرِّي؛ ولد ضئيلًا وعميَ من الجدري في الثالثة أو الرابعة، وجعل التشاؤم عنوانه بعد رحلة فاشلة إلى بغداد قام بها وهو في الثالثة والثلاثين. وعاش ثلاثًا وخمسين سنة أخرى وهو لا يفكر إلا في الموت الذي لم يداهمه إلا في السادسة والثمانين. وأما الكاتب الإنجليزي سومرست موم فقد عاش ٩١ سنة. بدأها بداية سيئة؛ إذ ماتت أمه وهو صبي، وعاش في فرنسا حتى بلغ العاشرة، ومات أبوه. فلما نقله عمه إلى مدرسة في إنجلترا اضطر إلى استخدام إنجليزيته الضعيفة فصارت في لسانه حُبسة صاحَبته حتى مات. واصطلحت عليه العلل في شبابه فأُصيب بالسل، الذي لم يكن ينجو منه أحد في ذلك الزمان إلا بصعوبة. وأحب الحياة حبًّا جمًّا، وجمع مالًا، بل الأصح أن أقول: اجتمع عنده مال كثير. ومن طرائف الأمور أنه فتح حسابًا في مصرف أمريكي ونسيه، فلما مات اكتشفوا أن له هناك ٣٥ ألف دولار. لقد مات موم عام ١٩٦٥، مات وهو يشعر بالراحة عند الحديث بالفرنسية أكثر مما يتحدَّث بالإنجليزية. وظل يرسل مخطوطاته الإنجليزية إلى من يدققها لغويًّا قبل أن يدفعها إلى المطبعة حتى آخر عمره. ومثل هؤلاء الثلاثة: فولتير والمعرِّي وموم، كان الشاعر العراقي الزهاوي، ولكننا سنرجئ الحديث عنه لأن

اضطراب لغة «موم» المزمن ذكّرنا برجل خامس، كان له مع اللغات شأن مختلف.

تيودور نولدكِه

تيودور نولدكه شيخ المستشرقين الألمان عاش ٩٥ سنة حتى عام ١٩٣١. عاش عمره المديد عليلًا تحالفت عليه الأمراض. وقد شهد ألمانيا المفتَّتة في صباه ورآها تتوحَّد في شبابه، وتصبح أقوى دولة في العالم في كهولته. وشهد هزيمتها على يد ثلاثة أرباع العالم في أول شيخوخته، وعاش بعد ذلك حتى لحق بداية صعود نجم هتلر والنازية. وفي هذا الخضم التاريخي المذهل كان نولدكه مكبًّا على دراسة اللغات الشرقية. لقد بدأ حياته بإتقان اليونانية واللاتينية؛ فجمع ثقافة الغرب القديمة، وأتقن العبرية إتقانًا جعله يدرِّس التوراة في الجامعات، وأتقن العربية ووضع كتابًا في نحوها وصرفها، ونال دكتوراه في موضوع «تاريخ القرآن»، وكان عمره عندئذ ٢٥ عامًا. ما شاء الله كان. ودرس السريانية والفارسية والتركية والسنسكريتية. لقد أتقن هذا المستشرقُ عشر لغات على الأقل، وأنجب عشرة أبناء خلَّف منهم أربعة عندما مات. يعجبني في المستشرقين شيئان: التفاني والارتحال المتواصل وراء المخطوطات القديمة، هذا شيء، ثم أنهم يقدمون لنا فهمًا مستقلًّا لتراثنا. وليس في مقدورنا أن ننظر إلى تراثنا الأدبي والديني والعلمي نظرة محايدة؛ لشدة ارتباطنا بهذا التراث وشدة اعتزازنا به ودفاعنا عنه بالحق أو بالباطل.

قصة قصيرة

دخل غرفة أولاده وهم نائمون. غطَّاهم وتأملهم، لم يكن قد تحدث معهم منذ ثلاثة أيام، فهو يغدو قبل أن يستيقظوا ويروح في المساء، بعد أن يناموا. أوى إلى فراشه وصدره يجيش بمشاعر الأبوة. ولو أن أحدهم استيقظ وأبوه يغطيه لفضَّل أن يدَّعي النوم حتى لا يرى ولا يحادث هذا الأب البغيض الذي يختار القناة التي تعجبه، ويشاهد نشرات الأخبار في كل المحطات رغم أنها متشابهة، وإذا ترك التلفزيون قليلًا لأولاده فإنه ينغص عليهم بالحديث مع أمهم عن العمل وعن عبقريته وعن السياسة. وإذا أخذ أحدًا منهم إلى السوق فإنه يحمِّله فوق طاقته من المشتريات ومن الإهانات، التي تأتي نادرًا على شكل شتائم، ولكنها كثيرًا ما تكون انفجارات غضب لا مبرر له، وعصبية لا هدف لها إلا التحقير وتحميل اللوم.

إنه يسرق أمهم منهم، إنه يحولها إلى نصف إنسان؛ فعندما يكون في البيت -في أيام العطلة- تفقد سُلطتها وأمومتها وتفقد اهتمامها بهم. عندما كبروا

واشتغلوا واستقلوا عاقبوه عقابا شديدًا. صار كلما تحدث عن سكريِّه أو قرحته بكَّتوه وسكَّتوه وأنَّبوه على كلامه الفارغ وقالوا له بحنان: «أنت مثل الحصان». لم يحرموه، بل أغدقوا عليه وكفوه حاجته كما كفاهم، ولكنهم كالوا له الصاع صاعين.

كسل المترجمين

يسمِّي الإنجليز الأسير «سجين الحرب» (Prisoner of War). وكلمة «أسير» العربية تسدُّ مسدَّ كلمتي «سجين الحرب». ولكن الانجرار وراء التعبير الإنجليزي جعلنا نستخدم عبارة «أسرى الحرب» وكأنها عبارة عادية. ولتوضيح مدى ما تشتمل عليه من فضول خذ عبارة «طعام الأكل» مثلًا، أو «قلم الكتابة» أو «تلفزيون المشاهدة» أو «راديو الاستماع». ومن التعابير التي شقينا بها بسبب الترجمة قولنا: «سوف لن» وقد نقلنا ذلك حرفيًّا عن قولهم (Will not)، وماذا لو قلت: «لن» وحدها؟ أليست تؤدي معنى النفي ومعنى الاستقبال في آن معًا. ما الفرق بين قولك: «سوف لن أنام» و«لن أنام»؟ وهناك عاهة أخرى أكثر شيوعًا وأشد إيذاء؛ لأن فيها تحريفًا للمعنى؛ قولنا: «لا يجب أن نستسلم» وهي ترجمة فاسدة لقول الإنجليز (We must not)، والصحيح هو «يجب أن لا نستسلم» أو «لا يجوز أن نستسلم». وقد كثر الحديث في الأوان الأخير عن «الهجوم الأرضي»، والأرضيّ ترجمة سقيمة لكلمة (Ground). نحن بالعربية نقول الهجوم البرِّي. ومع أنه لا تحريفَ أصاب المعنى فالهجوم الأرضي تعبير ركيك. ولا أظن أن هذه الأشياء كانت تدخل العربية لولا كسل المترجمين وإيثارهم وضع الكلمة مكان الكلمة على تمثُّل النص. وهاكم مثلًا آخر على هذا الكسل؛ يقولون بالإنجليزية: (Easier) أي «أسهل»، ويقولون (More difficult) أي «أصعب»، ويعبِّرون عن هذه الأخيرة بكلمتين لأسباب معلومة في نحو اللغة الإنجليزية. فلماذا نصرّ نحن على تأثر خطاهم فنقول «أشد صعوبة» وليس في نحو اللغة العربية ما يمنع استخدام الكلمة الواحدة السهلة «أصعب»، أم أننا نستصعب السهل ونستسهل الصعب؟

المتآخيات

لو ذهبت إلى اللحَّام وقلت له: أعطني فدرة من اللحم لاستخفَّ عقلك. ولو قلت له: أريد فلذة من الكبد لظنك تسخر منه. ولو انحرفت في طريق عودتك إلى دكان السمَّان وطلبت نُسفة من الدقيق، أو كعبًا من السمن لظنك معلمًا للغة العربية على طريقة الأستاذ حَمام. ولكن العرب كانت تجعل لكل لفظ لفظًا يسير معه ويسايره ويميل أنى مال ويؤاخيه. وقد قالت العرب: «خُصلة من الشعر» وما زالت تقول، وقالت: «حصاة من المسك»، وقد ولى المسك

وولت حصاته في أيامنا هذه، فصرنا نقول: «رشة من العطر». وهناك على هذا المنوال: «قَصمة من السواك»، و«حُثوة من التراب»، و«لُمظة من الطعام»، و«صُبابة من الشراب». ويقولون: «هزيع من الليل»، و«مُسكة من المعيشة». ومن أشباه ذلك أصناف بقايا ومخلفات القدور والأقداح، فالبسيل هو بقية النبيذ في الزجاجة، والجِلس بقية العسل في الوعاء، والقَرارة بقية المرق، والكُدادة ما يلزق بأسفل القدر من طبيخ ويكون في العادة مالحًا مقليًّا أحسن قلي وكان له أنصار وأشياع قبل عهد التيفال.

باختصار

• قالت الأم لابنتها الصغيرة: أين عينك، فأشارت البنت إلى عينها، ثم انشغلت البنت بلعبتها دقائق، وعادت تسأل أمها: وأنت أين عينك؟ فضمتها الأم وقبلتها قبلة كبيرة، وقالت لها: أنت عيني.

• يذهب الرجل إلى البيت لكي يلاعب أولاده ويشمهم مثلما تشم البقرة عجولها، ويلحسهم مثلما تلحس القطة جِراءها.

• الرجل الفاشل يحاول بكل وسيلة أن يدفع أولاده في طريق النجاح، وغالبًا ما يفشل في هذه أيضًا.

• لا يمكن أن تكون الجريدة محترمة إلا إذا كانت دفاتر حساباتها مفتوحة.

• أَجلِسُ إلى المدخن فهو غالبًا طيب عصابي وبذيء، وأجلس إلى غير المدخن فقد لا يكون أحمق. وأما الذي كان مدخنًا ونجح في الإقلاع فإنه سيصدع رأسي بالحديث عن قوة إرادته وعن المبالغ التي وفرها بإقلاعه منذ عشر سنوات وحتى الآن. ما أثقل هؤلاء القوم!

• ما الفرق بين البخل والإيدز؟ الإيدز قد يجدون له علاجًا.

• ابتُر المكالمة الهاتفية بتحية مقتضبة وحازمة ولا تشعر بأي تأنيب ضمير، فهذا بالتحديد هو ما يريد أن يفعله الطرف الآخر.

(9) مايو/ أيار ١٩٩١.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر
حديث السمسم، الوزير المهلّبي، ابتسامة الصيني، صفوة الأدب (10)

يا رب ... قد طال توسلي إليك أن ترزقني مليون جنيه من حيث لا أحتسب. وقد تجاهلتني كل هذا الوقت؛ لأنك عليم أن هذا المال لن يزيل عني همومي إلا لكي يبدلني منها همومًا من نوع آخر لم آلفه. والهموم كالناس؛ مَنْ تعرفه خير ممن لا تعرفه. اللهم إني أسألك رزقًا يضيق عن استيعابه خيالي الذي ترعرع في التوسط، لا أسألك رزقًا يجعلني أطمع في استعباد الناس بالإحسان إليهم. الكفافَ الكفافَ يا الله. أسألك أن تكفيني الجوع والعري ومسألة الكتبة واستجداء اللقمة من كبار الموظفين. يا رب، ثقتي بك في ازدياد. يا رب، لاحقني بعينك، وانظر إليَّ.

حديث السمسم

دعاني صديق من شرق المتوسط فيه ظَرْفٌ وسخاء إلى مأدبة عشاء ثَلَثنا فيها رجل يُقال: إنه على ثراء وإن خفي ذلك كلَّ الخفاء، فهو يشهد في داخل نفسه صراعًا مستمرًّا بين أن ينفق القرش وأن يمسكه وتكون الغلبة في كل مرة للإمساك بمشيئة الله. وقد يكون الفرق بين الشح والسخاء فرقَ ما بين أن تفكر في الشيء وأن تنفذه. (قرأتُ عن فيلسوف إنجليزي فكَّر في الهجرة إلى آيسلندا، وكتب قائمة بخمسة وتسعين سببًا توجب جميعها عليه أن يهاجر. ولكنه لم يفعل ومات في وطنه). وكان ثالثنا ذاك من المدينة أولنا الذي هو الداعي وابن مدينته، وكنتُ بينهما كالداخل بين البصلة وقشرتها، ففضلت السكوت وأخلدت إلى الإصغاء كيلا أتأذى من رائحتها.

قُدِّم خبز رقيق رُشَّ عليه السمسم، وجيء بطبق الحمص المهروس، وهو أكلة معروفة في ذلك الصقع يصنعونها من الحمص المسلوق والليمون والطحينة التي هي معصور السمسم مقشورًا أو غير مقشور، ولكلٍّ درجةٌ على سلم المذاق والسعر. ثم جاءت ربة البيت -وهي سيدة أجنبية ابتلاها الله بزوج شرقي يحب بطنه- بالفلافل أو الطعمية التي قليت بالشِّيرج الذي هو زيت السمسم. وكان على المائدة مناقيش الزعتر، وهو في القاموس «الصعتر»، وتلكم خبزات رقاق عليهن زيت زيتون نُثر فوقه الزعتر وهو عشب بري يُجَفَّف ثم يُدَقُّ دقًّا فيسمى دُقة أو يجرش جرشًا أخشن، وفي الحالين يُضاف إليه السمسم فلا يؤكل هذا إلا بذاك، ولا بُدَّ أن نستكمل وصف المناقيش بالقول إنها توضع في الفرن فيمتزج طعم الخبز، بطعم الزعتر

وسمسمه، بطعم زيت الزيتون فيكون من ذلك كله طعم رابع يروق الغدد الذوقية التي درسنا عنها في المدرسة. وقُدِّمت في الختام حلاوة الطحينة وهي سمسم وسكر وقُدِّم معها شيء يسمونه البرازق وهو كعكٌ سمسمه أكثر من دقيقه.

لم أجد عندئذ بُدًّا من الخروج عن الصمت فقلت لمضيفي: «لم يبق إلا أن تضعوا سمسمًا في الشاي والقهوة»! فانتبه القوم عندئذ إلى أننا إنما تعشينا سمسمًا في صور مختلفة: مهروسًا معصورًا مذرورًا. وسرّ ثالثنا الثري للاكتشاف، وتنحنح ثم عَلَتْ وجهه تقطيبة مفاجئة ودسَّ يده في جيبه، كأنما أحس أن قرشًا يريد أن يثِبَ إلى الأرض، فأراد أن يعيده إلى مستقرِّه. ثم تنحنح ثانيةً، وقال: عندما كنا صغارًا كنت أخطف الرغيف الساخن من البيت وأذهب إلى معصرة سمسم كانت لعائلة رفيق لي، فألاقي رفيقي عند باب المعصرة فلا يُسْمَح لي بالدخول إلا بعد أن أقسم الرغيف نصفين وأعطيه نصفًا، شرط أن تكون القسمة لي والاختيار له. وندخل إلى بهو المعصرة وفيه أربع أرحاء. وسرعان ما نعرف الرحى التي عُصِرَ فيها السمسم آخر مرة، فندخل تحت الحجر السفلي الهائل ونصل إلى قطب الرحى، فنغمس خبزنا لقمة لقمة ببقايا السمسم المهروس الذي اسودَّ لونه من وسخ الحديد وزيت التشحيم، لقد كنت أثقل اللقمة بأضعاف وزنها من ذلك المعجون المسود، وما كان ألذه! وما إن انتهى حديث أديبنا -أي شريكنا في المأدبة- حتى كان الوقت قد أزف للانصراف. وفكرت في طريقي في قصته التي تعبق في أجوائها ذكريات الصبا، ورأيت أن جوعه وفقره في التراب الذي نبت فيه أورثاه شحًّا سيلازمه إلى ترابه الآخَر، وقد يجر عليه (سينًا وجيمًا) فيما بعد التراب.

قل ما تشاء

• قُلْ: التليفون أو الهاتف. أما «المِسَرَّة» فهي كلمة ولدت ميتة. أسموا الهاتف «مِسَرَّة»؛ لأن الحديث فيه يجري بين اثنين، والسر لا يكون إلا بين اثنين، فإذا جاوزهما شاع. ولما كان النساء يستعملن الهاتف لإشاعة الأسرار وفض مغاليقها فلا مسوِّغ لهذه الكلمة من الأساس.

• قل: رئيس البلدية أو العمدة، ولكن ألا ترى أن عبارة «عمدة نيويورك» فيها نظر؟ إنها تجعلك تتخيل أم الناطحات، وكأنها كَفْر في الصعيد تسرح فيه الناطحات بالقرون من المعيز والجواميس. أفضِّل أن أقول: «محافظ نيويورك»، كما أقول: «محافظ القاهرة».

• قل: الباص أو الأوتوبيس أو الحافلة.

• الهجوم مصدر الفعل هجم، وهو أيضًا اسم للمرة غير قياسي، والقياس أن نقول هجمة، والهجمة صغيرة، ولكن الهجوم كبير؛ ولهذا فإن كنتَ تريد الجمع فلا أرى بأسًا في هجومات ولا في هجمات، ولكل منهما معنى مختلف.

ابتسامة الصيني

كان المعلِّم يقول: أريد أن تتحدثوا الفرنسية كالفرنسيين. كان ينفق جهدًا ووقتًا على اللفظ السليم والعبارة المستقيمة، وهو يُصِرُّ على أن الإتقان هو الأهم، وليس عدد المفردات التي يعرفها الطالب. كان مفتونًا بالفرنسية ويريد أن يُعْدِي طلابه. ولا أسوق هذا الكلام تأييدًا للمعلِّم فسوف أناصبه العداء عند نهاية الفقرة القادمة.

أنا أقول: المفردات أهم من كلِّ شيء. لقد أنفق المستعمر القديم الأموال، وطبع الكتب، وأنشأ المعاهد والمكتبات لنشر لغته. كان يريد أن يخلِّف في نفوس الشعوب التي يستعمرها عقدة مكينة تربطها لأجيال قادمة، حتى بعد انتهاء الاستعمار السياسي، بالبلد الاستعماري. كان يريد أن يصوغهم على صورته لغويًّا. واللغة أهم العناصر الثقافية التي تصلح لخلق هذه العقدة. وقد نجح الاستعمار الفرنسي والبريطاني والإسباني في إنابة جيش احتلال ثقافي بعد رحيل جيشه. لقد استعمرنا داخل نفوسنا فصرنا كمن به مَسٌّ من الجنون. نريد إتقان اللغة الأجنبية، ونحرص الحرص كلَّه على التلفظ بها كأهلها، وهيهات.

لا بأس من أن أقاطع نفسي هنا لأعترف أن اللغة الأجنبية هي أداة ثقافية عظيمة الأهمية، وأنه لا بُدَّ لأي شعب متخلف من تعلم اللغات الأجنبية التي فيها ثقافة وعلم لا يملكهما في لغته. ولكن، ماذا تريد الأمم الصناعية منا اليوم؟ إنها تريدنا أن نتعلَّم لغاتها؛ لتسهيل التجارة معنا، وتسهيل التفاهم في حقول عديدة جميعها يجلب فائدة على تلك الأمم. ومن حقنا نحن أن نتعلم اللغات الأجنبية بالطريقة التي تفيدنا نحن. أرى أن هدفنا يجب أن يتركز على فهم اللغة الأجنبية؛ للقراءة فيها والترجمة عنها والاستفادة من العلوم المدونة بها. وأما إتقان اللفظ والتباهي بذلك وإجادة عبارات المجاملة، والإكباب على إتقان دقائق الأمور في نحو تلك اللغة وصرفها، فهذا لا يخدم غرضنا نحن، بل يخدم غرضهم هم. إذا أردنا أن نتعلَّم الفرنسية لكي نستعيض عن صباح الخير ومساء الخير بـ «بونجور» و«بونسوار»، فإننا إنما نزيِّن صدورنا ومعاصمنا بعقود الخرز الملوَّن وأساور الوَدَع المثقَّب. أمامك إزاء اللغة الأجنبية سبيلان: أن تستخدمها، أو أن تجعلها تستعبدك.

التقيتُ يومًا بشاب صيني يدرس الكيمياء في جامعة ألمانية، وكنتُ قد علمت أنه اجتاز فحص اللغة، الذي يؤهله لدخول الجامعة، بعد أربعة أشهر من قدومه

إلى ألمانيا، سألتُه عن ذلك فقال: درست ما يهمني من القواعد، وأما المذكر والمؤنث والمحير وأدوات التعريف والتنكير وأساليب التعجب فقد مررت بها دون أن أكلف نفسي قراءة الدروس المتعلقة بها، قلتُ له: واللفظ؟ فضحك وقال: «نحن الصينيين لا نحسن ذلك في اللغات الأوروبية مهما كلفنا أنفسنا من مشقة. إن المهمة التي جئتُ لتنفيذها تقتضي أن أكون جهاز استقبال ممتازًا لا جهاز إرسال، ومع ذلك فإنني أحاول». قلتُ له: «ألا تحتاج أن تقول لأحد: صباح الخير؟» قال: «الابتسامة تسد».

خوفو وكِندي

يقول كورت مندلسون في كتابه لغز الأهرام: إن الفرعون خوفو إنما أمر بتشييد الهرم الأكبر للوفاء بحاجة دنيوية، وإن كل ما قيل عن الاعتبارات الدينية إنما هو كلام سطحي لا يضرب عميقًا في تربة الحقيقة. ويُشَبِّه مندلسون بناء هرم خوفو ببدء الرئيس الأمريكي كِندي مشروع غزو الفضاء. ولم أعثر في الحجج التي ساقها المؤلِّف على وجه الشبه، ولكنني أظن أنه يتمثَّل في: تصريف فائض لا بد من تصريفه. فكِندي أراد أن يشغِّل الناس في مختلف القطاعات الصناعية والعلمية، أراد أن يأخذ العلماء رواتبهم، وأن يصرِّف الفنيون والتقنيون طاقاتهم في وجه من الأوجه. وأما الفرعون فكان حريصًا على استنزاف طاقة عبيده الذين لا يجوز أن يستريحوا، فذلك أمر يردُّ عليهم شيئًا من إنسانيتهم، وقد يجعلهم محرضين أو ثوارًا ... وربما يكون خوفو قد حقَّق نجاحًا؛ فمن المسلَّم به عند مديري المصانع ومراقبي العمال أن القعود يولد في الرؤوس أفكارًا لا تخدم مصلحة صاحب العمل، وأن العامل الذي ينشط فقط عندما يراه رئيسه خير من العامل الصادق الذي يكتف يديه إذا لم يكن هناك ما يعمله حقًّا. فالعامل يجب أن يعمل دون توقف على مدى الساعات الثماني -وهذا مبدأ عزيز على قلوب أرباب الأعمال- وهو بتشاغله الكاذب يبيِّن -نفاقًا- أنه يفضل مصلحة الشركة على مصلحته الخاصة ... على راحة بدنه ... ومع أن كذبته لا تخدع أحدًا، فإن ترسيخ هذا المفهوم يخدم صاحب العمل، إنه بند مهم في أيديولوجيا الإنتاج أو الاستغلال. كلما تفكرت في أهرام مصر قلتُ في نفسي: وراء كل صرح معماري شامخ عذابات إنسانية تدفن في الأساس، ولا يكشف عنها إلا التنقيب في الضمير.

هذا، وأرى أن ما دفع كِندي إلى بدء برنامج فضائي هائل إنما هو أن السوفييت سبقوه.

الوزير المهلبّي

من الوزراء الأدباء الذين عرفتهم الدولة العباسية محمد بن الحسن المهلبي، وهو ينتسب إلى القائد المشهور المهلّب بن أبي صُفرة. وكان المهلبي فقيرًا معوزًا قبل أن يلي الوزارة ويتصل بالسلطان. وكان يومًا في بعض أسفاره مع رفيق له فقير مثله، وطال بهما السفر، ولم يكونا يأكلان إلا الخبز والبقل. واشتد اشتهاء المهلبي للحم، ولكنه لم يكن يملك ثمنه، فقال متبرمًا بحياته:

ألا موتٌ يُباع فأشتريهِ

فهذا العيشُ ما لا خيرَ فيهِ

ألا موتٌ لذيذُ الطعم يأتي

يخلِّصني من العيش الكريهِ؟

فاشترى له رفيقه بدرهم واحد لحمًا وحفظ ذلك الشعر، ثم إنهما افترقا، ودارت الأيام وصار المهلبي وزيرًا. ولم يكن حظ رفيقه كحظه، بل إنه ازداد فقرًا. وفكر في أن يقصد المهلبي لعله يتذكره، ولعله إن تذكره لا يتنكر له. فكتب إليه في رقعة:

ألا قل للوزيرِ، فدَتْه نفسي

مقالَ مذكِّرٍ ما قد نسيهِ

أتذكُرُ إذ تقولُ لِضَنْكِ عيشٍ

ألا موتٌ يُباع فأشتريه؟

فلما نظر الوزير المهلبي في الرقعة تذكر صاحبه، وكتب على ظهرها: (مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ) [البقرة: ٢٦١]. وأرفق المهلبي بجوابه سبعمئة درهم مصداقًا للآية. فالرجل كان قد منحه درهمًا وها هو يردها إليه سبعَمائة درهم.

صفوة الأدب

يبدأ أحدهم قصته القصيرة بالقول: «كانت السماء ملبدة بالغيوم والرياح تزمجر»، ويستمر على هذا النحو أسطرًا كثيرة ليقول للقارئ في النهاية: إن النفساء فتحت عينها لتجد أنها ولدت طفلًا ميتًا. ولا يعرف القارئ ما علاقة هذا بالغيوم والرياح، ولكنه يلمس أن الكاتب يقلد القصص التي في كتب المدارس. وهناك طراز أبشع من هذا؛ تفتح الجريدة أو المجلة على صفحة القصة القصيرة فينهال عليك الأديبُ الكبيرُ بمطرقة عظيمة مصنوعة من المآسي والألغاز؛ فيقول مثلا: «ها هي قد اقتربت. لكن متى.. وأين.. السؤال

يحوم في الحنايا والثنايا.. غرفتي؟ أين غرفتي المضاءة بالبنفسج. ها هي.. لا، ربما. أطلت من بعيد..». والمشكلة أن القارئ يقف إزاء هذا الهراء متحيرًا فهو يخشى أن يطلق حكمًا سريعًا، فيكتشف بعدئذ أن هذا الكلام هو صفوة الأدب، وهو لا يحب أن يتابع القراءة، ولكنه يريد أن يتحدى قصوره وأن يفهم مغزى الكلام. وليس للكلام مغزى ولا له قيمة. ما أعجزنا وأخوفنا إزاء معايير الأدب! الهدف الوحيد من الأدب هو أن يمتعك. لم أرَ أحدًا تعلَّم من الأدب صنعة ولا اكتسب حكمة ولا ازداد صدقًا ولا تواضعًا ولا كبرياء. قد تكون القصة محزنة أو مضحكة أو طريفة ... المهم أن تكون ممتعة ومفهومة.

(10) يونيو/ حزيران ١٩٩١.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي عشر

عندما تتكأكأ الصبايا ويَظلم الحسنُ ناجيًا (11)

يا رب ... أصدقائي أنت، وساعاتي بدون صحبتك انتظار. بك يطيب الوقت، يا سيد الوقت. يا ربي أنت سقفي. امش معي حتى آخر الطريق. أسألك حُسْنَ الختام. أسألك أن تمسح بذنوبي وجوهَ المرائين حتى تكيدهم كيدًا. إلهي، جعلتني أعمل على الشوق، وجعلتهم يعملون على الاحتمال، فسهِّل عليَّ جواز العتبة، وخذ بيدي. يا سيدي، عندما أبتهل إليك تسقط الاعتبارات.

التكأكؤ

حاجات الإنسان كثيرة. ولكن الفلاسفة والمتفلسفين (ونحن من هؤلاء الأخيرين، في هذه الفقرة على الأقل) أفردوا من هذه الحاجات الكثيرة حاجتين قالوا: إنهما أساسيتان: الطعام والجنس. الطعام أساسي لحفظ البدن، أو لإبقاء البدن والروح متلازمين على حد التعبير الإنجليزي، والجنس أساسي لحفظ النوع. وليس بنا حاجة إلى شرح وظائف أجهزة حفظ النوع، فدون الإقدام على شرحها تكسير أقلام. الجنس مثل فرض الكفاية، يَسُدُّ فيه بعض البشر مسدَّ الجماعة، فإذا لم تنجب طفلًا في حياتك، فإن جارك سينجب عشرة في عشر سنوات، فيرفع عنك العتب ويساهم في الحفاظ على الجنس البشري. ولكن الخالق أراد الجنس لعبة للبشر، جعله لغزًا وضرب من دونه ستورًا من الحب والغزل. لماذا نستجمل امرأة ونستقبح أخرى؟ ولماذا تتكأكأ الصبايا على هذا الشاب لأنه وسيم، وينصرفن عن ذاك لأنه دميم؟ ما هو مقياس الجمال؟ أسئلة وضعت لها العقولُ إجابات كثيرة، ولكن كذَّبتها القلوب والعواطف. وقبل أن نغرق في التفلسف، يشاء الله -رحمة بالقارئ- أن يخطر ببالنا بيت من الشعر يمتُّ إلى هذا الموضوع بسبب.

بيت من الشعر

كان إبراهيم ناجي شاعرًا خجولًا، وكان طبيبًا. لم يكن فهلويًّا. كان شاعرًا. وقد قال بيتًا من الشعر يَعْدِلُ عندي حمل بعير من القصائد، قال شاعر الأطلال يصف الحبيب:

واثقُ الخطوةِ يمشي ملِكًا

ظالمُ الحُسْنِ شهيُّ الكبرياءْ

وعندما غنَّت أم كلثوم هذا البيت في جملة قصيدة مهجَّنة حفظ الناس: «لا تقل شئنا فإن الحظ شاء». وحفظوا أيضًا: «هل رأى الحبُّ سُكَارى». وفاتهم الذهب الإبريز، الذي هو البيت المذكور. سأحاول أن أنفخ غبار الإهمال الذي نثره الناسُ على هذه السبيكة الذهبية. أولًا: غيَّرت أم كلثوم وأحمد رامي، الذي اختار لها الأبيات وكان يقف فوق رأسها وهي تشكلها كلمة كلمة، تشكيل كلمة «ملِكًا»، ففتحا اللام لتصبح بمعنى «الملاك». ولا يُوصف الملائكة بأنهم يمشون بثقة، بل إنهم في تصوراتنا وفي تراثنا يحلِّقون في سماوات الطهر والبراءة، أستثني إبليس، وحتى عزرائيل إن سمحتم لي.

إنني على ثقة من أن الشاعر قالها: «ملِكًا» بكسر اللاَّم. فمن صفة الملوك أنهم يمشون بثقة؛ لأن كل من حولهم أدنى منهم مرتبة. ألا ترى مدير القسم يدخل المكتب رافعًا رأسه غير ملتفت إلى الموظفين، سائرًا في طريقه وعيناه في السقف، فإذا تعثَّر برئيس مجلس الإدارة تحول حضرة مدير القسم إلى مجموعة من الانحناءات والابتسامات وهزَّات الرأس؟

قال ناجي: «يمشي ملِكًا»، ولكن أم كلثوم غنَّت «الأطلال» عام ١٩٦٦، وكان الحكم الجمهوري الذي أودى بالملكية قبل حين شديدَ الحساسية، يريد أن ينزع الملَكية نزعًا من الأذهان، فسمعناها «يمشي ملَكًا».

«ظالم الحسن»: هنا محطُّ الرحال، هنا يطيب الوقوف الطويل. قالوا قديمًا: رائع الحسن، وبديع الجمال، وفائق الهيئة، وكامل الصفات. ولكنهم تركوا: «ظالم الحسن» لإبراهيم ناجي لكي يقولها. ما شاء الله كان. هذه عبارة تجمع في كلمتيها مائة شيء. ناجي لم يصف الحسن بصفة مما يلازمه كبقية الصفات. لقد وصفه بأثره في النفوس. وأنا أتخيل ناجي يسير الهوينى قاصدًا عيادته، فإذا به يصادف امرأة من اللائي خلقهن اللهُ فتنة للخلق وامتحانًا يمتحن به العارفين. رآها ناجي فوقف وفغر فاه. وكأنما لم تكتف هذه المرأة بالأفاعيل التي فعلتها بشاعرنا الرقيق من إنشاف الريق على قارعة الطريق، وبما أصابته به من ضيق في التنفس، فتقدمت نحوه تريد أن تسأله عن عنوان. فأجال الدكتور إبراهيم ناجي نظره في وجهها محاولًا جهده أن يكتشف غلطة لكي يستريح.. فعجز. وقال لنفسه: لعلها إن أدبرتْ أستبينُ في قدّها عيبًا. ثم إنه اعتذر إليها بأنه لا يعرف العنوان، فذهبت وذهبت معها قطعة من فؤاده. ورآها تمشي بثقة الملوك ورأى قدًّا لا يعيبه قصر ولا طول ولا ضمور ولا ترهل، فانشغل فكره، وقال في نفسه: هذه هي الكاملة. وقفل راجعًا لا يفكر بعيادة ولا بمرضى. لا يفكر إلا بهذا الحُسن، شعر بأن هذا الحُسن ليس رائعًا ولا بديعًا.. بل ظالم. وكأنما انتبه ناجي أيضًا إلى أن تلك المرأة سألته ذلك السؤال بكبرياء.. لا.. لا.. «كبرياء» ليست هي الكلمة الملائمة فإن تلك الحورية كانت مؤدبة غاية الأدب، غير أنها معتدَّة بنفسها

واثقة برأس مالها، إنها كبرياء «شهية». إنها تلك الكبرياء النادرة التي تحترم صاحبها وتحبه.. وتشتهيه.

واثق الخطوة يمشي ملِكًا

ظالم الحسن شهي الكبرياءْ

وكما أن في الجمال والجنس وفي المرأة سرًّا عجيبًا فإن في الشِّعر سرًّا. الشِّعر هو الكلام الذي يلخِّص العوالم. إنه مصباح علاء الدين. كان العقَّاد يقول: بيت من الشعر يعادل رواية. وكيلا يفضي بنا الحديث إلى شؤون وشجون، نعطف على ما كنا أخذنا فيه من أمر الأطلال.

الأطلال

الأسطوانة سمَّت الأغنية في الطبعة الأولى «أين أيام الهوى».. وقد غنَّت أم كلثوم البيت الأول في الأسطوانة الأصلية هكذا «يا فؤادي أين أيام الهوى». وفي الحفلات «يا فؤادي لا تسَل أين الهوى»، فماذا قال ناجي بالضبط؟ وقد أستطيع أن أحل المشكلة بالرجوع إلى ديوان إبراهيم ناجي. وقد خطر ببالي أن أتحقق من الموضوع إرضاء للأمانة العلمية والنقدية فأركب قطارًا وحافلتين حتى أصل إلى مكتبة جامعة لندن.. ولكن القلم مشى على وجه الطرس وصار يخطر برشاقة، وقلما يفعل، ولا وجه للإمساك الآن وحبْس الكلمة على ذمة التحقيق. وأنا بعد لا أبدأ بكتابة المقال إلا بعد أن أصارع عفاريت الكسل. وما أهون دخول الحمام ودخول دكان الحلاق بالقياس إلى الدخول في المقال ... وأي مقال؟ ثرثرة عجائز وهيام في استطرادات منفلتة من عقالاتها كما ترون. إذن نتجاوز عن البيت كما ورد في الديوان، ونغترف من الذاكرة أن ناجي قال: «يا فؤادي رحم الله الهوى»، وهذا الترحم ليس صالحًا للغناء.

لقد قيض للأطلال أبدع شعر وأروع لحن وألمع صوت وأداء. ونعود بضعة أشهر إلى ما قبل هذه الأغنية، حين لحَّن محمد عبد الوهاب أغنية «إنت عُمْري»، وكانت فاتحة اللقاء بينه وبين أم كلثوم، قال الناس: لقد أرقص عبد الوهاب الستّ. هذا لحن راقص جمع الطرب من العيار الثقيل الذي يحبه أجدادنا، إلى الطرب الخفيف «هات إيديك ... ويا حبيبي تعال»، إلى القوة التعبيرية «صالحت بيك أيامي»، والمقاطع المشابهة التي وضع فيها أحمد شفيق كامل ذوب قلبه. وكأنما رأى رياض السنباطي الذي احتكر صوت أم كلثوم ثلاثين سنة، أن عبد الوهاب جعل الجمهور يخرج من جلده طربًا، فأراد أن يتحدى عبد الوهاب. وكأنه أراد -إمعانًا في التحدي- أن يجعل لحنه تعبيريًّا من أوله إلى آخره ولا أستثني (سكارى)، فالسنباطي لم يُرد لها أن تكون أهزوجة داخل

الأغنية، لقد جعلها موقّعة على نحو يلائم المعنى … فالمعنى فيه نشوة. والتوقيع السريع المنتشي لا يدوم سوى ثوان، ولكن الجمهور ألحَّ على الستِّ فاستجابت وصنعا من السكارى هيصة. ونجح السنباطي مثلما نجح عبد الوهاب.

قبل أن أنسى! هذا الكلام يُفترض أن يكون في موضوع اللغة والأدب، وإنني لأبحث جاهدًا عن عبارة في تلك الأغنية التي رُكِّبت من عدة قصائد أستطيع أن أقفز على ظهرها إلى موضوع أدبي أو لغوي. حسنًا! لم أجد. أعود إلى «سكارى».

سكارى

وأين هو الانتشاء والخفة في مقطع «هل رأى الحبُّ سُكَارى»؟

أرجو أولًا أن يكفَّ القارئ الكريم عن ترجيع اللحن والدندنة به، حتى ولو دون صوت، وأن يلتفت إلى الشعر، إبراهيم ناجي لا يتحدث هنا عن حب الأغاني، حب الدموع وسهر الليالي. بل عن حب يتفجر فرحًا، إنها سكرة حب، بؤرة يتكثف فيها فرح عمر. يقول إبراهيم ناحي:

هل رأى الحبُّ سكارى مثلنا

كم بنَيْنا من خيال حولنا

ومشينا في طريق مقمر

تثِبُ الفرحةُ فيه قبلنا

وضحكنا، ضِحْكَ طفلين، معًا

وعَدَوْنا فسبقنا ظلَّنا

هذا شعر ينسيك اللغة وقواعدها. ذكرنا شيئًا عن الجمال الذي يصعق ويُشعر الإنسان بأنه ظُلِمَ. وهذا حبٌّ غامر يحيل الأشياء كلها إلى صهيل. صهيل! كلمة خطرت بالبال! ما الفرق بين حب كله قيود ورقباء ودموع وكبت وسهر، وبين الحب الذي يقفز الفرح فيه أمام الحبيبين وهما سائران في طريق مقمر، ثم يضحكان بدون سبب كالأطفال من شدة الفرح، ثم يخطر ببالهما أن يركضا فيركضا، ليكتشفا أنهما من نشوة الحب والفرح سبقا ظلهما. هذا ليس شريط «ميكي ماوس» بل انطلاق يكسر نظريات علم الضوء. إنه حب يخلط النور بالظل خلطًا لا يحسنه علم الفيزياء … ما الفرق بين ذينك الحبين؟ الفرق شَعرة. الحب الأول فيه توق للانطلاق، والثاني تجسيد للانطلاق. لقد عجز

الفلاسفة والعلماء عن فهم الحب، فتصدَّى له الشعراء، وحتى هؤلاء عرفوا أنهم لن يستطيعوا له فهمًا فحاموا وما وقعوا.

أقوال غير مأثورة

• البيانو آلة موسيقية عتيقة يشتريها الأغنياء في الشرق لاستكمال أثاث البيت.

• سيد درويش مثل عمي المغترب في البرازيل: نسمع عنه كثيرًا ولا نسمعه.

• الكتاب صديق ثرثار، ولكنك تستطيع أن تسكته أنى شئت.

• لعمري إن الرجل ليحب التنويع.

• هجرت الشعر منذ زمن، ولكن بقي في الحلق بعض الخرابيش.

• لم أر، لا في شرق ولا في غرب ولا قديمًا ولا حديثًا، زعيمًا يحب أن يترك الحُكْم.

• وقف سائق التاكسي عند بائع الأشرطة وقال له: أعطني كيلو مزيكا.

• إذا لم يكن طعامك طيبًا فليكن حديثك طليًّا، فإذا دعوتني إلى طعام لم تُجد طهوه ثم آذيتني بالحديث عن إنجازاتك وعن أولادك فلن أغادر بيتك شاكرًا بل شاكيًا.

• رجل الدين رجل يرى نفسه دائمًا على حق، والعالم رجل يظن دائمًا أن ما توصل إليه خطأ. ومع ذلك لا يفتر الحديث عن اتفاق العلم مع الدين.

• خفة الدم نعمة لا ينعم الله بها على خفيف الدم بل على من حوله.

• الثقيل هو الشخص الذي كلما رويت نكتة روى نكتة أخرى لا تختلف إلا في التفاصيل وادَّعى أن نكتته هي الأصل.

• نحن لا نحب الذي يقول نكتة ثم يعيدها أو جزءًا منها ... لأنه يستغبينا.

• أحلام اليقظة هي المادة الخام لإنجازات المستقبل. ولكنها مثل خام الذهب في كل طن منه شذرة من الذهب.

(11) يوليو/ تموز ١٩٩١.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني عشر
التسوق على لحم البطن، والتلمّظ والتمطّق
والطبيخ إذا شاط، والتمر إذا خمج، والبيض إذا مذر
(12)

يا ربي! أُهيئ نفسي طول الشهر لكي أخطَّ إليك رسالة شوق، فمنذ أن ألقتني المصادفة في طريقك تنكّبت الطرق الجانبية، وصرت أرى الرافعين اسمك على الرماح فأشفق عليهم. ويكرهونني لأنهم لا يصدِّقون أنني تعرفت بك، ولا يكذبونني كل التكذيب لأن من يكون من معارفك لا يستطيع أن يخفي ذلك. يرونه في وجهي. يا سيدي، لا أريد لقاء حبي إياك إلا حبًّا. وجاز الرافعين اسمك بما تريد. لك الأمر.

حديث السمك

يحدث للمرء أن يجيء على باله صنف من أصناف الطعام فيقع في نفسه اشتهاء شديد لهذا الصنف، فلا ينفكُّ يفكر فيه، ويبحث عمن يطارحه الحديث في شأنه: كيف يُطبخ؟ وكيف يُقَدَّم؟ وكيف يُؤكل؟ وقد رويتُ أن معلم مدرسة -وللمعلمين على جلال قدرهم ورفعة رسالتهم بَدَوات وشَطَحات- كان لا يتسوق الخضر واللحم إلا وهو جائع. ففي يوم الجمعة لا يكسر الصَّفْرة، أي لا يتناول إفطاره، بل يذهب إلى السوق على لحم بطنه؛ حتى يُتاح له أن يتسوق بشهية، وأن يقلب في كفه حبة البندورة (= الطماطم) وكأنه يديرها في فمه وهو يتلمظ، أي يضم شفتيه ويلحسهما بلسانه، ثم يتمطَّق، والتمطُّق هو صوت يخرج من ظهر اللسان إذ يلتصق بسقف الفم عند تذوق شيء لذيذ، والصوت الذي أحاول جاهدًا وصفه يشبه قولك: «متق».

رويت عن هذا المعلم أنه اشتهى السمك في أحد الأصباح، فراح يحلم بأن التلاميذ الذين يتراكضون أمامه في فناء المدرسة أسماك في حوض. ثم عندما دق الجرس واصطفوا خُيِّل إليه أن الأسماك قد رُصَّت في مِقلى عظيمة. وفي درسه الأول، وكان في الحساب، لم تخرج أمثلته ومسائله من حوض السمك: اصطاد عليٌّ سبعين سمكة، أكل نصفها وباع أربعة أسباع ما بقي، فكم بقي عنده بعدئذ؟ (الجواب بالمناسبة هو خمسة عشر). وفي درس العلوم -وكان سهَّل الله عليه يعلِّم الرياضيات والعلوم- أفهم التلاميذ أن نيوتن اكتشف قانون الجاذبية بعد أن سقطت على رأسه سمكة وهو نائم تحت الشجرة. قال له الأولاد: بل تفاحة يا أستاذ. فقال: بل سمكة، وعندما عانده تلميذ من التلاميذ -وقد جعل الله سبحانه وتعالى في كل فصل في كل

مدرسة تلميذًا عنيدًا يريد أن يثبت أنه على حق غير عابئ بدرجة أو علامة أو برضا المعلم أو بسخطه- عندئذ أرغى مُعلِّمنا وأزبد ووبخ التلميذ وأفهمه أن الأشجار في الصين تختلف كل الاختلاف عن أشجار بلادنا. قال التلميذ: نيوتن إنجليزي يا أستاذ. فأجاب المعلم: إذا استطاعت أشجار الصين أن تحمل سمكًا، فإن أشجار بلاد الإنجليز تحمل الحيتان، يا غبي.

وذهب المعلم إلى بيته فاكتشف أن زوجته -يا للمفاجأة- أعدت للغداء سمكًا على طريقة أمه -وليس في العالم رجل يرى أن امرأةً تصنع طعامًا أشهى من طعام أمه- فجلس إلى المائدة وأخذ يتناول وجبته بشراهة وبسرعة. كنت أريد أن أغير نهاية هذه الرواية فأقلب عرس صاحبنا إلى مأتم، وأدس له حسكة في حلقه تخلص تلاميذه من شهوات بطنه. ولكنني أوثر جانب الصدق حتى تكون روايتي واقعية من أولها إلى آخرها. فما إن بدأ صاحبنا باللقمة الأولى حتى أخذ يفكر في مهمة غسل الأطباق، وركبه الهَمُّ، فسوف يضطر إلى بذل جهد مضاعف لإزالة زنخ السمك. وما انحدرت اللقمة الأخيرة إلى جوفه حتى قال في نفسه: قد والله أكلتُ سمكتين، لكن لم أذق لهما طعمًا لكثرة ما فكَّرتُ في غسل الأطباق.

وغسَلها.

ولن يفوتنا إطرافُكم برواية أخرى عن رجل آخر كان يعشق البطيخ، ولكن زنخ السمك يستوقفنا عند محطة لغوية.

الشياط وأخواتها

الأصل في الزنخ أنه رائحة الدهن الذي قَدُم به العهد وما عاد يصلح للأكل. وقد فاز السمك والبيض بهذه الصفة بجدارة، حتى وهما صالحان للأكل. وإذا فسد اللحم نقول أنه خَمَّ، ونَصِفُ الماء الذي تغيَّر طعمُه (أو بالأحرى الذي صار له طعم ... أي طعم) بالآسن. ونقول للجوز واللوز والسمسم وأشباهها إذا أنتنت: لقد قنِمت، ويقول الناس في بلاد الشام إنها مَقْسَسَت، والتمر يخمَج، والبيض يمذَر. وأما رائحة الفم الكريهة فهي البَخَر، والرجل الأبخر هو ذو رائحة الفم الكريهة، والصُّنان رائحة الإبط الأيمن، والشِّياط رائحة الطعام الذي يحترق في القدر، وكم زوجةٍ ذهبت في زيارة طويلة إلى بيت أهلها لأنها أنتجت شياطًا. والنساء في بعض البلاد العربية يقلن: «لقد شاطت الطبخة» إذا احترقت. فهذا من الفصحى. وكم من كلمة فصحى تدور على ألسنة الناس ولا يعرفها جهابذة اللغة؛ ذلك أن الفصحى التي نستخدمها اليوم لغة تعوزها مفردات الحياة اليومية، ولعلك واجد في العامية كلمات من الفصحى القديمة

لم يكن يخطر ببالك إلا أنها من مفردات العامة المرذولة. قال حافظ إبراهيم على لسان اللغة العربية:

أنا البحرُ في أحشائه الدرُّ كامنٌ

فهل سَأَلوا الغوَّاص عن صدفاتي

وقد يسأل سائل عن رائحة الإبط الأيسر، ماذا تسمَّى! تسمَّى الصُّنان أيضًا. وهذه قبل قصة البطيخ محطة لغوية أخرى.

قل ما تشاء

• يستلم أم يتسلم الرسالة؟ في الزمن القديم كان معنى الاستلام التقبيل، وكان الناس يستلمون الحجر الأسود ومن ذلك قول الفرزدق:

يكاد يُمسكه، عرفانَ راحتِه،

ركنُ الحطيمِ إذا ما جاء يستلمُ

ولهذا كانوا يقولون: تسلَّمت الرسالة لا استلمتها. وفي أيامنا لم يعد الاستلام يعني التقبيل، فقل تسلمت الرسالة أو قل استلمتها.

• الوجود العسكري أم التواجد العسكري؟ الوجود قديم راسخ، والتواجد حديث طارئ. نقول: تواجد في مكان الحادث ثلاثة من رجال الأمن بطريق الصدفة. ولا تصلح كلمة (وجد) هنا. هناك معنى آخر بعيد لكلمة تواجد وهو: أظهر الوجد والانغماس الشديد في التسبيح لله. وكم كلمةٍ لها معنيان، وعشرة، وعشرون، إذن فنحن نقول: «التواجد العسكري الأجنبي على أرض العراق»، ناظرين إلى أنه مؤقت طارئ، ونقول: «للولايات المتحدة وجود عسكري في ألمانيا»؛ لأن لها هناك قواعد ثابتة.

البِطّيخ الذي وعدنا به

كان الشيخ يعشق البِطِّيخ ويُحله من التبجيل محلًّا عاليًا. ومرض مرض الموت، واشتدت به العلة في عشيَّة شاتية، وفي ساعة النزع انتبه انتباهة الاحتضار وطلب بطيخةً. فقال له ابنه: ليس الموسم موسم بطيخ، أأشتري لك برتقالًا؟ فقال المحتضَر لولده الشحيح الذي أعاشه شيخوخة محرومة: بل هناك بطيخ عند فلان الفاكهاني، وهو لا يغلق دكانه إلا في ساعة متأخرة. فانطلق الشحيح إلى دكان هذا الفاكهي. (لم أرَ في حياتي فاكهيًّا ممن يجلبون النوادر ويعلِّقون المصابيح إلا وهو مترفع متكبر يحتقر الفقراء ويبغض البخلاء، ويعد نفسه واحدًا من طبقة الذين يشترون منه. كدت أكره الفاكهة لكرهي بعض بائعيها. وكان صاحبنا الفاكهي من أولئك القوم). عندما أتاه الشحيح كان عنده ثلاث

بطيخات وضعها على رف ولم يجد لها شاريًا لغلائها. فلما قال له الشحيح: بكم البطيخة؟ عرف الفاكهي أن هذا الرجل لا يشتري البطيخ في غير موسمه إلا لسبب، وخمَّن، وحزَّر، فهو يعرف أن والد الرجل في السياق. فحمل بطيخة منها بين كفيه وربَّت عليها بإعجاب، وقال: بدينارين. فذعر الرجل واستغلى الثمن. فترك البائع البطيخة تسقط على الأرض فانفجرت. فقال له الرجل: بالله عليك إلَّا ما انتبهت، هيا أَعطني بطيخة ثانية، وأخذ يخرج من محفظته المبلغ، بينما حمل البائع البطيخة الثانية.

وعندما قدم الشحيح الدينارين قال البائع: هذه الثانية بأربعة دنانير، فصاح الرجل مستنكرًا، فترك البائع البطيخة تسقط أرضًا. فانفجرت كأُختها، فأُسقط في يد الشحيح فقال: والثالثة بكم؟ فاستدار الفاكهي كي يتناولها فتوسل إليه الرجل أن يدعها في مكانها إلى أن يتفقا على السعر. فقال الفاكهي: بستة دنانير. فنقده الرجل المبلغ وتقدَّم فحمل البطيخة وانطلق إلى والده.

الانطلاق

أتقن الشرقيون فن القيود، حبسوا أقدام بناتهم في أحذية من حديد وأوصدوا على نسائهم أبوابًا من حديد، وجعلوا الفرح نقيصة. على أن العربدة شيء مركَّب في نفس بني آدم. الخليفة الأندلسي عبد الرحمن الناصر حكم خمسين سنة، وقال في آخر أيامه: «لقد أحصيت الأيام الهانئة في عمري، فوالله ما تجاوزت أربعةَ عشرَ يومًا».

لست أعرف كيف أربط هذه الحكاية بموضوع هذه الفقرة، غير أنني أشعر أن هناك ما يبرر الاستشهاد بها. وقد أظن أن الناصر كان مكبَّلًا بأغلال الوقار المصطنع الذي يستوجبه منصبُه. لي صديق عاقل رصين وقف يومًا في محطة قطارات مزدحمة بلندن، وألقى خطابًا بأعلى صوته بالعربية الفصحى، عن العروبة وفلسطين والعالم الثالث والاستعمار وسط دهشة الإنجليز البالغة. حدثني قال: كم شعرت بالارتياح بعد أن فرغت من الخطاب.

الانطلاق، حديثه يطول …

تأذَّيتُ عندما شاهدت محمد عبد المطلب على التلفزيون يغني في حفلة. كان معظم الحضور شبابًا. وانطلق عبد المطلب، وأخذ يرصُفُ الليالي بطريقته الخاصة. راح يقلِّب الأنغام بأستاذية يعرفها مَن يقدِّر فنَّه، ومع الانسجام صار يصرخ بـ يا ليل آنًا، ويهمس بها آنًا، ويقطع الأغنية قطعًا مفاجئًا بموال لم يكن على بال الفرقة الموسيقية ولا على خاطرها، فيُهرعُ العازفون إلى لملمة أنغامهم، وتأخذ آلاتهم تتمتم في محاولة لمصاحبة المطرب الشارد. وفي مثل هذه الفوضى الرائعة من التجلي والانطلاق راح ثُلَّة من الشباب يقهقهون،

وحوَّلوا الحفلة إلى سهرة كباريه، وساعدهم المخرج فسلط الكاميرا عليهم طويلًا ... وتأذيت.

«يا ليل» عبارة لا معنى لها، وإنما تستمد قيمتها من عيار الذي يقولها. بعد عبد المطلب لم يعد هناك من يصلح لصَفَّة الليالي الحرة.

امرأة

امرأة ليس عندها مانع، هكذا يصفونها. إنها بسيطة كالماء، وغبية بعض الغباء، ومُقبِلةٌ على الحياة جدًّا ومتواضعة كأنها التراب. لا تلاحق أحدًا ولا تصدُّ أحدًا. لا يرى فيها أي ذكر تحديًا، ولا توفر لأحد شيئًا من عناصر المغامرة. لهذا لم يكن يصمد معها عاشق. ظنوها محرومة وظنوها شهوانية. ولكن، لا هذا ولا ذاك. إنها بسيطة إلى حد أنه ليس عندها مانع.

شيء عن الطفَّاية

مِنفضة السجائر «بكسر الميم» هي (الأداة) التي تيسِّر للمدخن نفض الرماد من سيجارته. وهي «بفتح الميم» (المكان) الذي ينفض فيه المدخن سيجارته. فإذا رأى المدخن في ذلك الشيء أداة فليكسر الميم، وإذا اعتبرها مكانًا فليفتحها. المدافعون عن وجهة النظر الأولى يقولون: نحن نصك السيجارة على طرف المنفضة صكًّا، فنكون بهذا قد استخدمناها أداة؛ بينما يقول جماعة «اسم المكان»: نحن نرى المنفضة «مكانًا» للرماد لا أداة تعيننا على نفضه، نحن نَكِزُ السيجارة بالإبهام في عقبها فتهتز فيتساقط الرماد. وهناك قوم آخرون يقولون: إن سيجاراتنا يقلن: «تك تك» خلال عملية النفض؛ ولذا نريد أن نسمِّي ذلك الإناء الخطير «المِتكَّة». وثمة فريق رابع قالوا: بل تقول سيجاراتنا: «كت كت» عند النفض؛ ولذا فنحن نسمي المنفضة «مِكَتَّة». وقبل أن يدلي جماعة «طق طق» والطقطوقة بقولهم، نعاجل الجميع بالقول: «قل ما تشاء».

(12) أغسطس/ آب ١٩٩١.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث عشر
إتيكيت العرب، خامس الراشدين،
حديث الشطيرة (13)

لئن احتلت الشكلياتُ موقع الصدارة من آداب المائدة عند الأوروبيين فإن أجدادنا كانوا أكثر التفاتًا إلى المضمون في آداب مائدتهم، وكانوا أظرف.

إتيكيت العرب

ذمُّوا المتشاوف والعدَّاد والجرَّاف والرشَّاف والقرَّاض والنفَّاض والبهَّات واللتَّات والمهندس والشطرنجي. وذمُّوا كذلك الصبَّاغ والنفَّاخ. وقد وهم بعضُ المُحدَثين؛ فظن أنه يقصد بالمهندس ذلك المدعو الذي ما إن يدخل من باب البيت حتى يُجيل نظره في الممر قائلًا: «يا أبا محمد، لو كنتَ، سامحك الله، أخذت نصف متر من الصالة ونصفًا من غرفة النوم لصار مطبخك رحبًا، ولو جعلتَ الباب هنا لما مرَّ الضيف بالمطبخ قبل أن يصل إلى غرفة الجلوس»، وكان حريًّا بأبي محمد أن يقول له: «لو غضضتَ من بصرك لما رأيتَ كلَّ هذه المعايب». والحقُّ أن «المهندس» في قاموس آداب المائدة إنما هو المدعو الذي يأخذ بإصدار أوامره إلى سيدة البيت أو الخادمة عند إحضار الطعام فيقول لها: ضعي السَّلَطة هنا والأرز هناك، واللحم هنا والخبز هناك، فيرصف لها الأطباق بأوامره على النحو الذي يوافقه. وقريب من ذلك الشطرنجي، فهو ينتظر حتى توضع الأطباق والزبادي ويضيق بهن الخوان ولا يعود يتسع للخبز مثلًا، فيأخذ بتنقيل الزبادي على رقعة المائدة حتى يخلي حيزًا.

والمتشاوف هو الذي يطول به الجلوس ويقرصُه الجوع، فيرمي نظره بين الفينة والفينة إلى الممر مترقبًا حضور الطعام، ولا يصدُر صوت ولا تبدُر حركة إلا مدَّ عنقه متشوِّقًا متشوِّفًا. والعدَّاد هو الذي يقف على رأس المائدة يَعُدُّ الأصناف ويسمِّيها، ويشيد بكرم الداعي ويوبخه لأنه أتعب نفسه وكلَّف جيبه. والجرَّاف هو الذي يجعل الخبزة في آخر الطبق ويجرُّ بها الغَموس إلى ناحيته حريصًا على أن يُحمِّلها فوق طاقتها. والرشَّاف يأكل اللقمة رشفًا مع صوت مُؤذٍ، وقد يرتشف المرق بملعقة أو بدون ملعقة فيكون لارتشافه صفير مبحوح. وإنما يصنع المرءُ ذلك إذا كان المرق ساخنًا، فهو عندئذ يحيل المرق إلى رذاذ بخلطه بقَدرٍ من الهواء أثناء تمريره بين الشفتين. والأجدر أن ينتظر حتى يبرد المرق قليلًا. وأما القرَّاض فهو الذي يشذب لقمة الخبز بأسنانه ثم يغمسها في الطبق، والنفَّاض يتناول من الدست لقمته بيده ثم ينفض ما بقي على أصابعه من أرز أو نحوه في الدست. وأما البهَّات فهو الضيف الذي يحدق

في وجه من يقف مقابله فيبهته ويربكه، ثم يمد يده بخفة إلى قطعة لحم كبيرة أمام ذلك الرجل. واللتَّات يصل لقمة الخبز بأخت لها أصغر منها، ويلت الخبزتين بأطراف أصابعه قبل أن يغمسهما في الطبق، يريد أن يرفع بهذه المجرفة إدامًا كثيرًا. والنفَّاخ ينفخ على الطعام لكي يبرده. وأما الصبَّاغ فإنه الضيف الذي يطلب زبدية فارغة، ثم يروح ينقل المرق من زبدية إلى أخرى ليبرده. وقد سموه كذلك لأنه يشبه في فعلته الصباغين الذين يسكبون محاليلهم من وعاء في وعاء. هذا جانب من «قلة» آداب المائدة عند القدماء. والأسماء موجودة في بخلاء الجاحظ، كسونا بعضها بأوصاف من عندنا بحسب ما رأينا، ومَن عاشرنا.

خاطرة

لأن الدول المتتابعة التي تحكمت في رقابنا -نحن العرب- كانت ظالمة، فإننا صرنا نتغنى بالعدالة ونتوارث النوادر عن عدل الزعماء. وما رُوِيَ عن ورع هارون الرشيد وخوفه من الله إنما هو دليل على بطشه وسطوته؛ فقد رُوي عنه أنه طلب من أحد الفقهاء أن يعظه فقال الفقيه: «يا أمير المؤمنين، لو أنك انقطعت في صحراء ألا تشتري شربة الماء بنصف ملكك؟»، فقال الرشيد: «بلى». فقال: «فإذا شربت الماء وانحبس في جوفك، ألا تتمنى خروجه ولو كلَّفَك ذلك ملكك كله؟»، فقال الرشيد: «بلى». فقال الفقيه: «إن ملكًا لا يساوي بولة أحقُّ بأن يُهجر أو تتقيَ الله في تصريفه». فبكى الرشيد وانسل الرجل من المجلس دون أن يشعر به أحد.

مشكلة خلفائنا -بل مشكلتنا في خلفائنا وأستثني الأربعة وخامسهم- هي أنهم اعتبروا العدل صدقة يتصدَّقون بها على الرعية. وقبل أن يستدرجني القلم إلى حديث فيه سياسة ووجع رأس، أستطرد إلى قصة خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز.

خامس الراشدين

حاول كيفما شئتَ أن تقنع الشبان الصغار بأن الخلفاء الراشدين كانوا متساوين في أقدارهم وكفاءاتهم. ولكنك ستجد أنهم يفضلون عمر؛ إنهم يفضلونه لأنه كان قويًّا وصاحب مبادرة وعادلًا، ولم يكن دبلوماسيًّا، ولأنه كان يعترف بغلطه إذا تبيَّن له وجهُ الحق. لقد بدأت هذه الفقرة وفي نيتي أن أتحدث عن عمر بن عبد العزيز، ولكنني خرجت عن الموضوع قبل أن أدخل فيه، ورحت أتحدث عن عمر بن الخطاب، وكلا العمرين جدير بالحديث، وكلاهما يطيب عنه الحديث.

كان ابن عبد العزيز دبلوماسيًّا، ولكن عناده في الحق كان مضرب الأمثال. وتميز عن سميِّه بأنه سبح ضد التيار. نشأ عمر بن عبد العزيز في أحضان الخلافة الأموية: جده وعمه وأبناء عمه كانوا خلفاء. أصبح واليًا على المدينة، وكان لذلك العهد يتقلَّب في النعيم. ذُكر أن شبان المدينة كانوا يرسلون أثوابهم لكي تُغسل في الماء الذي غُسِلَت فيه أثواب عمر؛ حتى يعلق بها شيءٌ من أصناف الطيب التي كان عمر يضمِّخ بها ثيابه. وعندما آلت إليه الخلافة ترك عمر الدنيا ودخل في الآخرة. ووقف في وجه بني أمية وقفة رجل أيقن بيوم الحساب كأنه يراه عيانًا. وكان من منجزاته المهمة أنه احترم عليًّا وتراثه فحرَّم أن يُلعن من على المنابر، وكان الخلفاء الأمويون قد فرضوا على الخطباء أن يلعنوه. وقد قيل: إن بني أمية دسُّوا السم لعمر فمات شابًّا. وقد رثاه الشعراء وتميَّز رثاؤهم له عن رثائهم لمن سبقه ولحقه من الخلفاء برنة صدق حقيقي، مع أنه حَرَم الشعراء مما كانوا قد تعودوا عليه من الصلات. وأجمل قصيدة مرت عليَّ في رثاء عمر قصيدة لنقيب الطالبيين (الشيعة)، قصيدة قالها الرجل الذي كان يَعُدُّ نفسه أحق الناس بالخلافة. إنه الشاعر الشريف الرضي. ورغم أن ثلاثمائة وخمس سنين تفصل بين وفاة الرجلين، فإن في قصيدة الشريف الرضي حرارة ودفقًا من العاطفة. ولا أعني بذلك أن الشريف بالغ في الرثاء، كلا بل تراه يصرِّح من البيت الأول بأنه ليس مستعدًّا لذرف دمعة على أموي ولا حتى على عمر، وهو يقول في البيت الثاني: إن البيت الأموي سيِّئُ الصيت:

يا ابن عبدِ العزيز لو بكتِ العيـ

نُ فتىً من أميةٍ لبكيتُكْ

غير أني أقولُ إنك قد طِبْـ

تَ، وإن لم يَطِبْ ولم يَزْكُ بيتُكْ

أنت نزَّهتنا عن السبِّ والقذ

ف فلو أمكن الجزاءُ جزيتُكْ

ولو ني رأيتُ قبرك لاستحـ

ييتُ مِن أن أُرى وما حيَّيتُكْ

ولو ني ملكتُ دفعًا لِما نا

بَكَ من طارِقِ الردى لفديتُكْ

سأل رجلٌ عمر بن عبد العزيز عن موقفه من صِفِّين وعن القتلى فيها: مَنْ مات على حق ومَنْ مات على باطل؟! فقال عمر: «تلك دماء كفَّ اللهُ يدي

عنها، فلا أحبَّ أن أغمس لساني فيها».

حديث الشطيرة

في الماضي كانوا يقولون: رأيت فلانا يحدِّث، يقصدون بذلك يروي الحديث النبوي. والحديث النبوي إنما سُمِّي كذلك؛ لأن الرواة أكثروا من استخدام كلمة (حدَّثنا فلان عن فلان ...) فأما المصطفى فما كان يحدِّث، بل كان يقول. فالحديث في اللغة روايةُ ما حَدَثَ (أو ما قيل). وفي سرد الإسناد لك أن تقول: «حدَّثنا» ما شئت، فإذا وصلت إلى النبي قلتَ: «قال». وللشَّعبي عبارة جميلة: «الذي يقرأ القرآن إنما يحدِّث عن ربه». وقد ورد في أحاديث حدَّثوا بها أن من قرأ الآية الفلانية رُفِعَ له ثواب أهل الدنيا، وأن من صنع كذا كوفئ بثواب ألف ركعة، وأن من صلى في موضع دون موضع نال من الجزاء سبعة أمثال أو سبعين أو سبعمائة. الحقُّ أنه ما لم يبادر السادة العلماء إلى درس هذا الأمر والإفتاء فيه فإن أمة محمد ستعاني من تضخم في ودائعها السماوية بحساب المشايخ، فأما بحساب الحي الذي لا يموت فثمة لوح محفوظ وميزان دقيق. اللهم ... لا تخفى عليك خافية.

حدَّثني رجل يعمل مراقبًا للعُمَّال في بلدية قال: أحد عمَّالي في رصف الطرق ينتهز فسحة الغداء، وهي نصف ساعة ليصلي الظهر. فيخلع ملابسه المـُزَفَّتة، ويلبس ملابس نظيفة أحضرها من بيته، ثم يشمِّر ويتوضأ ثم يصلي. فإذا فرغ فإنه قد يجد خمس دقائق يقضم فيها نصف شطيرة وقد لا يجد. وقد طلبتُ منه مرة أن يطيل استراحته فيصلي ويتغدى، فشكرني بحياء ورفض. وكررتُ طلبي، وكرر رفضه. فواجهته مرة بعزم أشد، وقلت له: «قد تقول لي: إنك تريد أن تصلي على حسابك لا على حساب البلدية فخذ ...»، ولم أستطع أن أتم حديثي إذ بادرني بالقول: «لا.. أنا لا أعدُّ على الله الصلوات. علاقتي به غير ذلك. العبادة عندي لا تصح إلا إذا جاءت هواية لا احترافًا». فمضيت أتم كلامي: «خذ عشر دقائق زيادة يا أخي!»، فقال: «إذن أصبح موظفًا في منصب شيخ، دوامه عشر دقائق في اليوم. المبدأ واحد، والمبدأ فاسد». ثم قال لي صاحبي مراقب العمال معلقًا على موقف هذا العامل: «انظر بالله عليك إلى هذه الحماقة والكلام الفارغ!»، فتجاهلتُ ملاحظته وقلت: «لم أكن أعتقد أن عاملًا يشتغل في رصف الطرق يكون فصيحًا كل هذه الفصاحة!»، فقال: «اسكت ... اسكت. معه شهادة هندسة مدنية، ولكنهم حبسوه ثم أخرجوه وحرموه من الوظائف ومن مغادرة البلد». حدَّقت في وجه صاحبي هنيهة. صاحبي مراقب العُمَّال هذا ليس معه شهادة، ولكن اسم عائلته يشهد له بالأحقية، وطاعته للسلطان لا تشوبها سوى الشتائم في المجالس الخاصة. وهي شتائم لم يعد السلطان يكترث لها. وقد حج قبل عامين ... وقال: إنه استلم الحجر الأسود. أقول في نفسي: و«الله لو صلَّى ألفًا بحذاء الكعبة، وأستارُها تهفهف على

جبينه، ما نظر الحقَّ إليه نظَرَه إلى صاحب الشطيرة الذي قد يأكلها وقد لا يأكلها».

أقوال غير مأثورة

• كنت قليل الحيلة، ضعيفًا كذبابة على زجاج نافذة. لكنني قلتُ لنفسي بزهو: نيويورك لم تستطع أن تبتلعني. لكنها في واقع الأمر لفظتني وهي تقول: يا شرقي ... يا شرقي.

• كان كلما تخلخل سِنٌّ من أسنانه أو انكسر أو سقطت حشوته، شعر أن عزرائيل يلح عليه في طلب موعد. أسنانه كانت عنوان استمراره في هذا الجانب من الحياتين، وكان رحمه الله يفضله.

• كنت في صغري أتساءل: من الذي يحلق للحلاق رأسه؟ ومن الذي يخلع لطبيب الأسنان ضرسه؟ وما زلت أتساءل.

• مع مضي الزمن تتحول الأشياء إلى آثار. فليطمئن الحريصون على الآثار، فكلما تلفت أو تآكلت، حلت محلها آثار أخرى بشكل طبيعي.

• الكمبيوتر مثل الملك: كلما اقتربت منه تبددت هيبته.

(13) سبتمبر/ أيلول ١٩٩١.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع عشر

القراءة والانكفاء، لحم الابن الملتوت بالحسب والنسب، اليساري الطروب، انتحار آلة التسجيل (14)

لا شيءَ أجمل من أن تدخل في الموضوع بلا مقدمات؛ فالمقدمات أَمارة خيبة. أزعج شيء في المقالات المنوعة في صحف الأحد الإنجليزية أن أصحابها يُعدُّون خطة ينشئون المقالة على هديها. تكون البداية مليئة بالالتواءات والمشاعر الزائفة والكلمات الصعبة -هي صعبة على من إنجليزيته مثل إنجليزيتي، ومصطنعة في رأي أهل اللغة- وبعد فقرات يظن الكاتب أنه أثبت فيها جدارته وثقافته والبسطة التي حباها الله معجمه، يأخذ بسرد المعلومات التي جمعها من الكتب أو من أسفاره سردًا ليس فيه تعمُّل ولا تصنُّع؛ فيكون هذا السرد خير ما في المقالة. ولكن ذلك الكاتب يخسر كثيرًا من القراء على عتبة مقالته؛ لأنهم يهربون من تفاصحه. وإذا سألني سائل: وكيف تقرأ تلك المقالات؟ قلت: أَبدأ في المنتصف، وقد أنكفئ بعد الإتمام، إن أتممت، وقد أكتفي. وقد ندر أن انكفأت فحمدت الانكفاء.

آكلو لحوم البشر

من آداب المائدة ألا تذكر شيئًا يشمئز منه أي من المُؤاكلين. فأما أن تفتح موضوع أَكَلة لحوم البشر على المائدة فمن الجرائم التي لا تغتفر. ولكن عالم الآداب الرحب يتسع لهذه وتلك، ولأفظع منهما. وقبل أن أسوق شيئًا عن لحوم البشر يحضرني شيء عن الروائي الفرنسي غوستاف فلوبير؛ فعندما كان يكتب أشهر رواياته مدام بوفاري كان انفعاله بما يكتب كبيرًا، فكأنه قلَّد جحا في تصديق كذبته، فقد قال جحا للأولاد: «إن في بيت العمدة عرسًا، فذهبوا عنه وتخلَّص من أذاهم. ثم إنه صدَّق كذبته فتبعهم».

وكان فلوبير يصف في الفصل الأخير تناول بطلة الرواية السُّمَّ، ويروي قصة الساعات الأخيرة من عمرها. كانت تقيء باستمرار ... وكان فلوبير يكتب أسطرًا ويذهب إلى المرحاض ... لكي يقيء. ولا أرى بأسًا في أن أقصَّ قصتي مع رواية مدام بوفاري: لم أكد أضع الرواية من يدي حتى انتابني انقباض أخذ بمجامعي، وقد مضت عليَّ بعد ذلك نحو سنة لم أقرأ فيها رواية أخرى؛ خشية معاناة أعراض مشابهة. وإمعانًا في الاستطراد سأروي ما حدث بعد انقضاء هذه السنة. لقد قررت أن أعود إلى قراءة الروايات، ورأيتُ أن أبدأ بالروايات العربية فكان أول ما وقع بين يدي شرق المتوسط لعبد

الرحمن منيف. وهي رواية مشحونة بالألم: فيها سجون وتعذيب واعتقالات سياسية. نظام الحُكم يتكئ بكل ثقله على حياة البطل فيخربها تخريبًا، وتعيش الشخصية عشرات الصفحات مشوهة محترقة من الداخل. لقد حرمتني هذه الرواية من العودة إلى قراءة الروايات شهورًا عديدة، وعندما عدت بدأت أقرأ قصصًا قصيرة وروايات لأديب إنجليزي يقتصد في عرض انفعالات أبطاله، وقد تسكَّعت في رواياته وقصصه طويلًا لأنه كان مريحًا، وأما القيمة الأدبية لكتابته فأمر فيه خلاف بين النقاد. وهو بالمناسبة سومرست موم الذي مات قبل ٢٦ سنة.

العجيب أنني عندما قرأت شيئًا عن لحوم البشر وأكلها لأديب آخر من الجزر البريطانية لم أشعر بأي انقباض. وهذا الأديب هو جوناثان سويفت الأيرلندي الأصل وصاحب رحلات غَليفر في بلاد الأقزام ثم في بلاد العمالقة. كتب سويفت مقالًا في صحيفة إنجليزية يقول فيه: إن من الأجدى على الإنجليز أن يأكلوا لحم الأطفال الأيرلنديين عوضًا عن أكل لحم الخراف، فلماذا لا ينشئ السادة في لندن مزارع في أيرلندا لتربية الأطفال بغرض ذبحهم والانتفاع بلحومهم! كان سويفت يعرض هذا المشروع ببرود، ويحاول إبراز جدواه الاقتصادية، ولكن لم يغِب عن بال أحد أنه إنما يعبِّر عن وجهة نظر سياسية؛ إذ كان يدافع بطريقته عن شعب أيرلندا ويعرض معاناته من الحكم الإنجليزي ومن سيطرة الإقطاعيين الإنجليز.

وقد زعم الرواة أن عمرو بن قعاس، وهو شاعر جاهلي، سكر يومًا فذبح ابنه وشوى لحمه وأكله على خواء، أي على جوع، وقال:

ولحمٍ لم ينَلْه الناس قبلي

أكلتُ على خَواءٍ واشْتَويْتُ

وورد في أساطير العرب القدماء أن جدَّ العرب العدنانية نزل به ضيوف في سنة مجدبة، فلم يجد سوى ابنه فذبحه وقدمه مشويًّا أو مقليًّا بالدهن أو مطبوخًا بالماء، ولم يكتف الرجل بذلك بل قال في المناسبة رجزًا:

نِعمَ إِدامُ الضيفِ والرفيقِ

لحمُ غلامٍ ماجدٍ عريقِ

يُلَتُّ بالأحسابِ لا السَّويقِ

إذن فقد قدم الرجل لضيوفه لحم ابنه غير ملتوت بالسويق، وهو عصيدة كانوا يصنعونها من الدقيق، ولكن ملتوتًا بالحسب والنسب.

الأصل والفصل

• الفذلكة: يقولون هذه الأيام فلان مفذلك أو عنده فذلكة، يقصدون أنه متفاصح متعالم مُباهٍ نفَّاجٌ عريض الدعوى، يزين أشياء يقولها وليس لها أساس كأنه الحادي وليس له بعير. والفذلكة -في الأصل- الخلاصة. وأصل الكلمة أن المحاسبين في القديم كانوا يكتبون بعد إجراء عمليات الجمع والطرح: («فذلك» مائتا درهم ودانقان)، مثلًا. فكانت كلمة «فذلك» تقوم مقام كلمة «يساوي» في حسابنا الحديث. واشتقوا من «فذلك» هذه كلمة «فذلكة» أي نتيجة العملية الحسابية. ثم صاروا يقولون (فذلكة تاريخية) أي خلاصة الأحداث وملخص ما جرى. والمعنى الجديد لكلمة فذلكة لم يستقر بعد، ولم ينتقل من لسان العامة (بل عامة المثقفين) إلى الكُتَّاب. وقد يفعل.

• أحرز قصَب السبْق: أي سبق غيره. وأصل ذلك أنهم كانوا يدقون قصبة في الأرض في نهاية الميدان، ويتسابق الفرسان على صهوات الخيل، فمن انتزعها أولًا كان السابق.

• صِنوُه: أي رصيفه وقرينه وملازمه. والصنوان النخلتان تنبتان من أصل واحد. وقد تكون إحداهما نخلة باسقة والأخرى فسيلة. وكذلك قد يكون صنوُ الرجل العظيم رجلًا لا حظَّ له من العظمة أو الشهرة، هو صنوه مع ذلك، فأما إذا ساواه فهو نظيرُه أو نِدُّه أو ضَريبُه.

انتحارُ مسجّل

كلَّما ألقمه صاحب المطعم شريط الكاسيت أدى الغناء بأمانة. وقد يصفعه بقوة مقفلًا على الشريط بابًا هشًّا لم يعد بعد انقضاء السنة الأولى يحتمل هذا الصفع فانخلع، وبقي المسجل بغير باب ... قبيح الهيئة زري المنظر يشتهي أن يغطي وجهه خجلًا من الزبائن لو يستطيع. وإن صاحب المطعم ليضغط على الأزرار بيد تقطر ماء وسخًا أو زيتًا، فيتسلل شيء من ذلك إلى جوف المسجل، فيجشّ صوته وتضطرب حنجرته. ولكنه يجتهد أن يؤدي الغناء كما هو. وأي غناء! إن المعلم غريب الأطوار فبعد أن يأمر المسجل بأداء شريط لفيروز تراه يلقمه شريطًا يختلط فيه صوت الطبول بصوت الآت موسيقية عامرة بالكهرباء بصوت رجل يجاهد كي يثبت وجوده.

وفي عصر يوم قائظ قرر المسجل الانتحار، فعض على الشريط بأسنانه وأخذ يبلع. بلع أمتارًا كثيرة دون أن يظهر للمعلم وللزبائن أن هناك أي شيء يسير على غير المعتاد، ظل الغناء متواصلًا. وبعد عشرات الأمتار أتخم المسجل واختنق في آن معًا. وصدرت عنه حشرجة، وصار الصوت يروح ويجيء، يعلو ويخفت. أسرع المعلم فضرب على الأزرار جميعا بكفه الغليظة، وحاول إجراء عملية تنفس اصطناعي وغسيل معدة، ولكن ... مات المسجل منتحرًا.

اليساري الطروب

زارني صديق يساري، وهؤلاء قوم فيهم طيبة وعناد -وصار فيهم انكسار بعد ميخائيل غورباتشوف- وما إن استقر به مجلسه حتى سألته ماذا تسمع؟ وإني لأسال الضيف عن القِرَى الذي يريده لأذنيه قبل أن أسأله أي شيء يريد أن يشرب. قال: أليس عندك شيء من الغناء الملتزم! عرفت بالطبع أنه يريد شيئًا للشيخ إمام أو لمرسيل خليفة. ولكنني أطرفته -بين مازح وجاد- بشريط لأحمد عدوية، فما كاد يسمع «يا ليل يا باشا ... يا ليل» حتى انتفض كما انتفض العصفور بلَّله القطر، وظن أنني أسخر منه. فطيبت خاطره، وذكرته أن قومه اليساريين كانوا أول من قدَّم تحليلًا معقولًا لظاهرة أحمد عدوية، فطاب نفسًا ونعِم بالًا، وقعد وناقش طويلًا. ليته ظل غاضبًا! كل شيء في اليساريين محتمل إلا حبهم المفرط للكلام والمناقشة.

يا ليل يا باشا

بحثتُ طويلًا عن شيء يشين أحمد عدوية، شيء يجعل صوته محرمًا على الأثير. فلم أجد. لعله لا يستوفي الشروط العتيقة للمطرب الإذاعي! فصوته أجش، لا يُدِلُّ بطلاوة ولا بسعة مقام. صوته صوت ابن الشارع وأداؤه مباشر. لا أدري إن كان يتقن أو لا يتقن ترجيع صوته على الطريقة التركية، ولكنني أدري أن عدم إقدامه على ذلك يُحسَب في حسناته. إنه يصرخ بالغناء، ولعمري إن ذلك لمما يقرِّبه إلى النفوس ... النفوس التي سئمت من الهامسين في أذن الميكروفون. ومعانيه بسيطة لا تخلو من فجاجة. وهذا يليق بمشاعر ابن الشارع وابن الصالون. والنغم بسيط، وليس فيه تلك التركيبات اللحنية المعقدة التي تبدو للوهلة الأولى مليئة بالتعبير، فتسمعها للمرة الثانية والعاشرة وتكتشف أن الثمرة قشرة كلها، وأنه ليس تحت السطح إلا السطح: إنني أتحدث عن مقدمات محمد الموجي وبليغ حمدي لأغاني عبد الحليم حافظ الأخيرة: فخامة في العزف وتقليب أوركسترالي لنغم معين، ولكن دون إضافة بُعدٍ جديد. عدوية في المقابل يردد «يا ليل يا باشا.. يا ليل» مائة مرة ولا يغيِّر في النغم تغييرًا يُذكر، ولكنه يصرخ بها كل مرة بشعور مختلف.

وأما عن المدارك الجنسية في غناء الرجل فإنها ليست مما ينفر على الشريط، فأما إذا هززت كتفيك وقطعت تذكرة ودخلت إلى السينما لمشاهدة فيلم لأحمد عدوية، فإنني أنصحك ألا تحدق فيه وهو يمسك الميكروفون ويفحُّ فيه مُلَعِّبًا رموشه، محركًا خصره، هازًّا كتفيه. وإذا كان لا بُدَّ من تحديق فليكن ذلك عندما يأخذ المطرب يحوم حول الراقصة ناظرًا شزرًا إلى جوانب معينة من «مقدراتها» الفنية، التي اصطلح على تسميتها بالمقررات. ولعلك حينئذ لا

تنظر إليه، بل تنظر إلى حيث ينظر. وإذا كان لي أن أضع رأيي في عبارة بعيدة عن المواربة فإنني أصرح بأنني أسمع عدوية.

إن هي إلا تفاعيل

إذا دفعوا للسكوت سكتُّ، وإن دفعوا للكلام نطقتُ

لقد جعلتني عيون صغاريٍ إذا ما مررنا بفاكهة سعَّروها وأغلَوْا دفعتُ

لقد جعلتني عيون صغاريَ فاكهة عُرِضتْ للعيونْ

يسعّرها كيفما يشتهي المشترونْ

ويفحصها بالبنان الزبونْ

عيون صغاريٍ استرقَّت يراعي فصرتُ

غلامًا بقصر الأمير يغطي على موبقات الأمير، يعيش على درهمين، على تمرتين ويكتب بالقلمين، ورحتُ

إذا نخلة من نخيل الجزيرة مالت بها الريح مِلتُ

بلى

عندما غنت أم كلثوم قصيدة أبي فراس غلطت في اللغة عن سابق تعمد وإصرار. قال أبو فراس:

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر

أما للهوى نهيٌ عليك ولا أمرُ؟

بلى، أنا مشتاق وعندي لوعة

ولكن مثلي لا يذاع له سرُّ

وقالت أم كلثوم ما قال، ولكنها غيرت كلمة «بلى» وجعلت مكانها «نعم». وهذه الكلمة الثانية أنعم وأحلى، ولكن السياق يريد «بلى». الشاعر يسأل بأسلوب النفي: «أما للهوى أمر؟» فإذا كان الجواب نعم، فنحن في حيرة: هل يعني ذلك نعم «ليس» للهوى أمر، أم نعم للهوى أمر ... وقد استخدمت العربُ بلى لإلغاء النفي في السؤال. مثال: ألم تقرأ الجريدة؟ بلى (= لقد قرأتُها)، أو نعم (= لم أقرأها). والناس في عدد من البلاد العربية يقولون: «امبلى» ويستعملونها بنفس شروط بلى، ولا يمكن أن يقولوا: «امبلى» إلا في جواب سؤال صيغ بالنفي.

(14) أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٩١.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس عشر

بين الخُشكُنان والبقسماط والبشماط و«الكورن فليكس»

والمعلم القصير العمر والحمار الخزابية (15)

الكاتب الذي يتبسَّط مع قارئه على أنه خِلْص من خُلصائه، قد يؤول إلى ابتذال الديباجة، وخُلوقة أديم الوجه، وقد لا يؤول. غير أنه لن يجدي عليه شيئًا أن يضرب بينه وبين القارئ ستارًا صفيقًا من اللغة المصطنعة كيما يكون شيء يعادل ذلك التبسط في المحمل المقابل. وكأيِّن من كاتب ظن أنه إن وضع القاموس على يمينه والمنفلوطي على شماله كتب مثل الجاحظ ... هيهات. كلما نضب معين الكاتب ازدادت كلماته غرابة. اللهم أصلح أحوالنا، وافتح علينا.

الخشكنان

محمد إسعاف النشاشيبي أديب فلسطيني مغمور عربيًّا، عاش في النصف الأول من هذا القرن، وكانت له صداقات مع كبار أدباء مصر ولا سيما أحمد شوقي. وكان متمسكًا بالقديم القديم، يحاول ألا يفوه بالكلمة إلا إذا كانت واقعة أحسن موقع في سياق فصيح، ولا يهم أن تكون قديمة أم جديدة، حية أم ميتة، مفهومة أم مبهمة. دُعي يومًا إلى مؤتمر في القاهرة، فأتى فندقه عِشاءً ونام ليلته، حتى إذا أصبح نزل إلى مطعم الفندق وطلب من النادل طعام الإفطار قائلًا: إيتني بقدح من اللبن وبخُشكنانة، ففهم النادل ماذا يكون القدح، وفهم ما هو اللبن. (لو كان إسعاف في دمشق لوقع في حيص بيص؛ فاللبن عند الشوام هو اللبن الرائب الخاثر الذي يستدعي الملعقة. وأما المصريون فلبنهم لبن العرب القدماء، وهو ما يسمى في الشام الحليب). ولكن النادل وقف عند كلمة «ائتني» وقال في نفسه: لعلها تعني لا أريد أو لعلها كلمة أجنبية. انطلق النادل، وبعث إلى إسعاف كاتبَ الفندق، وكان أفنديًّا يحسن شيئًا من رطانة الأعاجم. فهم الأفندي «ائتني»، ولكن الخشكنانة وقفت في قناته السمعية، فسأل النزيل الكريم بأدب جمٍّ عن معناها، ولكن إسعافًا حرن، وآلى على نفسه لا يَضَعنَّ في مكان هذه الكلمة كلمة أدنى منها في سلم الفصاحة، وكان رحمه الله يحمله بالعَرض. فكانت أزمة تجاوبت أصداؤها في ردهات الفندق.

ولم تمض دقائق حتى كان طه حسين يسأل على الهاتف عن إسعاف، فاعتذر الكاتب بأنه لا يجد هذا الاسم في سجل الفندق، وقبل أن يضع طه حسين

السماعة خطر لكاتب الفندق أن ينتهز الفرصة فسأل عميد الأدب عن الخشكنانة معتذرًا لسؤاله بأن أحد الزبائن طلب خشكنانة لإفطاره. فقال طه حسين: اذهب وأحضر صاحب الخشكنانة إلى التلفون، ولا تنس أن تسجل اسمه في دفترك. لقد عرف طه حسين أن العالمين العربي والإسلامي ليس فيهما رجل يطلب من نادل خشكنانة إلا محمد إسعاف النشاشيبي.

والخشكنان هو البقسماط أو القزماط أو البشماط، وهذه الألفاظ الأربع أعجمية كلها، (أضف إليها إن شئت الخشكنانجة، بإضافة حرف الجيم) لكنها مما عُرِّب قديمًا. والخشكنانة كعكة أو خبزة قاسية محلاة تشبه البسكويت. وكان يطيب لأهل الشرق أن يغمسوا الخشكنان في الحليب (وهو اللبن الذي لم يعبث به بنو آدم بترويب أو مخض) أو في الشاي، هذا قبل أن يخترع «السادة» في الغرب الكورن فليكس، وهو قُشارة تصنع بهرس حبوب الحنطة ويأكلونها مع الحليب والسكر.

والآن صار المشارقة يستوردون «الكورن فليكس» في عبواته الضخمة، (فهو خفيف الوزن) بأثمان ثقيلة، ويطعمونه أولادهم عسى أن يصيروا مثل الأمريكان طولًا وعرضًا وبياضًا وشقرة. عساهم يصيرون أسيادًا دون أن يتكفلوا مؤنة التعلم واكتساب التكنولوجيا.

إتيكيت العرب

إذا قدم المَنسف تحلق الضيوف حوله. والمَنسف أكلة أردنية: دست مدور يفرش عليه خبز رقيق، ثم يكوم عليه الأرز، ويجلل باللحم المطبوخ باللبن، ويُصَبُّ على اللحم والأرز قَدر من ذلك اللبن، وتسكب بقيته في آنية توضع على المائدة. ويؤكل المنسف باليد، ومن آدابه ألا تمس الأصابع الفم، بل تقذف اللقمة قذفًا. حتى يعيد الآكل يده إلى الدست دون أن يكون علق بها شيء من لعابه.

وإذا كان المنسف قد أعد على شرف رجل معين، فعلى هذا الرجل ألا يكفَّ عن الطعام إلا بعد أن يشبع الجميع. فإنه إذا رفع يده وجب على جميع الضيوف أن يرفعوا أيديهم. وقد يشبع ضيف الشرف سريعًا، فعندئذ يضع يده على طرف الدست دون أن يأكل، ولا يرفعها إلا بعد أن يشبع الجميع.

وكان البدو يضعون رأس الذبيحة على قمة الهرم المنسفي، فإذا رأى الضيف أن المنسف لا يليق بمقامه فما عليه إلا أن يمد يده إلى عين الذبيحة، فعندئذ يقوم المضيف إلى أغنامه ليذبح نعجة أخرى … وقد يقوم إلى ضيفه بالعصا، إن اعتبر فعلته إهانة. وكان من بعض آداب المنسف أن يكون البادئ بالأكل

الآدِب -أي صاحب المأدبة- فيجمع لنفسه قبضة من وجه المنسف يجعلها لقمة يزدردها، حتى يظهر لضيوفه أن الطعام غير مسموم.

إن هي إلا أسطر

دثِّرنني، نساءَ لندن، بالشعر الأشقر، بالعطر الغريب، بالأكف البيض، حمّمنني بالرغوة، أسبِغن عليَّ بياضًا. كاد، في ميدان ليستر، يقتلني بياضكن. كادت تقتلني الرغبة.

سواسية وأخواتها

هناك كلمات في لغتنا تدل على مذاهب أو عقائد أو نزعات؛ مثل: كلمة قومية وانتهازية، وردت مشدَّدة الياء. ويُسمِّي العارفون بالصرف هذه الأشياء مصادر صناعية، ولكن هناك كلمات مشابهة، تؤدي في الغالب معنى المصدر ولكنها من باب آخر فهي غير مشددة الياء. خذ رفاهية مثلا، وكراهية وطواعية وصلاحية وسواسية. هذه كلها كلمات غير مشددة الياء. وهناك أيضًا طماعية، وهناك كلمات على هذا الوزن ليس بينها وبين المصدرية نَسَبٌ. منها رجل عباقية أي داهية، وحمار خزابية أي غليظ عنيد.

ولو قال أحدهم: أريد أن أقول رفاهيَّة بتشديد الياء، لقلنا له: إنك بذلك تطمس دقائق اللغة، وجمالُ اللغة في دقائقها. وفي تلك اللطيفة من لطائف اللغة التي يحسنها قوم ولا يحسنها قوم، يقع كثير من الجدل. لعل صاحبك يرد قائلًا: «لقد مات الحمار الخزابية، ومات صاحبه العباقية، وماتت كل أولئك المفردات، ولم يبق لنا منها سوى ثلاث أو أربع، فلماذا نفرد لها بابًا خاصًّا يزيد همومنا ويشتت انتباهنا، ألا نُلحِق هذه الكلمات بأشباهها المشددة الياء ونستريح؟» نقول: لنجعل هذه الكلمات القليلة من الشواذ ولنبقها على حالها، فكل علماء اللغة لا يستطيعون أن يشدِّدوا الياء في سواسية؛ لأنها وردت في رواية حديث نبوي تغلغل عميقًا في وجداننا اللغوي «الناس سواسية كأسنان المشط»، ورويت بغير شدَّة.

المعلّم

كنت معلم صبيان، وقد شُفيت، على أنه يعتريني بين الحين والحين شيءٌ من أعراض تلك العلة، فتراني أبسط القول في مسألة، ثم أكر عليها كرة أخرى أعيد شرحها بكلمات جديدة، ثم آخذ في سرد الأمثلة.

فاعرفني حق المعرفة! ولا يغرنك حديثٌ أسوقه سوقَ الأكاديميين حُججَهم، فإنني ما أكاد أفعل حتى أنكفئ إلى لوازم المربين فأروح أسرد على

مسامعك أن ولد الحمار يقال له: الجحش، وولد الخنزير: الخنوص، وأن الحيدرة هو الغضنفر، والغضنفر هو الأسد.

والمعلِّم -وقاك الله- أحد رجلين: رجل خلقه الله معلِّمًا، ورجل اضطرته اللقمة إلى المهنة. ولعلك أدركت من أي الصنفين محدِّثك.

قصير العمر

يشرع المعلم في قراءة الكتاب الدسم المتعمق، فلا يلبث أن يضيق تنفسه ويفقد صبره. إنه يريد المعلومات فقط، وحبذا لو عُرضت في نقاط تحمل أرقامًا: واحد، اثنان، ثلاثة. لا يطيق المعلِّم علمًا تتداخل فيه الأشياء. هو رسول لا يقرأ إلا لينقل إلى تلاميذه. وإن رأى فيه أحمد شوقي شبه رسول من نوع آخر.

رد الشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان على إغراق شوقي في المجاملة في قصيدته المشهورة بقوله من قصيدة على نفس الوزن والروي:

لو جرب التعليمَ شوقي ساعة

لقضى الحياة شقاوة وخمولا

كم ذا أصحِّح غلطة نحْوية

مثلًا، وأَتخذ «الكتاب» دليلا

فأرى ابن كلب بعد ذلك كلِّه

رفع المضاف إليه والمفعولا

لا تعجبوا إن صِحْتُ يومًا صيحة

ووقعت ما بين «البنوك» قتيلا

يا من يريد الإِنتحار وجدتَه

إن المعلّم لا يعيش طويلا

وقد درَّست هذه القصيدة لتلاميذي، فأحبوها أكثر من قصيدة شوقي. ودرستُ لهم أيضًا -من دفتر الممنوعات- قصيدة للزهاوي استطرفوا بعض كلماتها إلى درجة مزعجة.

قصيدة الزهاوي

كتب الزهاوي قصيدة من ٤٣٥ بيتا سماها «ثورة في الجحيم» بدأها بالبيت:

بعد أن متُّ واحتواني الحفيرُ

جاءني يبلو منكرٌ ونكيرُ

ويروي فيها قصة تفيض اجتراءً، فبعد عذاب القبر رماه الله في قعر جهنم، ولا تجده يرى غضاضة في ذلك، ثم إنه رأى إخوانه من أهل السعير خيرة المبدعين: فهذا الفرزدق يتلوى، وذاك عمر الخيام يغني، وذاك سقراط يخطب في حطب جهنم. ثم إنه برز من القوم حكيم قاد ثورة عارمة كللت بالنجاح، فانتقل المبدعون إلى الجنة وطردوا من بها ممن لا يستحقها في رأي جميل صدقي.

هذا ملخص مهذب لتلك الملحمة المشحونة اجتراءً. وقد ثار عامة بغداد ثورة عارمة على الزهاوي وحاصروا منزله وكادوا يفتكون به. وكأن الزهاوي لم يعتبر، فنشر بعد مدة قصيدة أخرى عارمة عامرة بالتحدي، قال فيها:

افتحوا للفتى الهضيمِ الطريقا

فلقد جاء يزبئرُّ حنيقا

رافعًا راية التمرد تهفو

حاملًا من يراعه منجنيقا

قل لمن أحفظته زندقة ليِ:

سيدي، أنت لا تكن زنديقا

يعني بـ يزبئر: ينتفش متأهبًا. وقد درَّست لتلاميذي جزءًا من هذه القصيدة، وشرحتُ كلماتها الصعبة ولكنهم ظلوا يرددون كلمة من كلماتها وهم يتهامسون.

فروق

• سوء التفاهم وسوء الفهم: إذا حدَّثك أحدهم عن سيارته وظننت أنه يتحدَّث عن زوجته فرحت تسأله: كم طفلا أنجبتما، وهل تغسل هي الأطباق أم تلك مهمتك؟ وراح صاحبك يضحك ويجيبك إجابات ساخرة، فهذا هو سوء التفاهم. أما إذا قيل لك إن الطائرة تقلع في الساعة الثالثة عشرة وتوجهت إلى المطار في الساعة الثالثة مخطئًا الحساب، فليس لك أن تقول: إن هذا سوء تفاهم، إنه سوء فهم من جانبك.

• المنضدة هي الطاولة التي تكتب عليها، والخوان هو الطاولة التي تأكل عليها، فإذا وضع الطعام على الخوان صار الخوان مائدة، وعلى هذا يجدر بنا

ألا نسمِّي المؤتمر الذي تحضره جهات متكافئة التمثيل «مؤتمر المائدة المستديرة»، اللهم إلا إذا كان مؤتمرًا للطباخين.

• الشمسية تقيك حر الشمس، فإن استخدمتها في المطر قيل لك: إنها مظلة. وكأنك تريد أن تنتفع بظلها! لم أسمع أحدًا يسميها مطرية، ولا أجرؤ على أن أسميها كذلك. ولكنها تبدو الكلمة المنطقية.

(15) نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٩١.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس عشر
مواهب الإنجليز العجيبة، والاقتتال عند النوافذ، والأدب الخالد (16)

كان بعض أدبائنا في النصف الأول من هذا القرن يحشرون في قصصهم الكلمات المنقرضة، ثم يشرحونها في الهامش، وكان أحرى أن يستعملوا كلمة الهامش المعروفة بدل الكلمة الصعبة، ولكنهم نصبوا أنفسهم معلِّمين يريدون تحفيظ الناس اللغة القديمة ... أرادوا أن يعيدوا الحياة إلى ألفاظ جميلة أحبوها وتعلقوا بها عندما قرأوها في كتب القدماء. وتراني أفعل فعلهم كثيرًا. أرى لتلك الكلمات العتيقة مذاقًا، وأرى بعضها يقوم بعبء معنى دقيق لا أجد كلمة حديثة تقوم به. غير أنني لا أشك غمضة عين في أن العبث بالمفردات، وحتى مجرد الوعي بها في سياق الكتابة لا يكون إلا على حساب المعنى. ولكن، لم لا! مَن قال: إن المعنى كل شيء؟

حرب المكاتب

نعرف من أنواع الحروب الحرب الأهلية وحرب الشوارع والمتاريس والخنادق.. وكلها حروب يُراق فيها الدم. وهناك الحرب النفسية التي تُراق فيها الأعصاب، والحرب الإعلامية التي تُراق فيها المبادئ. فأما حرب المكاتب فتعبير جديد أحب أن نحتفل في هذه السطور بتدشينه.

شهدتُ عددًا من حروب المكاتب، أُصبت في بعضها بجراح طفيفة، ووقفتُ في معظمها موقف سويسرا من الحربين العالميتين، الكونيتين، العظميين، الكبريين. وحرب المكاتب هي في الواقع حرب مناضد. والمنضدة هي ذلك الحصن الذي يتمترس خلفه الموظف في دائرة حكومية أو جريدة أو إذاعة.

شهدتُ حرب مكاتب في جريدة عندما قرر المدير أن ينقل عدنان من الأرشيف إلى المسلخ، وهكذا كنا نسمي حجرتنا لأن بها كل شيء عدا ما يتعلق بالصفحة الأولى. فعدنان خير من يحرر زاوية الرياضة، ولم يكن للرياضة في صفحات جريدتنا في ذلك الزمان الغابر سوى زاوية ... وعدنان مدعوم تنظيميًّا وسياسيًّا. تورَّمت قلوب حسدًا، وتلظَّت أكباد غيظًا، وسعى الذين لا يعرفون الخبايا يوغرون الصدور على عدنان، وتربص العارفون الخبايا به الدوائر، غير أن هؤلاء وهؤلاء شربوا الشاي بالنعناع احتفالًا بترقيته، وهنأوه جميعًا، وأسروا إليه بإغماض جَرْس وخُفوت صوت بأن هذه النقلة كان يجب أن تتم قبل زمن طويل، ولكن الإدارة مصابة بالعمى، فالحمد لله على كل حال أنها عرفت الصالح من الطالح بأخَرة.

لكن، أين يقعد عدنان؟ قد وضعت حرب الترقية أوزارها، وشمَّرت حرب المكاتب عن ساقها. وراح كل واحد ينقل منضدته من مكان إلى مكان، وأشعلوها نارًا. جيء بمناضد من المخزن، ونقلت مناضد إلى المخزن. وصار المسلخ مسلخًا. الذي وضع منضدته قرب باب مكتب رئيس التحرير اتهم بالتزلف، وكان متزلفًا حقًّا، والذي نقل منضدته لتكون النافذة الكبرى على يمينه اتهم بأنه يريد أن يغذي نظره على الحسان اللائي يترددن على محلات ذلك الشارع، ولا أثبت التهمة ولا أنفيها لئلا أكون الخصم والحكم، فأنا كنت صاحب النافذة.

وقد علا في خضم هذه الحرب نقيع معركة هائلة عرفت فيما بعد باسم «ذات المفاتيح» قياسًا على معركة «ذات الصواري». أخذ بعضُهم ينقل الأدراج المتحركة ويجعل صندوق هذا لمنضدة ذاك، وأخذ آخرون -ولعلهم ليسوا آخرين، بل هم نفس البعض المذكورين- يكسرون أعواد الثقاب في أقفال الأدراج، واختفت المفاتيح التي كان أصحابها تركوها مدلاة من أقفالها لفرط شعورهم بالأمان في وقت السلم. وانجلى غبار هذه الحرب عن عداوات جديدة وأحلاف جديدة.

وأقول: إنني لم أختر النافذة للغرض الذي اتهموني به، ولكنهم، باتهامهم الباطل، جعلوني أفكر جادًّا في مراقبة الحسان. وأستذكر الآن، بعد مرور كل تلك السنوات أنني قضيت أشهرًا جميلة جارًا للنافذة في تلك الجريدة. وكانت أشهر خير وبركة استجليت فيها ما أودع الله بعض مخلوقاته من رشاقة قدود، ومنذ ذلك الوقت وأنا أفكر في تلك المقاسات التي يجعلونها للصدور والخصور. وقد توافق مقاسات هذه مقاسات تلك، ولكن الله جعل كل جسم من الأجسام فريدًا، ونصب سبحانه من بعض القدود أصنام فتنة يمتحن بها عباده، ولا سيما أصحاب النوافذ.

كانت تلك آخر حرب مكاتب أشهدها مقاتلًا، وأما ما تلاها فقد وقفتُ فيه موقف قوات حفظ السلام التي تتفرج على القتال إلى أن ينتهي ثم تعلن أنها نجحت في مهمتها. وعلامِ أخوض حرب مكاتب أخرى! لقد صرت أشترط على كل دائرة أعمل بها شرطًا يعفيني من الكفاح: مكتبي عند النافذة.

موهبة إنجليزية

للإنجليز موهبة في التندر بأنفسهم، ولشعوب العالم الأخرى رغبة جامحة في السخرية من الإنجليز. فنحن المقهورين لم ننس كرومر ولا بلفور ولا الاحتلال ولا إلغاء الانتداب بشكل مفاجئ في ظروف غامضة كي يأتي الموعودون ليأخذوا أرض غيرهم. على أنني لا أحمِّل الأحفاد أوزار أجدادهم، وأفضل أن أتندر بالإنجليزي تندرًا بريئًا.

ترى الإنجليزي في المصعد فتبادره بالسلام فيرد، ثم تمضي ثوان يموت فيها الكلام، ويتأخر وصول المصعد إلى الدور الرابع. وفي موت الكلام وحشة، فيقول لك صاحبك: قد جاء الشتاء فعلًا! وتنظر إلى ملابسك وملابسه فتراها أثقل من ذنوبك وذنوبه، وقد ترى الماء يقطر منها. فتعجب لهذه النظرية الجديدة: قد أتى الشتاء حقًّا! وتخرجان من المصعد فتريان في الردهة من خلال النافذة الكبيرة أشباح بنايات تتلفع بكسوة من الضباب. وتفكر: حقًّا لقد أتى الشتاء!

بريطانيا العظمى

لم تُسَمَّ كذلك افتخارًا ولا اعتزازًا، وإلا لما كان هتلر في خطبه أيام الحرب يسميها «غروس بريتانيِن». العظمى لأنها أكبر جزيرة في الأرخبيل البريطاني … لا غير. وفي هذه الجزيرة إنجلترا وويلز واسكتلندا. وهذه الأخيرة لها مصرفها المركزي، ولها عملتها (المرتبطة بالإسترليني) ونظامها القضائي المستقل. وفي الجزيرة الأيرلندية قطعة تابعة لبريطانيا هي أيرلندة الشمالية. ومجموع هذه البلدان يسمى المملكة المتحدة. وثمة جزر هنا وهناك لها ارتباط معقد ببريطانيا. بريطانيا العظمى مصطلح جغرافي محض، مثله مثل «القاهرة الكبرى» الذي لا يُقْصَد منه تمجيد القاهرة، بل الإشارة إلى أنها القاهرة التي تضم الضواحي البعيدة.

الأدب الخالد

منذ البعثة وحتى أيامنا عاش ومات آلاف الملايين من العرب والمسلمين، وكان كل واحد منهم يقرأ الآية (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) [الكهف: ٤٦] في صباه فيظن أنه تدبرها فهمًا، فيكبر فيفهمها أكثر، فينجب فيحس بمعناها، فيكسب مالًا أو يخسر مالًا ويتعمق المعنى في نفسه. هذا بيان خالد. في هذه الكلمات الخمس غابة من المعاني.

ومن بلاغة البشر نقرأ بيت المتنبي:

ومن نَكَد الدنيا على الحُرِّ أن يرى

عدوًّا له ما من صداقته بدُّ

هذا البيت يكبر معناه معنا، يكبر مع كل عدو نصادفه ونرى أننا لا نستطيع أن نجابهه. لكنَّ بعض الأبيات لا تستمد روعتها من المعنى، بل من رنين القافية، ومن ارتباط عاطفي. قد يحفظ الطفل قصيدة سخيفة في معناها ومبناها، وتعيش في ذاكرته وتكتسب مع الزمن حلاوة؛ لأنه قد علَّب فيها قطعة من

طفولته. وهذا مثال لقافية غريبة تضفي على الأبيات سحرًا معينًا، ربما لغرابتها ليس إلا، يقول ابن الفارض:

سائقَ الأظعانِ يطوي البيدَ طيّ

منعِمًا عرِّجْ على كُثبان طيّ

تذكرني هذه القافية بالدرويش الذي كان يمر من أمام المقهى فيعنُّ على باله أن يقف على حين غرة ويصرخ (حيّ)، ويقف على الياء وقفة عظيمة يحبس عليها نفسًا طويلًا، ثم ينطلق غير سائل شيئًا. وإنه لينتفض إذ يقولها، يتسمر في مكانه بلا حراك، حتى ليخيل إليك أنه فاجأ نفسه.

وقد تستمد القصيدةُ روحها من وزنها. في البحور بحر يقال له مُخَلَّع البسيط، له على أذني وقع عجيب. عليه بيت ابن الرومي:

وجهُك يا عمروُ فيه طولُ

وفي وجوه الكلاب طولُ

وليس في هذا البيت معنى شريف، ولا لفظ شريف. هو مسبة لا أرى حتى العوام يقبلونها؛ لقلة ما فيها من الابتكار والصنعة. والقافية مطروقة. ولكن لمخلع البسيط -في أذني- رنينًا محببًا.

أقوال غير مأثورة

• إنما يأخذ الرجل في استجلاء محاسن النساء فعلًا بعد الزواج، ولسان حاله يقول: هذه فاتنتي، وأين تلك من زوجتي ... قد تسرَّعت!

• لا أحد يعدُّ التراب أثمن من الذهب إلا الحمقى والفلسطينيين.

• لا يبيع المرءُ وطنه بالذهب ولا بالألماس ... يبيعه بالخبز.

• الشعر الحديث عجل مقدس عند أنصاره، وضلال مُبِينٌ عند خصومه. لكنه بالتأكيد حالة تبذير في الورق.

• إذا لم تكن متأكدًا من معنى كلمة صفيق فهذا شرحها: الصفيق هو الذي يقول: إنه يكتب لنفسه لا للناس، ثم تراه أحرص ما يكون على نشر ما كتب.

• يرى الثور ضرع البقرة منتفخًا رجراجًا، ولكنه يمضي في رعي العشب غير مكترث.

• أغلب ظني أن الملكة إليزابيث هي أيضًا تغمس بسكوتتها في الشاي عندما تكون وحدها.

(16) نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٩١.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع عشر

مصر التي تغسل شعرها على الترعة، لسان الإنجليز، معاجم العرب، سريالية العناوين (17)

اللهجة المصرية -رضي المشارقة والمغاربة أم أبوا- هي الفصحى الثانية التي يفهمها من يفهم ومن لا يفهم الفصحى الأولى. سافرت إلى المغرب مرتين، وكنت فيهما أجرِّب الفصحى، فيفهمني قوم وينكر «رطانتي» قوم، وكنت أمصِّر عبارتي أحيانًا، فيفهمني الجميع. مصر في الوسط، في موضع الجوهرة الكبرى من القلادة، جغرافيًّا وخلافَ ذلك. وقد كانت أمَّنا ثقافيًّا وحضاريًّا (وموسيقيًّا وسينمائيًّا)، ولكننا صرنا نراها جدتنا الآن بعد موت الرواد، وبعد أن أسرف ممثِّلو المسلسلات علينا وعلى أنفسهم، وبعد أن صار الفن التمثيلي يُباع بالساعة. فرحت لفوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل لعشرين سببًا؛ منها أنه يستحقها بالمقاييس العالمية، والتسعة عشر سببًا الأخرى غير مهمة في الواقع. ولا أدري ما الذي جرني إلى موضوع نجيب محفوظ، وإلى إطلاق هذه العبارة البليدة. فكأن الرجل ظل ينتظرني سنة كاملة بعد أن نال الجائزة لكي أصدِّق على منحه إياها. أو كأنني أريد الإعراب عن أنني لا أحسده، وقبل أن يجرني النزق إلى مزلق آخر من هذه المزالق أتحول من لباب الأدب إلى قشوره. والقشور هي عناوين الروايات والدواوين.

عناوين

المؤلفون الكبار يضعون الكتاب ثم يتحيَّرون في العنوان، والصغار يؤلفون العنوان بعناية ثم يتحيرون في مادة الكتاب، ولي صديق انتهى حتى الآن من وضع سبعة عناوين ممتازة من بينها: «سؤال يقلِّم أظفاره»، وهو يفكر في إلحاق هذا العنوان بديوان شعر عندما يتعلم قليلًا من العروض والتفاعيل وما إلى ذلك من القشور، وشيئًا من النحو والفاعل والمفعول وهذه الأمور الهامشية. ونبدأ بمصر، ويظهر لي أنني لن أفلتها أو أفلت منها في شطحات هذا الشهر. المصريون واقعيون كما أن النيل واقعي. راسخون في التراب كما الأهرامات، والرمزية في الأدب المصري رمزية «عِشَريَّة» تتحول سريعًا إلى رومانسية جميلة أو غير جميلة. ومن أجمل ما سمعت من أمثلة على ذلك أغنية غناها الراحل عبد الحليم حافظ بعد هزيمة ١٩٦٧ من ألحان بليغ حمدي، وكلمات عبد الرحمن الأبنودي يقول: «وبلدنا ع الترعة بتغسل شعرها»، وكلامًا من هذا القبيل. الأغنية تتفجر عواطف وأحاسيس، اللحن فوق الوصف. الكلمات جميلة وفيها هذه الرمزية المفضوحة. ولكن هذه القطعة الفنية

البديعة ذهبت بين الأرجل. هذه الأغنية سياسية لمناسبتها وحزينة جدًّا؛ ولهذا حكمت عليها أجهزة الإعلام بالموت.

كنا نتحدث عن عناوين الكتب، فيما أذكر. عناوين نجيب محفوظ محايدة، كأنما قصد بها ألا تطغى على الجوهر، إنها لا تلفت النظر. عناوين يوسف السباعي وإحسان عبد القدوس متعوب عليها؛ إني راحلة هذا عنوان أُنفق فيه جهد، وعلى غراره نجد مجموعة من العناوين التي هي في الأساس جمل مفيدة: لا تطفئ الشمس، وفي بيتنا رجل، ولا أنام، وشيء في صدري. هذه عناوين حلوة، حلاوتها في بساطتها، أما أنف وثلاث عيون فهو محاولة غير ناجحة لرسم صورة سريالية. والعنوان بعيد عن الأصالة، إنه مستوحى بصورة مباشرة من لوحات بيكاسو الذي آلى على نفسه أن يغلط في عدد الأنوف والأعين في وجوه نسائه، فتراه يجعل لهن عينًا واحدة وأنفين أو أنفًا وثلاث عيون. السريالية هي من اختصاص الآخرين: المغاربة والمشارقة، وليس للمصريين فيها قَدم.

عناوين سريالية

بين يدي عدد من الدواوين والروايات أحب أن أشرك القراء في التمعن في عناوينها: الصهيل المعلب يا سلام! قصائد من خشب ... معقول، ليس مغرقًا في السريالية. دهاليزي والصيف ذو الوطء. يمشي مخفورًا بالوعول. غبار يتعرى في العتمة. لا شك أن هذا العنوان الأخير قد مسح كل ما سبقه مسحًا، وفاز بجائزة الأكثر سريالية وإغرابًا.

لا أقول ما أقول مدحًا ولا قدحًا بل استطرافًا واندهاشًا. أحب العنوان، ومن شدة حبي له أبقي الكتاب مفتوحًا على صفحة العنوان، أو مغلقًا عليها تحريا للدقة. أصبحت على يقين من أن الذي يتعب في اختراع عنوان كتابه سيتعبني إن حاولت أن أقرأ الكتاب.

قلت لأحد الشعراء يومًا: يا أخي اذهب إلى العفاريت، أنت تحاول أن تدهشني في كل سطر وفي المقدمة وفي الإهداء وحتى في الفهرس، وكلما أبيْتُ الاندهاش صفعتني بكلمات غريبة ليست في قاموسي؛ إما لأنها من ميت اللغة وإما لأنها من أسماء آلهة الإغريق المغمورين. سئمت تكلف التأدُّب معك، لا تهدني دواوينك. قال لي هذا الشاعر: «شعر الحداثة ليس لك». ربما أصاب. لا أفخر بجهلي ولا تأخذني العزة بالإثم، ولكن شعر السرياليين لم يسُغ في حلقي وإن ساغت عناوينهم.

عناوين القدماء

التقليعة تعيش سنة أو سنتين أو عشرًا. وأما إذا توقف الزمن في حياة شعب من الشعوب، مثلنا، فقد تعيش التقليعة ألف سنة. نشأت عند أجدادنا تقليعة العناوين المسجوعة مثل: أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك. ثم مات النَّفَس الحضاري في بلادنا، ولكن هذه التقليعة لم تمت إلا حديثًا، لقد عاشت ألف سنة فعلًا، ونرجو ألا تفكر في القيام من تربتها.

الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعرِّي، وإغاثة الأمة بكشف الغمة مثلان على العناوين المسجوعة. وليس هناك عنوان أطرب له مثلما أطرب لعنوان تاريخ ابن خلدون. وهذا الكتاب -أولًا- هو أهم كتب ابن خلدون، وتقوم شهرته على مقدمته. لقد رأى ابن خلدون أن يلخِّص آراءه في علم التاريخ والاجتماع والحضارة في مقدمة كتابه، فكتب ستمائة صفحة، ثم انتبه بعد خمسة أشهر من التسويد والتبييض إلى أنه أطال، فبدأ بفصول الكتاب. واكتشف الأوروبيون في العصر الحديث أن ابن خلدون كان أول عالم اجتماع عرفه الناس، وأنه سبق عصره بمئات السنوات، ثم اقتنع العرب في القرن العشرين بوجاهة اكتشاف الأوروبيين، وراحوا يحاولون اكتشاف ابن خلدون ... وما زالوا. الطريف أن تاريخ ابن خلدون الذي يتمطى متثائبًا على عدة آلاف من الصفحات عامر بالخزعبلات، وهو عبارة عن فصول منقولة من هنا وهناك إلا ما كان عن بلاد المغرب فهو أكثر أصالة، فأما المقدمة -وهي أطول مقدمة كتاب فيما أعلم -فهي ذهب إبريز، ولن أخوض في مسألة عرض المقدمة خشية ألا أوفِّيَها حقَّها في هذه العجالة. وهم يطبعونها على حدة ويسمونها المقدمة. وأما عنوان الكتاب كله، وهو الذي جرَّنا إلى هذا الحديث، فهو أطول عنوان كتاب فيما أعرف: كتاب العِبَر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.

وللمعرِّي عناوين طريفة، منها لزوم ما لا يلزم لديوان شعر، ولو وقع هذا العنوان بيد أحد السرياليين لخلق منه أشياء عجيبة، وصاغ على منواله عناوين كثيرة؛ ومنها عناوين ثلاثة كتب متآخية في موضوعها وصياغة عناوينها:

عبث الوليد: في هذا الكتاب يشرح المعرِّي أشعارًا للبحتري، والاسم الأول للبحتري هو الوليد. وفي العنوان تورية؛ إذ ينصرف الذهن أولًا إلى عبث الطفل الوليد بالأشياء. وكان المعرِّي يرى شعر البحتري كثير الزخرف ضحلًا.

ذكرى حبيب: ينصرف الذهن أول ما ينصرف إلى ذكرى شخص حبيب، والمقصود حبيب بن أوس أبو تمام، الشاعر الذي شرح المعرِّي طائفة من أشعاره في الكتاب.

والعنوان الثالث من هذه السلسلة هو معجز أحمد، وهل يشك أحد في أن معجز أحمد هو القرآن الكريم؟ هذا هو المعنى القريب، فأما ما أراده المعرِّي فهو شعر المتنبي أحمد بن الحسين، وكان المعرِّي يعتبر ديوان المتنبي معجز الشعراء، ولم يكن يقدِّم على المتنبي أحدًا ولا يقرن به أحدًا.

لسان الإنجليز

قبل ١٣٥ سنة نشأت فكرة وضع معجم شامل للغة الإنجليزية لا تفوته شاردة ولا واردة. وفي أوائل القرن العشرين طُبع هذا المعجم واسمه معجم أكسفورد بعد عقود من العمل الشاق. وتطورت اللغة ودخلتها كلمات جديدة، فأخذت المؤسسة التي تشرف على المعجم بطبع ملاحق له كادت تزيد في حجمها على المعجم الأصلي. وفي عام ١٩٨٩ نُشرت طبعة جديدة من معجم أكسفورد، كان وراء هذه الطبعة الجديدة جيش من المحررين وعلماء اللغة والطابعين والكتبة وفريق من خبراء الكمبيوتر.

ويقع هذا الكتاب في عشرين ألف صفحة (من أكبر قطْع يخطر بالبال)، وإنما أصف هذه الأشياء عن معاينة، وإن كنت لا أزعم أنني أملك هذا الكتاب، فثمنه يقل قليلًا عن ألفي جنيه إسترليني، ولو سمحوا ببيعه مُفَرَّقًا لما كان في وسعي سوى شراء المقدمة، غير أنني أقلِّب صفحات منه كلما زرت المكتبة العامة.

عدد كلمات هذا القاموس ٥٩ مليونًا. ويشرح القاموس نحو ٦٠٠ ألف كلمة من كلمات اللغة الإنجليزية سواء المستعملة الآن أو التي كانت مستعملة في الماضي، مع اتخاذ منتصف القرن الثاني عشر حدًّا أعلى في القدم. وفي المعجم مليونان ونصف مليون مثال، وفيه بيان بأصول الكلمات.

كلمة «آرتيشوك» مثلا أصلها كلمة الخرشوف العربية، وقال بعضهم: بل أصلها الحرشوف بالحاء المهملة، وقال آخرون: بل هي من كلمتي أرضي وشوكي اللتين تصفان هذا النبات أدق وصف. وقد ناقش معجم أكسفورد هذه الآراء مناقشة ضافية، واستند إلى مصادر ومعاجم عربية في كل ذلك.

أهم من كل ما ذكرت من إحصاءات -وهي مثبتة في المقدمة ولم أستند فيها إلى تقديري الشخصي- أهم منها المقتبسات التي يستند إليها القاموس في تحديد معاني الكلمات.

وهذه الشواهد هي حجر الأساس في هذا الصرح المعجمي الشامخ، فمعنى الكلمة لا يُحدَّد على أساس الظن أو بناء على آراء أهل اللغة. الأصل هو كيف استخدم الناس هذه الكلمة، فمع كل كلمة يورد القاموس عبارات عديدة وردت في كتابات كبار الكُتَّاب والخطباء. ومن هذه العبارات يُستنتج المعنى.

ومع الزمن تكتسي الكلمة معاني جديدة يلاحقها القاموس بشواهد عديدة مع ذكر المصادر.

إن فخر الإنجليز بـ معجم أكسفورد طويل وعريض، وهم يفخرون أساسًا بطريقته الفذة في تحديد معنى الكلمة استنادًا إلى المقتبسات المذكورة، وهنا لا بد لنا أن نقِفَ هؤلاء القوم عند حدهم، فقد سبقناهم بثمانمئة عام في هذا المنهج العلمي في صناعة المعاجم.

لم يستعن ابن منظور (٦٣٠- ٧١١هـ) بفريق من خبراء الكمبيوتر بل كتب لسان العرب على ضوء الشمعة، وكان منهجه فيه منهج أكسفورد الكبير ... لا راح ولا جاء. لم يكن يحدد معنى الكلمة إلا بعد أن يورد الآيات والأحاديث والأشعار والأقوال والأمثال تأييدًا للمعنى المراد وإيضاحًا له. وبعد إيراد كل ذلك كان ابن منظور يقف وقفة الحائر، ويقلِّب المعنى على وجوهه، ويخرج بسلسلة من الاحتمالات. وعندنا تاج العروس للزَّبيدي، والصِّحاح للجوهري، والقاموس المحيط للفيروزآبادي، وكلها صروح معجمية يحق لنا أن نفخر بها.

اليوم نجعل المعنى حذاءً صينيًّا لا نسمح للكلمة بالخروج عن حدوده. واليوم نبحث عن قاموس عربي كي نستعمله، فلا نجد إلا كتبًا تشغل نفسها وإيانا بشرح كلمة الحترشة والعيطموس، ولا تلقي بالًا لجمع كلمة دكتاتور مثلًا.

حضارة سادت ثم بادت، وإذا لم يكن بالإمكان نفخ الروح في العظام النخرة، فعلينا أن نبدأ من جديد.

أقوال غير مأثورة

• أفضل طريقة لتعلم لغة أجنبية أن تعيش خمس سنوات مع أطفالك في البلد الأجنبي الذي تريد تعلم لغته. وسوف يصحِّحون أخطاءك على مدى الثلاثين سنة القادمة.

• الموظف الذي لا يشعر بنزوع داخلي إلى إرضاء رئيسه، أمامه احتمالان: أن يصبح مدير الشركة، أو أن يستقيل.

• الكسل أن تتقاعس عن بعض شأنك، وأما أن ترمي شغلك على ظهور الآخرين فتلك قلة مروءة.

• إذا لم يظهر لي شيء من نقاط ضعفك فلا أستطيع أن أحبك.

• الذي يأخذ دروسًا في قيادة السيارة يشعر أنه لن يصبح من البشر إلا إذا نجح في فحص القيادة.

• أنا إنما أذهب إلى الطبيب لكي أحمِّله مسؤولية مرضي.

• الحسد عاطفة بشرية جميلة يجب أن يُعاد إليها الاعتبار.
• الصديق الوفي هو الذي تعرف ما تعرف عنه منه.

(17) يناير/ كانون الثاني ١٩٩٢.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن عشر
من الحُطيئة الذي مات على ظهر حمارةٍ
إلى درجات المطر، ولا بد من الجاحظ (18)

كان مصطفى صادق الرافعي كلما أراد يكتب شيئًا مهَّد للأمر بقراءة أسطر من كتاب الأغاني حتى يطرد من ذهنه العامية التي تحيط به من كل جانب، ولغة الجرائد الركيكة. فما إن يقرأ أسطرًا في الأغاني حتى تستقيم الفصحى على سن قلمه وتعتدل قامَةُ عبارته. وقد حاولت أن أقلِّد الرافعي، فتناولت الجزء الثاني من كتاب الأغاني وألقيته على الطاولة على كعبه فانفتح على صفحة في رأسها العنوان: خبر الحطيئة ونسبه. قرأت الفصل الذي يقع في خمسين صفحة. ثم أمسكت بالقلم وقلت له: على بركة الله. ولما لم يكن في رأسي موضوع بعينه رأيت أن يكون حديثي عن الحطيئة.

الحُطيئة (على وزن أُميمة) هو أول شاعر عربي هجا نفسه. وقصة ذلك أنه كان رجلًا خبيث اللسان هجَّاءً سبَّابًا، هجا أمه في قصيدتين وهجا زوج أمه. التمس ذات يوم إنسانًا يهجوه فلم يجد أحدًا لم يسبق له أن مرغ عِرضه في تراب القوافي؛ فضاق صدره وأخذ يقول:

أبتْ شفتاي اليوم إلا تكلمًا

بشرٍّ، فما أدري لمن أنا قائلُهْ؟

وما زال يردد هذا البيت حتى ورد حوض ماء فنظر فيه فرأى وجهه، فقال:

أرى لي وجهًا شَوَّه الله خَلْقَه

فقُبِّح من وجهٍ وقُبِّحَ حامِلُهْ

وهكذا وجد الحطيئة من يهجوه، لقد هجا نفسه. وبعد عصر الحطيئة رأينا أبا دلامة يهجو نفسه في قصة طريفة.

قرد بها... خنزير بدونها

أُدخل أبو دُلَامَةَ على الخليفة المهدي والمجلس عامر بسادة القوم وأعيانهم، وأراد المهدي أن يوقع أبا دلامة في ورطة، فقال له: عهدًا عليَّ أن أضرب عنقك إن لم تهْجُ أحدَ مَن بالمجلس. فأجال الشاعر بصره في القوم فأدرك أن العاقبة ستكون وخيمة إن هو اجترأ على أيٍّ منهم، فلمعت في ذهنه فكرة ذكية؛ فأنشد:

ألا أبلغْ إليكَ أبا دلامة

فليس من الكرامِ ولا كَرامةْ

إذا لبس العِمامةَ كان قردًا

وخنزيرًا إذا خلع العِمامةْ

جمعتَ دمامةً وجمعت لؤمًا

كذاك اللؤم تتبعُه الدمامةْ

فإن تكُ قد أصبتَ نعيم دنيا

فلا تفرحْ، فقد دَنَت القيامةْ

فضحك كل من بالمجلس، ووصله كل واحد منهم بمال وفير.

لقد هجا أبو دلامة نفسه فخرج من مأزق واجتلب منفعة. أما الحطيئة فشأنه مختلف، إنه شاعر رافض حاقد على الدنيا وأهلها يشتم بالسليقة، ويحب أن يخالف معتقدات القوم الاجتماعية والدينية. إنه ثائر ثورة سلبية خالصة لوجه التهديم. ولا أرى في سيرة الحطيئة شيئًا إيجابيًّا سوى غيرته على الشعر وتعلقه بفنونه.

الحطيئة يموت

عندما دخل الحطيئة في النزع، واستيقن أهلُه أنه على عتبة الآخرة قالوا له: «ما وصيتك؟»، فقال: «ويل للشعر من راوِية السوء». فقالوا: «ويحك أهذه وصية؟ أَوْصِ بما ينفعك عند ربك يوم تلقاه». فقال: من القائل:

لكل جديدٍ لذةٌ غير أنني

رأيتُ جديدَ الموت غيرَ لذيذِ؟

قالوا: «هذا ضابئ بن الحارث البرجمي»، فقال: «قولوا لقومه: إنه أشعر العرب». فقالوا: «اتق الله ودع عنك هذا». ولكن الحطيئة ظل يردد البيت بعد البيت، ويوصي قومه بإبلاغ رأيه في الشعراء إلى أقوامهم. ثم قال له أهله: «قل لا إله إلا الله»، فقال الحطيئة بيتًا في الغزل، فيئسوا منه. ثم سألوه عن عبيده، لعله يريد أن يعتق منهم أحدًا، فقال: «هم عبيدٌ ما تعاقب الليل والنهار». فقالوا له: «أوصِ للفقراء». فقال: «أوصيهم بالإلحاح في المسألة، فإنها تجارةٌ لا تبور». فقالوا له: «وماذا تقول في مالك؟»، فقال: «للأنثى مثل حظ الذكر». فقالوا: «ما هكذا قضى الله تعالى»؛ فقال: «لكني هكذا قضيت». ثم قالوا له: «فماذا توصي لليتامى؟»، قال: «كلوا أموالهم». فعرف القومُ أن

الرجل عازم على أن يحمل كفره معه إلى قبره. فقالوا له: «وهل تعهد بشيء غير هذا؟»، قال: «نعم، تحملونني على حمارة وتُسندونني على ظهرها حتى أموت، فوالله ما مات كريم قطُّ على ظهر حمارة». فلم ير القوم بدًّا من إنفاذ طلبه. فأركبوه على حمارة وجعلوا يذهبون به ويجيئون حتى مات وهو يقول الشعر.

درجات المطر

«القطط» هو ذلك المطر الذي ليس بمطر! تنال نقطة على وجهك أو ذراعك، وتكذِّب نفسك: أمطر في هذا القيظ؟ ومع النقطة الثانية يسري إليك شعور أقوى بأن هذا إنما هو ماء السماء، لا بصقة من شرفة ولا سَلْحة من عصفور. ثم ينقطع الأمر ثوانيَ فتقول في نفسك: ما أوهَنَ عقلي! أمطر في هذا اليوم المصمقِرّ، أي الشديد الحر؟! ولكن النقطة تعود. هذا هو القطط، وهو أول درجات المطر. فإن يزد عن ذلك يصبح «رذاذًا» وتعريف الرذاذ في قاموسي أن العاقل لا يرى ضيرًا في السير تحته. فإذا ما بلغ المطر أن يسعى المرء إلى الاحتماء منه، فله أن يسمِّي هذا الذي ينزل من السماء «الطَّشَّ»، فالطش مطر خفيف لا يحبه أصحاب النظارات الطبية (ولا أصحاب نظارات الشمس؛ لأنه يفقدهم مبرر التغاوي بها). وأما «الرش» فهو مطر يدعوك إلى أن تركض وأن تخفي جريدتك في معطفك، وإلى أن تسب وأن تحنق، ما لم تكن مزارعًا. وبعد الرش «الهَمْر»، وهو مطر ينهمر بلا انقطاع وبصورة منتظمة. و«الوَبْل» هو الغاية، وحدُّه، أي تعريفه، أن يكون في وسع المرء -لو أتيح له أن يخلع ملابسه في الطريق، ولو أسعفه أحدهم بفِلقة صابون- أن يستحم تحته.

سوسة الكتب

طلَّقَ امرأةً وطلَّقتْه أخرى بسبب شغفه بالكتب، وظل يقرأ، وظل بدون نظارات. يدخل بيتًا من البيوت أول مرة ويقعد في مقعده من صالة الجلوس هادئًا ملتزمًا قواعدَ التأدب، حتى إذا وقعت عينه على رف الكتب شرد ذهنه وصار يتحيَّن الفرصة لإلقاء نظرة. وبحيلة من الحيل يصل إلى الكتب ويقلبها بعينيه وبكفيه، فلا تمر دقائق حتى يكون قد عرف النادر من المبذول، والغث من السمين.

و«سوسة الكتب» نمط واحد من أنماط عديدة من المثقفين، وهو ليس بالنمط السيئ. قد يصل الأمر بالمثقف الذي يكون «سوسة كتب» إلى درجة يحب معها الكتب وما في الكتب أكثر من الواقع، ولكنه في معظم الأحيان حيوان مفيد للمجتمع.

كان الجاحظ سوسة كتب. كان يبيت في حوانيت الورَّاقين مقابل أجر، فيسهر الليل وهو يقرأ والحانوت مغلق، فإذا تنفس الصبح نفخ الجاحظ على فتيل سراجه وانطلق إلى بيته لكي ينام مجانًا. وقيل: إن كتبه وقعت على رأسه وهو شيخ فمات. ولكن ارتياد الجاحظ مجالس الوزراء وعلاقاته الفكرية برؤوس أهل الاعتزال جعلته يحافظ على صلته بالحياة. وساعده روح النكتة المتأصل في نفسه في أن يجد مادته في الحياة اليومية للناس، ومن هنا ألَّف البخلاء، وعلى المعتقدات الشعبية بنى كثيرًا من كتابه الجسيم الحيوان.

وكان العقاد سوسة كتب، قضى ميعة الصبا في صحبتها، ولبس بيجامته المشهورة واعتكف بين كتبه في سنوات الاكتهال والشيخوخة يقرأ ويكتب، ولكنه خرج بين الاعتكافتين وعرَّض وجهه لشمس السياسة والصحافة والنيابة والمعتقل. فجعل ذلك كله لسوسة الكتب العقَّادية ارتباطًا بالحياة وبالواقع.

أما سوسة الكتب صديقي، الذي بدأت الحديث به. فما زال يبحث عن همزة وصل تربطه بالعالم، وإلا فسوف تغمره الكتب وتختم على قلبه وتطمس الفروق أمام عينيه.

قصة سريالية

كانت تفِحُّ في وجه أمه فحيح الأفعى في الضفدع، وكانت تحجب عنها الفاكهة واللطائف، وكانت تكرمها مراءاة والزوج شاهد، فإن غاب فالويل للعجوز الضعيفة التي دق عظمها واصطلحت عليها صنوف العلل وزجاجات الأدوية.

عندما جاء عِزرائيل وقبض روح الحماة عرَّج على المطبخ حيث كانت الكنَّة، ولطمها على حر وجهها لطمة كان لها صدى في أرجاء جهازها العصبي، وقال لها: «قد رفعت المرحومة عليك دعوى إلى قاضٍ لا رادَّ لحكمه، فاستعدِّي يا حمقاء».

تحققت الكنَّة من موت حماتها فأدركت أن الأمر جد، ثم نظرت في المرآة فرأت -رغم الحول الذي أصابها من تلك اللطمة- أثر خمسة أصابع عزرائيل على خدها.

ناحت على حماتها نوحًا تعجب الناس منه وحاروا في تفسيره، ثم احتجبت عن العالمين. وصلَّت فيما بقي من أيامها ولياليها مائة وسبعة وعشرين ألفا وستمائة وستًّا وثلاثين ركعة. وعندما آن أوانها واستكملت أنفاسها قبضها عزرائيل قبضًا هينًا ولم يكلمها، بل قام بعمله برتابة وكأنه نسيها، وعندما وصل بها إلى السابعة سمعت مناديًا ينادي: «هيئوا الأسياخ، أعتِدوا السلاسل!».

قصة أخرى

عندما أوشكت أمُّه على اللِّحاق بمن غبر، وراح يتصرَّم حبلها وتتقطع أسبابها، وصارت تدخل في النزع ثم تخرج، وتشرف على الحِمام ثم تنام، أخذ يحملها كل صباح على حماره ويمشي إلى جانبه إلى أن يبلغ كوخ شيخ يعرفه، فيتركها عنده موصيًا إيَّاه أن يدفنها في حفرة كان قد حفرها لها في المقبرة المحاذية لكوخ ذلك الرجل إن هي ماتت قبل رجوعه من الحقل. وكانت زوجة ذلك الشيخ تسقي زائرتها -التي يؤتى بها صباح كل يوم لكي تموت عندهم.. ولا تموت- تسقيها مرقًا فتَّتْ فيه خبزًا، وكانت تطعمها المهلبية والزبيب وتحتسب ذلك.

فقويت العجوز وصارت قامتُها أشدَّ انتصابًا على ظهر الحمار. وصار ابنها يقول لمن يسأله عن حالة أمه: «ستدفِنني هذه الدَّردبيس». وقد حصل.

فضلات الكلام

• «ظلت فلول الجيش تتقهقر إلى الوراء»: هذه العبارة توحي بأن ثمة تقهقرًا إلى الوراء وتقهقرًا إلى الأمام. ولكن اللغة العربية تقول: التقهقر هو التراجع، ولا يكون إلا إلى الوراء. وعليه فكلمة «إلى الوراء» في العبارة السابقة فضلة قبيحة.

• «ليس هناك مجال إلا لشراء الضروريات الأساسية» لماذا الأساسية هذه؟ إنها لا تؤكد معنى كلمة الضروريات بل تضعفه؛ فكلمة الضروريات تحوي في جوفها كلمة أساسية احتواء.

• «والآن إليكم قصيدة شعرية جديدة ...»: القصيدة هي القطعة من الشعر. ولا أرى أن الذي يقول قصيدة شعرية قد أضاف شيئًا جديدًا. بل لقد زاد في عدد كلماته دون زيادة في المعنى ... وهذه ثرثرة.

• «وقد استعاض عنها باستبدالها بالعملة القديمة»: الاستعاضة والاستبدال شيء واحد في هذا السياق. وحري بالكاتب أن «يستعيض» عن الكلمتين بأن «يستبدلهما» ببديل أبسط يحل محلهما ويقوم مقامهما ويكون عوضًا عنهما ويكون كلمة واحدة بدلًا من كلمتين. ها قد ثرثرنا!

• «يبدو فيما يظهر أن الدلائل ...»: ولو قال صاحب هذه العبارة «يظهر فيما يظهر..» لما اختلف الأمر. يجب أن أعترف أنني اخترعت هذه العبارة.

(18) فبراير/ شباط ١٩٩٢.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع عشر

بين مؤامرات الكمبيوتر وراتب زميلي المموّه وعمر بن عبد العزيز، ورمزي ماكدونالد (19)

يريدنا الغرب أن نلعب لعبته هو، بقواعده هو، يريد أن يخلقنا من جديد على صورته. ولا تكون خلقةٌ هذا شأنها إلا مسخًا، ولا يكون مخلوق تلك ظروف خلقه إلا قزمًا. كان للشيوعية -على قصورها- فضيلةُ أنها مثَّلت تحديًا للأمم التي فسقت عندما فقست عنها الثورة الصناعية. وماتت الشيوعية بأدوائها، وتركت عبيد الرأسمال أكثر سطحية ولؤمًا. وكان موظفو الإمبراطورية البريطانية في الهند يبتسمون وهم يرون قشرة اجتماعية هندية تلبس البذلات والأحذية الإنجليزية. فليس في وسع أولئك الهنود أن يصيروا جنتلمانات، وغاية أمرهم أن يصبحوا مهرِّجين. وما نال احترام الإنجليز وعبوسهم سوى غاندي بشملته وعصاه ونعله.

المعلومات العامة

لم أعد أطيق المعلومات العامة، لا في برنامج مسابقات في التلفزيون ولا في مجلة ولا في كتاب. تفاهات الصفحة الأخيرة من الجريدة وأخبار الممثلات، وحتى أخبار الطب وعجائب الحمل والولادة، كل ذلك أحتمله، فأما المعلومات العامة فلا.

قالوا لنا في المدرسة: إن المسيسبي هو الأطول. ثم جعلوه الأمازون. وسمعت أنهم استقروا أخيرًا على نهر النيل. ولا يهمني ذلك. حتى لو اكتشفوا أن نهر دجلة ينبع من الصين ويصب في الأطلسي، وأنه أطول من الأنهار الثلاثة السابقة مجتمعة لما وجدت في ذلك طرافة.

أظن أن المراهقين يطربون جدًّا لمعرفة أعلى القمم وأخفض الأودية وأكبر البحار وأسرع الطائرات.. إلخ؛ لأنهم يريدون أن يعرفوا الحدود الدنيا والقصوى للأشياء حتى يحصروها ويعرفوا مداها. وذلك شيء لا بأس به. وقد صار تأليف الكتب التي تُعنى بالأرقام القياسية فنًّا برأسه من فنون التأليف والنشر. ولكنني تخطيتُ العتبة، فصارت المعلومات العامة عندي كالدجاجة المحمرة على الطبق عند من أكل لتوه خروفًا محشوًّا بالأرز واللحم ومطيبًا بالتوابل ومشويًّا على الجمر. ألا يكفيني تلك الدورات البغيضة في استعمال الكمبيوتر التي أتجرعها كما يتجرع المرء زيت الخروع، بفارق أن متجرِّع الخروع قد يستفيد منه، وأنا أتجرع الخروع الكمبيوتري فأحس مرارته ثم آتي إلى الشاشة والمفاتيح وأضغط هنا ثم هناك، فأسمع صفيرًا أو نهيقًا، وترشقني

الشاشة بأسطر تروح وتجيء في ومضات جهنمية، ثم تتدحرج إلى أسفل، ثم تتوقف ثم تختفي وتحل محلها كلمة «سوري» أي آسف، دلالة على أن الكمبيوتر لم يفهم الأوامر البارعة التي وجهتها إليه. لقد اخترعوا في اليابان كمبيوترا يطلق شحنة كهربائية خفيفة لاسعة إذا زُوِّد بأمر خطأ. لو أنني أستعمله لتوهجتُ كالمصباح الكهربائي من قمة رأسي إلى أخمص قدمي.

كل هذا الهراء عن الكمبيوتر إنما جرَّنا إليه الحديث عن المعلومات العامة. ولكني قبل أن أخوض في هذا الوحل أحب أن أسوق عبارة أخيرة في هجاء الكمبيوتر: يُخَيَّل إليَّ أن هناك شيئًا غير إنساني في هذا الاختراع. الكمبيوتر مؤامرة ضحاياها ملايين السكرتيرات والتلاميذ ورجال الأعمال ... وأنا. الكمبيوتر هو فرانكنشتاين النصف الثاني من القرن العشرين الذي هو بسبيله إلى خنق صانعه. القشعريرة تنتابني كلما رأيتُ هذه الشاشة القبيحة مقعية فوق لوحة أزرار ... هذا هيكل عظمي يمشي في العتمة داخل دهاليز هيكلي العظمي ويبعث على سطح جلدي نتوءات الرعب ويجعله كجلد الدجاجة المسلوخة.

والمعلومات الخاصة

المعلومات الخاصة التي أتوق للحصول عليها هي راتب زميلي وعلاواته. فإذا فاقني فإن معرفتي بذلك تغذي عاطفة الحسد الجميلة في نفسي، وتشعل في قلبي نيران الكراهية للمدير وللـ ... للعالم كله. وهذا شيء فيه تطهير.

وإذا كان راتبه أقل من راتبي ملأني الزهو والفخر بالإدارة الناجحة التي تحفز الأكفاء وتحرم العاجزين والكسالى. ولكن أنَّى لي الحصول على تلك المعلومات الثمينة! إنني أترفع عن التلصص على ورقة راتبه، وهي مغلفة تغليفًا محكمًا بحيث لا يشف الظرف عن محتواه، بسبب نقش تمويهي مخصوص طبعوه على الغلاف يبلع أحرف ورقة الراتب بلعًا، فلا ينفع الاستشفاف تحت مصباح أحمر ولا أبيض ولا خلافه، يا ويلي كأنني أكشف أساليبي في التلصص. على أنني لم أبلغ إلى أن أفض الغلاف ... بعد. وورقة الراتب، أي المرتب، أي الماهية، أي المعاش، أي الأجر، هي سليلة فرانكنشتاين، هل تلد الحية إلا حية؟ إنها ورقة كمبيوتر.

ورقة الراتب

في شركة ساقتني يد القدر للعمل بها وصل الأمر بالتهامس والتحاقد إلى أن صار مثل الصخرة التي تقعد على الصدر، كل ذلك بسبب التفاوت في الرواتب على غير أساس معروف أو معيار مكشوف. وقد قررت أن أتقدم الصفوف وأشيع بعض الانفراج، بانتهاج طريق الدبلوماسية المفتوحة على

غرار ليون تروتسكي الذي ما إن أقعده لينين على يمينه حتى مد يده إلى الخزائن الحديدية في وزارة الخارجية ونثر ما بها من معاهدات وقعتها روسيا القيصرية وألقاها من النافذة، ففاحت في الكرة الأرضية روائح كريهة كان نصيب الشرق الأوسط منها رائحة معاهدة سايكس - بيكو التي لا تزال جيفة مستقرة في قاع بئرنا.

تقدمتُ الصفوف وثبَّتُّ ورقة راتبي باللاصق الشفاف على منضدة أتنافس مع ثلاثة من الزملاء في الجلوس إليها، فكان يتم احتلالها وتحريرها عدة مرات كل يوم على غرار بعض القرى اللبنانية في الجنوب أثناء الحرب الأهلية.

وقامت القيامة. كنتُ أظنُّ أنني أقلُّ الناس راتبًا؛ ولهذا فقط أقدمتُ على ذلك العمل الأهوج، واكتشفتُ بعد السقطة أن ذلك ليس كذلك. ارتسمت علائم الرضا على أسارير نفر وتكشيرات الحقد والغضب والحسد على جباه نفر. ثم هدأ الجو وتحقق الانفراج. وعلى مدى السنتين اللاحقتين أفهمني مدير الشركة أنني خرجت من الحظوة، فلا علاوة ولا ترقية. كيف لا وقد أفسدتُ عليه أشياء كثيرة كان يصنعها في سبيل ضمان ولاء الموظفين، وتسهيل سير العمل، وترسيخ سلطته. الآن تعلمت الدرس. ولكنني ما زلت ألتذ بموضوع الرواتب والعلاوات كما يلتذ الأجرب بالحك. وقد وقع بيدي كتابٌ جاءني شحمة على فطيرة. هذا الكتاب هو الكتاب الرسمي السنوي للحكومة البريطانية وفيه إحصاءاتٌ شتى ومعلومات عامة. ومن المعلومات العامة -وقد أسرفنا في هجوها- أشياء عن الرواتب.

مثلًا رئيس وزراء بريطانيا يقبض في السنة ٦٤ ألف جنيه إسترليني. الوزير الذي في مجلس الوزراء يقبض ٥٢ ألفًا، والذي لا يحضر المجلس ٣٦ ألفًا. وزعيم حزب المعارضة الأكبر ٥٠ ألفًا. وللمقارنة فإن مذيع التلفزيون اللامع قد يصل مرتبه إلى مائة وثلاثين ألف جنيه، أي أكثر من رئيس الوزراء وزعيم المعارضة مجتمعَين ... مرتين.

ربما تكون بَلغتكم معلومات عامة أو خاصة تفيد أن أحد رؤساء وزراء بريطانيا السابقين -أو بعضهم أو كلهم- كان يهرِّب أموال البلد إلى الخارج، وكان يرى من الأسهل أن يضع ميزانية البلد في جيبه ابتداءً، ثم ينفق على المرافق العامة مما يزيد بعد الإنفاق على المرافق الخاصة! ولكن المعلومات التي وصلتني مختلفة بعض الاختلاف؛ فقد بلغني أن رئيسة الوزراء السابقة كانت تتخلى عن نصف راتبها للخزينة؛ لأن زوجها موسر، وأن بنات رمزي ماكدونالد أول رئيس وزراء عمَّالي كن يذاكرن دروسهن في القاعة المخصصة لاجتماع مجلس الوزراء في ١٠ داوننغ ستريت، وهو مقر سكن وعمل رئيس وزراء بريطانيا. السبب أنها كانت تدفأ على حساب الحكومة، ولم يكن رمزي ماكدونالد قادرًا على تدفئة المنزل الواسع.

رئيس الوزراء وبناته

في أوائل عام ١٩٢٤ أرسلت السيدة بولدوين، زوجة ستانلي بولدوين رئيس وزراء بريطانيا المحافظ، تستدعي ابنة زعيم المعارضة العمالية رمزي ماكدونالد، وكانت تدير شؤون البيت بعد وفاة أمها، وكانت في العشرين من العمر. توجهت «إيشبيل ماكدونالد» إلى مقر رئاسة الوزراء في ١٠ داوننغ ستريت، قالت لها زوجة بولدوين: «يا عزيزتي، من المفروغ منه أن الحكومة ستسقط مساء اليوم إذ سيقترع مجلس العموم حتمًا بعدم الثقة، وسيصبح والدك رئيسًا للوزراء. وقد استدعيتك لأن من تقاليد هذا المسكن والمنصب أن تتم هذه الزيارة. بوسعي الآن أن أطلعك على الأثاث الموجود وأن أعرفك ما هو لنا وما هو للدولة».

ثم طافت بها في أرجاء المنزل، فاكتشفت إيشبيل أن ما سيبقى من الأثاث قليل. وعادت إلى أبيها لتبلغه فاكتأب، وقال: إن ما لدينا من أثاث لا يكاد يكفي غرفة واحدة من غرف ذلك المنزل الكثيرة. مع غروب شمس ذلك اليوم سقطت الحكومة، وفي اليوم التالي كلَّف الملك جورج الخامس رمزي ماكدونالد بتشكيل حكومة جديدة. ولم ينس الملك أن ينبِّه أول رئيس وزراء عمَّالي إلى حقيقة مهمة؛ قال الملك: «يقضي العرف على الوزراء أن يرتدوا بذلات مخصوصة للاجتماع مع الملك عقب تشكيل الحكومة الجديدة، وقد علمت أن البذلة الواحدة تكلف ثلاثة وسبعين جنيهًا، وهذا مبلغ كبير بالنسبة لرجال متوسطي الحال؛ لذا أقترح أن تبلغ الوزراء بعد استكمال تشكيل الحكومة أن بوسعهم ارتداء بذلات «السموكنغ» العادية، وقد علمت أنه يمكن استئجار الواحدة منها من محلات «موزس وإخوانه» لقاء بنس ونصف البنس فقط لليوم الواحد».

كانت نصيحة مفيدة، فأعضاء الحكومة الجديدة «العُمَّالية» كانوا من متوسطي الحال ... فنازلًا. وزير المستعمرات كان يشتغل قبل أسابيع من الاستيزار سائقًا لقطار، ووزير الخزانة (خزانة أغنى وأمنع بلد في الدنيا آنذاك) كان عاملًا في مصنع. ولم تنجح حكومة ماكدونالد نجاحًا كبيرًا ولكنها لم تفشل.

رمزي ماكدونالد: ابن غير شرعي لعامل وخادمة، قيل: إنه كان يحمل شهادة ميلاده، التي نُصَّ فيها على أنه مولود غير شرعي، في جيبه دائمًا، وكان إذا عيَّره أحد بذلك تلميحًا أبرزها وقال: «أنا أعرف ذلك، فهل يمكننا المضي في الموضوع الجوهري!».

كان لماكدونالد بنتان صغيرتان إلى جانب إيشبيل، وكان له ابنان بالغان، كانت البنتان الصُّغرَيان تغادران ١٠ داوننغ ستريت كل صباح بالزي المدرسي

الأخضر، وتسيران في الجو المعتدل على الأقدام إلى مدرستهما في كامدن تاون؛ لتوفير أجرة الحافلة.

جموع

• كلمة (Zionists) لها في العربية مقابلان: صهاينة وصهيونيون. فإذا وردت في سياق تحقير فإن الترجمة المثلى لها هي: صهاينة. وإذا جاءت محايدة تصف القوم وصفًا بريئًا من إصدار الأحكام لهم أو عليهم فترجمتها صهيونيون. شبيه بذلك القاتلون والقتلة. فكلمة القتلة فيها قدر من الهجاء، وكلمة «القاتلون» محايدة.

• كلمة (Guerrillas) الإنجليزية تعني المسلحين الخارجين على النظام الحاكم. وهي كلمة محايدة. وقد أزعجت المترجمين؛ فإن ترجموها: المتمردين أو العصاة يكونوا قد أضافوا حكمًا من عندهم. وإذا جعلوا أولئك القوم ثوارًا فقد مدحوهم وأخلوا بأمانة المترجم. قد يكون المخرج كلمة ثائرين فهي النسخة المحايدة من الثوار.

• العرب يحبون جمع التكسير حبًّا جمًّا؛ كلمة دكتاتور مثلا جمعها سهل وواضح وهو «دكتاتورون» وهو جمع مذكر سالم. ولكن الصحفيين يفرون دائمًا من استخدام هذا الجمع انتظارًا لإيجاد صيغة تكسير له على غرار إمبراطور - أباطرة، المشكلة في الدكتاتور طبعًا هي أن الدكاترة شيء آخر ... في الغالب.

(19) مارس/ آذار ١٩٩٢.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العشرون

من مأدبة الحلزون إلى مآدب الأدب، وحديث عن الموز،

المتنبّي والوزير، ومعضلة نحوية (20)

في الأدب كما في أصناف الطعام هناك شهية وتقزز واشمئزاز. أحاول أن أحصر فكرتي في إطار ضيق، وأن أكتب فقرة قصيرة دونما حاجة إلى تسويد وتبييض فقلّما بيضتُ وشعرت أن المبيضة أفضل من المسودة. حاولتُ أن آكل الحلزون. طلبت طبقًا في مطعم فاخر وانتظرت بكثير من التوتر والتخوف، وقليل من التشوف والتشوق. وعندما حضر الطبق توكلت على الله وتناولت صدفة وشققتها، فأطل الحلزون بقرنين أذابهما الطبخ. فتقززت وصدفت نفسي عن الطعام، ولم أسغ البيتزا التي طلبتها بعد ذلك. ولكنني أكلت عارفًا أنني سأدفع ثمن طبقين، فلا أقل من أن آكل أحدهما. ألا ترون أن المرء يأكل في المطعم كل الطبق؛ لأنه سيدفع الحساب في كل حال؟

ابن وو العاق

قالوا لي: نراك تكتب عن الطعام كثيرًا، فإمَّا أن تحترم عنوان زاويتك أو تلتمس من رئيس التحرير أن يغيره إلى «لغة الأدب والطبيخ». ولي في سياق الدفاع عن نفسي حجج قد لا تخطر بالبال إلا بعد إعمال الفكر وإنعام النظر. الأكل عند البشر ليس مثله عند الأسود، إنه نشاط اجتماعي وحضاري نكاد ننسى في خضم ممارسته أننا إنما نأكل لنعيش وليس العكس، ويحسن أن نطلق هنا عبارة رنانة: الناس في أوروبا يعيشون ليأكلوا، وفي إفريقيا يأكلون ليعيشوا، وفي روسيا يعيشون على أمل إيجاد شيء يأكلونه.

ومن الحجج الأخرى أن كلمة «الأدب» أخذت من فعل (أَدَب - يأْدِب) أي دعا الناس إلى الطعام. والآدب هو الداعي إلى مأدبة. والتأدب هو الالتزام بأداب الطعام. ثم صار حديث المأدبة يسمى أدبًا. ولم تصبح كلمة أدب بمعنى الكلام المنمق ذي المغزى ... إلا في ضحى العصر العباسي.

حديث الموز

قد تشتهي أدبًا وتتقزز من أدب، مثلما تتقزز من طعام. كنتُ أفكر في مطالعة شيء للروائي الإنجليزي «إيفلين وو» (١٩٠٣-١٩٦٦) بعد أن قرأتُ شيئًا عن

غرابة أطواره ومراسلاته الغرامية مع إحدى نجمات المجتمع في زمنه. ثم اتفق أن صدر كتاب قبل أشهر لابنه الصحفي «أوبرين وو».

الابن «العاق» خصَّص صفحات طوالًا لذمِّ أبيه. ومما ورد في الكتاب قصة الموز: وصلت كمية من الموز إلى بريطانيا عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، فقررت الدولة أن توزِّعها مقننة بحيث ينال كلٌّ فرد موزة واحدة، فكان نصيب عائلة وو أربع موزات. ذهبت الأم إلى مركز التوزيع، ووقفت في الطابور طويلًا، ثم عادت إلى البيت بالموزات الأربع. بعد الغداء وُضع الموز أمام الأب، فأمر بطبق نظيف وبشيء من القشدة؛ قشر الموزات الأربع ومددها في الطبق ورش عليها السكر، ثم تفنن في تزيينها بخيط متعرج من القشدة، وأمسك بملعقته وأخذ يأكل بشهية عظيمة وزوجته تنظر، وطفلاه ينظران.

والآن … وبعد أن عرفت هذه القصة، هل تريدني أن أقرأ قصص وروايات إيفلين وو؟ تقززت منه ومن أدبه … ومن الموز.

إنشاد الشعر

إذا ظن المرء أن الشعر العربي القديم هو تلك الأشياء التي يقرأونها في الإذاعات مصحوبة بالموسيقى الناعمة قبل انتهاء الإرسال، يقرأونها وكأنهم يتعمدون تكسير الأوزان وتشويه القوافي، يقرأونها بحرص شديد مصطنع على معنى لا يكادون يتبيَّنون خياله، فيصلون الشطر بالشطر ويقفون في غير مكان الوقف، إذا ظن المرء ذلك فإنه أحوج إلى التقريع منه إلى الهداية. فكيف كان العرب يقرأون شعرهم؟

كانوا ينشدونه، والإنشاد لا يكون همسًا. كان الشاعر يصرخ أبياته، ويحفظ الوزن الذي أعيته إقامته، ويُبرز الروي الذي قصد إليه قصدًا.

سمعت نزار قباني يلقي شعره فقلت في نفسي: لماذا يفعل بأبياته هذه الأفاعيل، لماذا يقرأ وكأن شعره غير موزون؟ أحمد شوقي كان امرؤًا عرف حدَّه فوقف عنده. كان يأبى أن يلقي قصيدة في محفل، بل يكلِّف من يلقي قصائده عنه.

شوقي وحافظ

كان يصادف أن تُلقى في حفل تأبين لأحد الكبراء قصيدة لشوقي وأخرى لحافظ إبراهيم، وكان حافظ ينشد شعره على الطريقة القديمة، على الطريقة الصحيحة، الصحيحة لهذا الضرب من الشعر، كان يخطب به خطابة، وكان جهْوَري الصوت، فيسمع الحفل الشعر فيقولون: «لقد والله غلب

حافظ!»، ثم تخرج صحف الغد بالقصيدتين، فيرى النقاد في قصيدة شوقي ما طمسه إنشادُ المنشد، ولا يرون في قصيدة حافظ على وجه الطرس ما رأوه بآذانهم في حفل الأمس؛ فيحكمون لشوقي ويقدِّمونه.

المتنبي والوزير

كان الشاعر القديم يتحمس في إلقائه حتى ليخرج الزبد من فمه. وقد تعجبت عندما عرفت أن المتنبي كان يشترط على ممدوحيه أن ينشد قاعدًا؛ فقد كان سيد شعراء العربية يأنف من الوقوف لإنشاد شعره، وكان أمراء ذلك الزمان يحبِّون في العادة أن يركع الشاعر على ركبتيه ويقبِّل الأرض بين أقدامهم قبل أن ينشد، ولا كذلك المتنبي، وله مع القيام والقعود قصة.

عندما عاد المتنبي من مصر إلى بغداد كانت شهرته قد طبَّقت الآفاق. أراد الحاتمي الكاتب أن يزور المتنبي في بيته إعظامًا له أو اجتنابًا لشره، فلما دخل البيت أسرع المتنبي بمغادرة المجلس إلى إحدى الغرف، فلما أدخل الخادمُ الحاتميَّ وأجلس، خرج المتنبي من الغرفة مرحبًا بضيفه ويده ممدودة لمصافحته، فقام الحاتمي وسلَّم. المهم هنا: قام الضيف للمتنبي، ولم يقم المتنبي للضيف. وقد حقدها الحاتمي على الشاعر وأوجعه انتقادًا في كتاب كامل سمَّاه الرسالة الموضِحة في ذكر سرقات المتنبي وساقط شعره، والموضحة هي الطعنة التي تصل إلى العظم.

ولا أدري كيف كان المتنبي ينشد «الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم» وهو قاعد. ولا ألوم شاعرًا ينشد بيتًا كهذا البيت وهو يقفز، بل لا ألوم المستمع أن يقف حماسة وتوثبًا لبيت كهذا.

معضلة نحوية

كنت قد تساءلتُ في عدد سابق: ألا يحق لنا أن نسمِّي تلك الأداة التي نتقي بها المطر مطرية بدلًا من شمسية؟ وقد بعث أحد القراء قصاصة من كتاب مدرسي فيه رسم لتلك الأداة وتحته كلمة مطرية. فهذه كلمة جديدة، وقد أرفق القارئ بالقصاصة خطابًا أشار فيه إلى عبارة كنت قد سردتها في مكان آخر، ورأى أن فيها غلطًا نحويًّا. والتركيب النحوي لتلك العبارة يستحق وقفة. العبارة هي: «لا أحد يعد التراب أثمن من الذهب إلا الحمقى … والفلسطينيين». الحمد لله على أن القارئ لم يسئ فهم العبارة، وإلا كانت مصيبة. فالخلاف حول: الفلسطينيون/ الفلسطينيين؛ القارئ يريد الأولى وأنا اخترت الثانية.

وأسهل تبرير هو القول: إن كلا الأمرين جائز. وهو كذلك فعلًا، بل إن كل شيء جائز في النحو. فإن قلت قولًا حمل لك أهلُ البصرة عليه العصا، فسوف

يُجيرك أهل الكوفة ويدخلونك في خباء الصواب.

والعبارة السابقة فيها أسلوب الاستثناء بإلا، وهي تامة غير موجبة كما يقولون؛ ولذا جوَّزوا فيها الرفع على البدلية والنصب على الاستثناء. فإذا رفع الرافع فإنما يراعي محل «لا» مع اسمها وهو ابتداء.

وقد تحايل الرافعون كل هذا التحايل؛ لأن هناك عبارات وردت بالرفع، ولا سبيل إلى الشك في فصاحتها، وعلى رأسها أول أركان الإسلام (لا إله إلا الله)، فقد رواها الأكثرون برفع لفظ الجلالة. وهناك البيت السائر:

لا سيفَ إلا ذو الفقا

رِ، ولا فتىً إلا عليّ

وإذا نصب الناصب فإنما ينصب على الاستثناء، ولا تثريب عليه، وهذا ما اخترته. والاستثناء بإلَّا باب مضطرب من أبواب النحو العربي، وأنصح للقارئ الذي لا يقوى على سلوك أزقة النحو المعتمة أن يستعمل كلمة «سوى» بدلا من «إلا» فكل شيء بعد (سوى) مجرور، وبدون تأويلات.

خاطرة

أعطني بيتًا من الشعر الجميل، من الشعر الذي هو شعر، من الشعر الذي ليس شعوذة رموز ولا شعوذة كلمات صعبة، ونياقًا ونهاقًا وحميرًا. من الشعر الذي تسمعه فتقول: آه ... أعطني بيتًا واتركني في الصحراء.

والشعر الذي أريدُ شعر في الخمر. ولئلا ينتف الأصوليون لحاهم فإنني سأقدم التفسير. والحقُّ أنني أفكر في أن أضع أمامي على المنضدة عندما أكتب تمثالًا لشاب أصولي ملتحٍ يحمل عصا. صار الواحد يحسب ألف حساب قبل أن يفتح فمه.

شعر الخمر أجمل شعر؛ لأنه قيل في تحدي السلطة بأشكالها. ولا أشك لحظة في أن الله سينظر بعين العطف إلى مرافعة أبي نواس أمام العرش، يوم لا ظل إلا ظل العرش، ويوم يقول الشاعر المداح: يا ليتني كنت ترابًا، قال أبو نواس:

ألا فاسقني خمرًا وقل لي هي الخمرُ

ولا تسقني سرًّا إذا أمكن الجهرُ

وتلك صراحة محمودة ولا سيما إذا قيست بنفاق ابن هانئ وكفره حيث قال في مدح المعز:

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدارُ
فاحكم فأنت الواحد القهارُ
ولو مُدح الأنبياء مدحًا كهذا المدح لاستكبروه ولاستعاذوا بالله.

(20) إبريل/ نيسان ١٩٩٢.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي والعشرون
الطِّباق، العقّاد سرقها، والفاتك اللَّهِج، وعشق الحمار، وغضب بشار (21)

ورد كعبُ الأحبار على عمر بن الخطاب، فقال له عمر: «يا كعب، خوِّفنا». فقال كعب: «يا أمير المؤمنين، إن جهنم لتزفر زفرة يوم القيامة؛ فلا يبقى ملك مقرَّب ولا نبي مرسل إلا جَثَا على ركبتيه يقول: يا رب لا أسألك إلا نفسي». هذا كلام رجل صالح لرجل صالح عن رجال صالحين يرتعدون خوفًا من زفير جهنم. فماذا يصنع الشعراء؟ وماذا يصنع الغاوون منهم؟ مِن هؤلاء الشعراء الذين يهيمون في كل واد بشار بن برد.

بشار بن برد

كان بشار بن برد إذا أراد أن ينشد صفَّق بيديه، ثم بصق عن يمينه، ثم بصق أمامه، ثم راح يهدر كالفحل. وكان قبيح العمى يتغشَّى عينيه الجاحظتين جلد أحمر. وكان أعمى بالولادة، وذلك هو الأكْمَه، ومع ذلك كان يأتي في شعره بما لا يأتي به المبصرون، له بيت حيَّر النقاد:

كأَنَّ مُثارَ النَّقْعِ فوق رؤوسنا

وأسيافَنا ليلٌ تَهاوى كواكبُهْ

يقول في وصف المعركة: إن الغبار الذي أثارته سنابك الخيل كان يملأُ الجو، وكانت سيوفنا اللامعة تهوي على رؤوس الأعداء فيشق بريقها هذا الغبار، وهذه الصورة تشبه الليل الذي تلمع في حلكته كواكب تهوي في الظلام. وقد ظل الناس في حيرة لقدرة بشار التصويرية على عماه، وقدرته الفنية في تشبيه شيئين بشيئين وتركيب ذلك كله في لوحة متناسقة لا تخرج عن إطار بيت واحد من الشعر، وجاء المعرِّي فقدم للنقاد نموذجًا آخر على ذكاء البصيرة. وصف أبو العلاء الليل في قصيدة منها البيت المشهور:

ليلتي هذه عروسٌ من الزَّنـ

جِ عليها قلائدٌ من جُمانِ

وفيه تشبيه طريف. ولكن العجيب في القصيدة، التي هي اثنان وستون بيتًا، أن المعرِّي وصف عددًا عديدًا من الكواكب والنجوم وصفًا دقيقًا. فهو يذكر الأجرام السماوية بأسمائها وألوانها وحركاتها ومواقعها المختلفة من رقعة السماء، وأشار إلى عماه في مطلع القصيدة إذ يقول:

علَلاني فإنَّ بيِضَ الأماني

فَنِيَتْ والظلامُ ليس بِفانِ

وهناك رواية للبيت تجعل كلمة «الزمان» في مكان «الظلام»، وأرى أنها ليست بشيء، فالشاعر وضع الظلام نقيضًا للبياض في الشطر الأول. والشعراء -وأبو العلاء على رأسهم- حريصون على هذا التضاد الذي يسمِّيه أهل البلاغة «الطباق».

ألم يقل أبو تمام:

وأحسن من نَوْرٍ تفتِّحه الصَّبا

بياض العطايا في سواد المطالبِ؟

وقال أبو تمام أيضًا:

طال إنكاري البياضَ وإن عُمِّـ

رتُ شيئًا أنكرتُ لونَ السوادِ

وقد ذكرني البيت الأول بالثاني، والثاني فيه معنى جليل، يقول الشاعر: إنه ظل -في شبابه- يجد الشَّعر الأبيض أمرًا غريبًا (أنكرت أي تعجبت)، ولكن الشيب أخذ يغزو فروة رأسه بسرعة حتى إنه لو طال به العمر قليلًا لصار يجد الشعرات السود من الأمور المستغربة، ولم يعش أبو تمام حتى يتأكد من صحة دعواه. مات وعمره أربع وأربعون سنة.

العقاد سرقها

وأظن أن العقاد سرق معنى أبي تمام في عبارة قالها عن منزله. قال ما مؤداه: سكنتُ هذا المنزل والشعرات البيض يتواريْن في السود، وها أنا أسكنه والشعرات السود يتواريْن في البيض. صعدت درجات سلمه ثلاثًا ثلاثًا، ثم اثنتين اثنتين، وهأنذا أصعد الدرجات نفسها درجة درجة، وألتمس العون من عصاي. أو كما قال. وأجد العقاد وضع المعنى في صيغة أحلى، وأراه صار أحق بالمعنى من أبي تمام.

ولا سبيل للشاعر القديم على الناثر المعاصر ... كيف وبينهما ألف عام تزيد قليلًا.

لنتصور أن شاعرًا سرق معنى من معاني بشار بن برد! كانت إذن تقوم عليه القيامة. حدث ذلك فعلًا.

الخاسر الرابح

سَلْمٌ الخاسر شاعر معاصر لبشار. سمَّوه الخاسر؛ لأنه ورث مصحفًا فباعه واشترى بثمنه طنبورًا -وهو شيء شبيه بالعود أو البُزُق- فهذا عملُ من اشترى بآخرته دنياه وخسرت تجارته.

سمع سلم الخاسر بيت بشار:

من راقبَ الناس لم يظفَرْ بحاجته

وفاز بالطيِّباتِ الفاتِكُ اللَّهِجُ

ومعنى البيت: أن الذي يرقب الناس خشية منهم، ولا يُقْدم على الغزل ومطارحة النساء الغرام، وما فوق ذلك، يؤوب بالخيبة، ولا ينال المراد إلا زير النساء المقدام المثابر.

ولا يظن أحد أنني حمَّلت البيت من المعنى فوق طاقته، فمن عرف سيرة بشار لم تَخْفَ عليه مقاصده، وكلمة «الفاتك» هي المفتاح، وقد راجعت القصيدة الآن، بعد كتابة الأسطر السابقة، في الديوان فوجدت البيت الذي قبله مصدِّقًا لتفسيري:

قالوا حرامٌ تلاقِينا فقلتُ لهم:

ما في التلاقي ولا في قُبْلَة حَرَجُ

عندما سمع الخاسر البيت (الأول) أعجبه المعنى، فسرقه ووضعه في بيت رشيق جميل سار مشمرًا في الآفاق وفي العصور، واشتهر قديمًا واشتهر حديثًا:

من راقبَ الناس مات غمًّا

وفاز باللذة الجسورُ

ونحن اليوم نكثر من الاستشهاد بالبيت ولكننا نسيء فهمه. «من راقب الناس» معناها «من اكترث بهم وخاف سخطهم» وليس معناها: من تجسس عليهم. والنصف الثاني من البيت -وهو أقل شهرة من نصفه الأول- يكشف المعنى المقصود. وعندما سمع بشار بيت سلم الخاسر كاد الغضب يعميه، أو لنقل كاد يبصر من شدة الغضب ... أو لنقل أشياء أخرى ... عن غضب بشار.

عندما يغضب بشار

أغضبت هذه السرقة الأدبية غير المؤدبة بشارًا وأغاظته وأسخطته وأحنقته واستوقدت رمضاءَ الحفيظة في صدره. وأخذ يتلهَّب ويتسعَّر ويتضرَّم غضبًا وجاش مِرجلُ البغضاء في نفسه. وصار يتلذَّع وقد انتفخت لَغاديدُه وتورَّم أنفه وتزبَّد فمه، وأوشك أن ينفجر فتطير منه شَظية في السماء وتقع أخرى على الأرض. ولما لم يخْبُ ضِرامُ غيظه ولم تسكن سَوْرة غضبه ولم يَثُبْ إليه حِلمه ولم يَقَرَّ هائجه، أخذ الناس يسعون بين سَلْمٍ وبينه بالصلح، وسلمٌ يفرُّ من وجهه فراره من الطاعون، وكان سلم الخاسر تلميذًا لبشار وراوية لشعره.

ثم هدأ بشار بعض الهدوء فأحضروا سَلْمًا، فتقدَّم وجِلًا من أستاذه، فقبَّل رأسه وقعد بين يديه، وقال له: خِرِّيجُك وأديبك يا أبا معاذ! فقال له بشار: تأخذ معنىً تعبتُ في استنباطه وتكسوه ألفاظًا أخفَّ من ألفاظي حتى يسير بيتك ويذهب بيتي! لا والله لا أرضى عنك أبدًا. وكاد المجلس ينفضُّ على هذا، ولكن أهل الخير ألحُّوا … فكان الرضا من بشار، لكن على مضض. وبشار في هذا الموقف فنان غيور على فنه، وناقد للشعر فاهم له، وقد أدرك أن بيت سلم أرشق من بيته، وهذا سبب تلك الغضبة المضرية.

عندما يعشق الحمار

ولبشار بَدَوَاتٌ تنتفخ بها كتب الأدب. مات حماره فرآه في المنام، وأنشده الحمار في المنام قصيدة عصماء يصف بها سبب موته، ويقول: إنه عشق أتانًا (حمارة) عند باب الأصفهاني. ويمضي الحمار قائلًا:

تيَّمتْني يوم رُحنا

بثناياها الحسانِ

وبغنج ودلال

سل جسمي وبَراني

ولها خد أسيل

مثل خد الشيفرانِ

ولذا متُّ ولو عشـ

ـتُ إذن طال هواني

وعندما أنشد بشار القصيدة، سأله أحدهم: وما الشيفران؟ فقال بشار: هذا من «غريب» الحمير، فإذا لقيت حمارًا فاسأله.

ونحن نعلم -والقواميس بين أيدينا- أن الشيفران كلمة اخترعها بشار؛ لأن القافية أعجزته، وجعلها من «غريب» الحمير، والغريب لفظة تطلق على مجموع الكلمات الصعبة في اللغة. وكان بشار يبتز الناس ملوحًا بلسان تتناثر منه القاذورات. ولم يفلح في إرهابه -فيما نعلم- إلا الشويعر أبو الشمقمق؛ فقد جاء إلى بشار يومًا فقال له: لقد مررت بصبيان ينشدون:

هللينه هللينه

طعنُ قثَّاة لتينةْ

إن بشارَ بنَ بردٍ

تيسٌ عمى في سفينةْ

ففهم بشار التهديد المبطن، وعلم أن أبا الشمقمق يهدده بتلقين هذين البيتين السخيفين للصبيان ما لم ينل «المعلوم»، فأخرج بشار مائتي درهم، وقال لصاحبه: خذ هذه، ولا تكن راوِيَةً للصبيان. وقد تذكَّر بشار هذين البيتين بعد سنوات في موقف صعب.

عندما يموت بشار

في موت بشار روايات يدخل بعضها في بعض، ونحن نختار منها رواية تعجبنا. قيل: إن الخليفة المهدي انحدر في سفينة إلى البصرة، فلما وافاها سمع أذانًا فقال: «أذان في غير وقت الصلاة!» وأمر أن يُؤتى بالمؤذن، فجيء به، فإذا هو بشار، وكان سكرانًا. فسأله المهدي عن أذانه فقال: «خرجتُ من الحانة ورأيت في نفسي نشاطًا، فوجدتني قرب المسجد وليس ثمة شيء آخر أصنعه فقلت: أصعد المئذنة وأؤذن». فأمر به المهدي فطُرح على ظهر سفينة وضرب بالسياط، وما زالوا يضربونه وهو يقول: «حسِّ ... حسِّ!» وهي كلمة معناها: أخِّ! وقال بعض أفراد الحاشية: «انظروا إلى الزنديق، إنه لا يحمد الله». فقال بشار: «أهي أكلة فأحمد الله عليها؟»، ثم لما أشرف على الموت قال: «ليت عين أبي الشمقمق تراني حين يقول: إن بشار بن برد/ تيس عمى في سفينة».

ومات بشار تحت السوط عن ست وسبعين سنة، وأُلقيت جثته في مستنقع فأخرجها أهله ودفنوه.

الأعيرة و«الحمير»

«الرصاص من النحاس». هذه عبارة فاسدة كيميائيًّا، فالرصاص فلز، والنحاس فلز آخر، ولكن لماذا نسمِّي العيارات النارية رصاصًا. أولًا: ليس هناك أبغض إلى نفسي من كلمة العيارات النارية إلا كلمة «الأعيرة النارية»،

وكلمة «أعيرة» في اللغة العربية معناها الحمير. ثانيًا: الطلقات النارية لا بأس بها. ولكن لو أسقطنا كلمة النارية لكسبنا الإيجاز والدقة. فالطلقة لا تخلف نارًا بل شررًا. ولكنني أفضل على هذه وتلك وهاتيك كلمة الرصاصة، فلهذه الكلمة تاريخ.

كان الفرس يتخذون أنبوبًا من قصب يضعون في فوهته حبة بندق وينفخون بقوة فتنطلق البندقة من الجانب الآخر. وكانت هذه البندقية تستخدم في التسلية. إذن فقد عرفنا الآن من أين جاءت كلمة بندقية.

وعند خلفاء بني العباس اقترنت فنون الفرس وحضارتهم الرقيقة بصلابة البدو، فصاروا يتخذون البندقية لمعاقبة المهرجين والشعراء الفاشلين في مجالسهم على سبيل الدعابة والتسلية، وعلى سبيل الترويح عن النفس بالعبث بالآخرين وإهانتهم. وخطر ببال بعضهم أن يجعل في مكان البندقة الخفيفة كرة من معدن الرصاص الثقيل لكي يزداد الألم وتزداد التسلية.

وعندما اخترعت البندقية الحديثة تذكر العرب راشقة البندق فسمَّوها بندقية. وتذكروا الكرات الرصاصية فسموا الطلقة رصاصة.

غرفة تبحث عن اسم

• إذا تعلق الأمر بتلك الغرفة الصغيرة من المنزل التي لا تكون رائحتها زكية دائمًا فإن اللغة تستحي وتغطي وجهها بكفَّيها وتلجأ إلى الكنايات. يسمون تلك الغرفة بيت الماء، وبيت الراحة، وتلكما كنايتان تبلغان حدَّ الكذب أو التمويه على الأقل. كأن الرجل يظل متعبًا يتصبب عرقًا وهو في غرفة الجلوس أو غرفة النوم، حتى يرد بيت الراحة فيستريح!

• كانوا قديمًا يلبون نداء الطبيعة الملحَّ في الخلاء، حيث لا عين ترى ولا أذن تسمع، ولا أنف يشم. ثم صاروا يؤدون هذا العمل الحيوي في غرفة بساحة المنزل أو بداخله. ولكنهم ظلوا يقولون: غرفة الخلاء أو بيت الخلاء.

• ويقولون هذه الأيام «الحمام»، فالمعمار الحديث جمع الاغتسال والشيء الآخر في حيز واحد.

(21) مايو/ أيار ١٩٩٢.

الفصل الثاني والعشرون

الضبط والإعجام، وسلطة أتلي بين التكليف والتشريف،

والقتل هاتفيًا بشِحنات نووية(22)

كان محمد عبد الوهاب يكثر من شراء الأعواد، ويقول: إن العود الجديد يفتح النفس على التلحين. أنا أكثر من شراء الأقلام، ولكن الله لا يفتح عليَّ إلا بهذه الخواطر البليدة والحكايات المملة. وقد عرفت خطاطًا كان شحيحًا على نفسه مقتِّرًا على عياله، فإذا ذهب يشتري أقلامه وأحباره رأيته ينفق إنفاقًا ذريعًا، ولا يرضى إلا بالأجود والأغلى. وعرفت مترجمًا كان يجمع القواميس مثلما كان يجمع المراهقون طوابع البريد، وكان يقول: إن القواميس رأس مالي. أعتقد أن التجميع طبع راسخ في ابن المدينة المستقر. وأما البدوي فإن أسلوب حياته يفرض عليه أن يأنف الكَنز.

القتل هاتفيًّا

لم يقع اليورانيوم المخصب في قبضة العصابات الإجرامية فحسب، ولم يطوروا مسدسات نووية فحسب، لقد صار في مقدورهم أن يصعقوا خصومهم بشحنات نووية خفيفة يمررونها عبر الهاتف. يرفع الخصم السماعة ويفتح فمه ليقول هلو ... ثم لا يقولها بل يسقط أرضًا، قتيل العلم، وشهيد التكنولوجيا.

صار اليورانيوم بدعة عتيقة لا تلجأ إليها إلا العصابات التي تعمل في أسواق الخضار. العصابات المتطورة نشَّطت الحديد والألومنيوم أيضًا. صار كل شيء يبصق إشعاعات على بني آدم. حاولت أوروبا أن تنزل تحت الأرض. بُنيت الأنفاق، وأُنشئت مدن تحت المدن، وشوارع تحت الشوارع. ثم أُسست عصابات تحت العصابات. وصارت جرائم الأنفاق أدهى من جرائم الشمس والهواء. جربت أمريكا القبضة الحديدية، ومرت بعصور متعاقبة من الدكتاتورية، ومن «الدين الجديد» والتصفية حسب قاعدة «ثلاثة زائد اثنين». ولكن الانتحار ظل مستمرًا مستمرًّا. (ملاحظة: العبارتان المحصورتان بين علامات تنصيص من المصطلحات التي لا يعرفها إلا الراسخون في العلم). كل ذلك كان يتسارع بوتيرة خرافية. في سنة وثلاثة أشهر انخفض عدد السكان إلى الربع في العالم الصناعي. المشكلة هي أن العارفين بأسرار الانشطارات كانوا ضمن هذا الربع المتبقي. وظل الربع يتآكل ... واستمر الانتحار. وأخذ العالم الثالث -المفتون بالمستورد- يستورد المسدسات النووية. وهي مسدسات عادية في شكلها، وإنك لترى المسدس منها فتحسبه مسدسًا لعبةً يرش ماءً. لكنه ينشِّط خامل الذرات، ويحيل الأحياء إلى أموات.

وبدأت الملحمة في العالم الثالث متأخرة بضعة أشهر. وقد استمرت فترة طويلة. لأن العالم الثالث كسولٌ فيما فيه موته كسلَه فيما فيه حياته.

بعد عشر سنوات من بدء الانتحار كانت معظم مناطق العالم الثالث قد دخلت «المرحلة الرابعة»، وهذا المصطلح يشير إلى انخفاض عدد السكان إلى جزء

من ستة عشر جزءًا. في ذلك الوقت كان قد مضى زمن طويل على موت المناطق الصناعية. المشايخ الرسميون في ديار الإسلام خاضوا حملة بالتعاون مع السلطات لإنعاش الوازع الديني من أجل وقف مد الطاعون النووي. ولكن الدراويش وعامة المسلمين سلّموا واقتنعوا بأن الأمر كله في غاية البساطة: إنها القيامة. الحقيقة أن كل ذلك لم يكن سوى نُذر الساعة. بقي من البشر في مرحلة «الصفر الأقصى» -وهو تعبير معقد في علم رياضيات «الزمن الأخير»- اثنان: رجل وامرأة. الرجل عربي قح، والمرأة من شعب الإسكيمو، وقد كانا يجلسان على صخرة في سيبيريا عندما حلت مرحلة «الصفر الأقصى». وثمة ظروف معقدة لاجتماعهما لا مجال لشرحها هنا.

في تلك اللحظات أخذت ملايين الأرواح تحوم فوق سيبيريا. تكهن عدد كبير من أصحاب هذه الأرواح بأن المتوالية الهندسية ستبدأ من «الصفر الأقصى»، بحيث يؤول هذا «الصفر الأقصى» إلى «الكاد»، وهذا مصطلح آخر لن أضيع الأسطر في شرحه، ولا سيما أنه مرتبط عضويًّا بنظرية رياضية معقدة عرفت لاحقا باسم «سراب سيبريا»، ولكن الأرواح التي كانت تتفلسف وتبتدع النظريات بينما تراقب الرجل والمرأة أصيبت بخيبة أمل. تقاتل الشخصان، وأنشبت المرأة أظفارها في وجه الرجل وفقأت عينه.

بكت بعد ذلك واعتذرت، ثم أرادت أن تأتيه بسمكة عربون الصلح. فغاصت في ماء البحيرة وظلت غائصة ... ماتت. وأراد هو أن يصطاد سمكة فغرق ومات، مات جوعان رغم أن كل طعام العالم كان ملكه.

السمكة بقيت في الماء.

كليمنت أتلي

السيفولوجي هو علم تحليل نتائج الانتخابات، وأصل الكلمة يوناني: «سيفوس» معناها حصاة. وكانوا في أثينا القديمة يدلون بأصواتهم بإلقاء الحصى في أوعية فخارية. ويدرس علماء السيفولوجي الإنجليز الآن نتيجة الانتخابات الأخيرة التي فاز فيها المحافظون متحدِّين كل استطلاعات الرأي. لكن أكبر مهمة واجهت السيفولوجيين الإنجليز كانت تحليل نتائج انتخابات عام ١٩٤٥؛ ففي هذا العام كان على الناخب البريطاني أن يختار بين تشرتشل بطل الحرب الذي انتصر قبل أسابيع على هتلر، وكليمنت أتلي زعيم حزب العمال.

تُنسب لتشرتشل عبارة لاذعة، قال: «وقفت سيارة خالية أمام ١٠ داوننغ ستريت، ونزل منها كليمنت أتلي».

وقد قال أتلي لخلصائه قبيل الانتخابات: لو أننا هُزمنا بفارق أربعين مقعدًا لما كان ذلك أمرًا سيئًا. ولكن النتيجة فاجأت أتلي وتشرتشل والعالم. لقد فاز حزب العمال ... وبفارق مائة وثمانين مقعدًا عن حزب المحافظين بزعامة تشرتشل. أصبح أتلي رئيسًا للوزراء. ونفَّذ، على مدى ست سنوات، برنامجًا حافلًا ما زال حتى اليوم يؤثر في الحياة اليومية في بريطانيا.

ويبدو أن أتلي ظل مغمورًا في بلاده وفي العالم حتى بعد فوزه، وحتى بعد موته. وقد روى اللورد لونجفورد في كتاب له قصة عن كليمنت أتلي.

قال لونجفورد: «بعد أن عيَّنني أتلي وزيرًا للبحرية دعاني وزوجتي إلى العشاء. خرجنا معًا وكانت معه زوجته، وهمس في أذني بحياء قائلًا: أنا لا أعرف المطاعم في لندن، هلَّا اخترت مطعمًا. واقترحت مطعمًا في ميدان سلون، وحرصت على أن تكون أسعاره معقولة، وبعد تناول العشاء ... كانت في انتظارنا مشكلة أخرى وإحراج آخر. همس أتلي في أذني مرة أخرى قائلًا: هل لك أن تدفع الحساب، وسأكتب لك صكًّا بالمبلغ، فأنا لا أحمل ما يكفي من النقد، والنادل لن يقبل مني الصك».

كان هذا قبل عصر التلفزيون، وقد ظل كليمنت أتلي بعد انتهاء ولايته يتوجه إلى منزله من البرلمان إلى ضاحية «جريت ميسندن» بقطار الأنفاق دون أن ينتبه كثير من الركاب إلى أن جليسهم في المقطورة هو أقوى رجل في البلاد. كان أتلي يدرك أن السلطة تكليف لا تشريف.

الضبط والإعجام

اصطلح المعجميون العرب على عبارات يذكرونها في مواضع الضبط والإعجام، (الضبط هو التشكيل بالحركات، والإعجام هو وضع النقط على الحروف). وفي هذه العبارات المصطلح عليها شيء كثير من الطرافة. ولعلنا نستطيع أن نغوص على شيء أعمق من مجرد هذه الطرافة إذا لانَ لنا السياق ووجدنا المخرج.

كانوا يقولون مثلًا: عُلِم (بضمة فكسرة)، وأما الفتحة الأخيرة فشيء لا فكاك منه فكانوا يهملون ذكرها. وقد يوردون كلمة «الرغم» ويصفونها بأنها (مثلثة الراء)، يقصدون أنه يباح لك أن تجعل حركة الراء ضمة أو فتحة أو كسرة، فكل ذلك جائز. وأطرف من الضبط الإعجام، كانوا يقولون (غبن، بالغين المعجمة) حتى يفهم القارئ أن الغين هي ذات النقطة. وبهذه العبارة يتجاوزون غلط النسَّاخ. ولو اكتفوا بالقول: «غبن.. بالغين» فقد يسقط الناسخ النقطة عن الغين في الكلمتين، ولهذا قالوا: المعجمة، أي ذات النقطة. وقالوا: عسل، بالعين المهملة) أي غير المنقوطة. ومن عباراتهم تلك (جفل،

بالجيم) ولا يقولون: إن كانت معجمة أم مهملة فشكل كلمة «الجيم» يؤدي الغرض. وأما في عبارة (حمل، بالحاء المهملة) فقد نصوا على المهملة خوفًا من خلطها بالخاء. وميزوا الباء عن غيرها بعبارة (الباء الموحدة السفلية) فهي ذات نقطة واحدة وهذه النقطة تقع تحت الحرف. وقال بعضهم (الباء الموحدة) فقط، لأن الحرف الآخر الذي فيه نقطة واحدة على سن هو حرف النون، وكلمة «النون» مختلفة في رسمها عن كلمة «الباء». ووصفوا حرف الثاء بقولهم (الثاء المثلثة)، وحرف التاء بقولهم (التاء المثناة العلوية). وقس عليه. وفي هذا كله دقة جيدة وإضاعة للجهد والورق والوقت في آن معًا. لم يعد عندنا مشكلة في الإعجام لأننا لم نعُد ننسخ الكتب. ولكن مشكلتنا في الضبط ما زالت قائمة. كلنا: المتعلمون وأنصافهم وأرباعهم، ومعلم اللغة العربية ومعلم الرياضيات، كلنا نغلط في الفتحة والضمة والكسرة في أول الكلمة ووسطها وآخرها.

الحركة على آخر الكلمة تتغير بحسب إعرابها، ويجب أن يكون المرء عالمًا من علماء النحو حتى يقل غلطه فيها. وأما الحركات التي في أول الكلمة ووسطها فهي من اختصاص علم الصرف. ولا أظن أن أغلاط الصرفيين فيها أقل من أغلاط الصيارفة. ومن كثرة الغلط صار كل شيء جائزًا. فقل: مركز بفتح الكاف أو بكسرها، وقل: ثكنات بضم الكاف أو إسكانها.

وأذكر في هذا السياق أن نفرًا من الغيورين على الفصحى اختلفوا في جمع ثكنة، فقال بعضهم: ثكنات (بفتحة ففتحة)، وقال بعضهم: ثكنات (بضمة فضمة)، وقال آخرون: ثكنات (بضمة فسكون). وراح كل منهم يعزز رأيه بالأدلة والأقيسة وقواعد الصرف، ولمَّا لم يُقنع أحدٌ أحدًا اتفقوا على الرجوع إلى القاموس. وكان القاموس المتيسر هو المنجِّد، فضحك المنجِّد منهم جميعًا وقال لهم: الجمع هو ثُكن «بضمة ففتحة»، فقبلوا حُكمه جميعًا؛ لأنه حكم جعل الصلح سهلًا. وراحوا جميعا يقولون: يا سلام ... لغتنا بحر لا ساحل له. ولو فتحوا قواميس أخرى لعرفوا أن بالإمكان جمع هذه الكلمة على أي وجه من الأوجه ... كل شيء جائز ... كل شيء صحيح. وهذا من مشكلات اللغة العربية.

بطرس الجبار

كان ارتفاع بطرس الأكبر عن سطح الأرض مترين. كان جبارًا ينزع حدوة الحصان بيده. ورغم أنه ملك ابن ملك فقد كان نجارًا حدادًا مهندسًا بنَّاءً عالِمًا بصناعة السفن وبإنشاء الجسور. طاف أوروبا ينشد العلوم الصناعية، وعاد إلى روسيا لينشئ أول مستشفى وأول مرصد، وليجرب خبراته في مجال الجراحة وقلع الأضراس. وكان يسكر ويعربد، وقد يدعو أصحابه إلى العشاء،

فيقدِّم لهم الفئران والضفادع مطبوخة بعناية ومموهة، فإذا ما توغلوا في أطباقهم، أعلن أن ما يأكلون إنما هو الفئران والضفادع، فترتفع الأيدي عن الطعام فيأمر القيصر بالاستمرار حتى يتحقق الشبع وتفرغ الأطباق. هذا القيصر بنى مدينة بطرسبرغ لتكون نافذة روسيا على أوروبا، وسُمِّيت باسمه. وجاء لينين وسموا المدينة بعده لينينغراد. والآن أعادوا الاسم القديم بطرسبرغ. وارتفعت درجة حرارة مساعيهم للانفتاح على أوروبا. يبدو أن تاريخ روسيا هو تاريخ الشرق اللاهث ركضًا وراء الغرب.

أقوال مأثورة

• الإسلام يُحسن معاملة الأقليات، وله في ذلك تاريخ طويل، ولكن المسلمين لم يتعودوا أن يكونوا أقلية. (كليفورد لونجلي)

• ما اجتمعت لغتان في لسان واحد إلا أدخلت إحداهما الضيم على الأخرى. (الجاحظ)

• من حسن حظنا أن لغتنا هي لغة التعامل الأولى في العالم، ولكن هذا يجعلها اللغة التي يطوعها كل قوم على مزاجهم ويخلطونها كيفما شاءوا بغيرها. (الأمير تشارلز، ولي عهد بريطانيا)

• أكثر اللغات انتشارًا في العالم: الإنجليزية المكسرة. (رجل أعمال ياباني)

• بقى يقول لي، وأنا أقول له ... وخلَّصنا الكلام كله. (بيرم التونسي)

• ثَمَرٌ بقدر الإبهام كأنه جِراء القُثَّاء، شديد الخضرة، إلا أن عليه زيبرا مشوكًا، وهو مخمَّس الشكل. فإذا شُقَّ انشق عن خمسة أبيات بينها حواجز، وفي تلك الأبيات حب مصطفٌّ مستدير أبيض، أصغر من اللوبيا، هشٌّ يضرب إلى الحلاوة، وفيه قَبضٌ ولعابيَّة كثيرة. (عبد اللطيف البغدادي يصف البامية).

(22) يونيو/ حزيران ١٩٩٢.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث والعشرون

حديث الصابون الذي لا يذوب حتى يُصهر، والسعد الذي صار بختًا، وعيادة الدكتور حسن (23)

حضرة رئيس التحرير: رأيتُني كلما دفعتُ إليك خواطري الهائمة في سديم العبث، دفعتَها أنت إلى المطبعة. وما زال هذا دأبي ودأبك. وإنني لأزداد غرابة أطوار واصطيادًا في بحار اللَّامعقول، وإنك لتسايرني. فإن كنت تتحداني، فأنت وذاك: خذ من الأسماك الملونة ما تشاء، وإن كنت تقول: هذه خزعبلات فيها بعض فوائد منثورة، ولا بأس من الترويح عن القارئ بها، فإنني أعدك ألا أدخر جهدًا في تقليل الفوائد وتكثير الترويح، وعندي أن الكتابة الحسنة هي الكتابة الممتعة. وأما الفوائد ففي بطون الكتب والموسوعات. وإذا بدا لك أن تصدِّر مقال هذا الشهر بهذه الرسالة فلا ضرر ولا ضرار. وإلا فاقتطع أسطرًا من أي فقرة واجعلها في الصدر. وقد جاء في المثل: زيت ولبن ... لبن وزيت.

حديث الصابون

الصابون كلمة فارسية وجدت طريقها إلى اللغات الأوروبية قبل مئات السنين. وأخذها العرب فيمن أخذ. وكان بعض العرب يسمي المِلحة التي يساعدون بها الماء على إذابة الأوساخ الزيتية «الغاسول» أو النُّورَة. والقطعة من الصابون تسمى لوحًا، وتسمى فِلْقَة، وقد تسمى كرة. الأمر منوط بشكلها. وقد عشت زمن الصابونة الكروية، صبيًّا ثم يافعًا، ثم صد الناس عن هذا الشكل الصابوني البغيض ... ولو سمع فلاسفة اليونان القدماء بهذا الصدود لزوَوا الحواجب وزمُّوا الشفاه؛ إذ كانوا يعدون الكرة الشكل الوحيد الكامل كمالًا مطلقًا، وعلَّلوا ذلك تعليلات منها أنه الشكل الذي يضمن المساحة الدنيا للسطح وأقل قدر من الاحتكاك، وجاء فلكيُّو زماننا فرأوا أن الشموس، وهي أجرام من لهب وغاز، اختارت جميعًا أن تتكور، وربما قال أحدهم لنفسه: ما كان أصعب ما ستكون مهمتنا في التحليل والتعليل لو أن كل نجم وكل كوكب اختار لنفسه شكلًا مختلفًا.

عَودًا إلى الصابون، ما أظن إلا أن أحد أصحاب المصابن عنَّ له في لحظةِ تجلٍ أن يَخرُجَ عن التكعيب إلى التكوير، فأخذ يسكب حممه الكيميائية في قوالب كروية. وصارت بدعة. إنني لعلى يقين من أن جلَّ الناس في زمننا لا يعرفون الشقاء الذي يعانيه من يريد أن يغسل يديه بصابونة مكورة. تخيل أنك تمسك بين كفيك كرة صابون لزجة ملساء بلغت في ملاستها حدَّ الكمال المطلق؛ إنك تظن أنها ستدور وتدور بين كفَّيك وتفرز المزيد من لعابها

الكيميائي. ثم لا وسخ ولا وَضَر! وهذا هو ظن غير المجرِّب الذي زيَّن له علمه النظري أن في مُكنته أن يحكم على الأشياء بتقليبها في ذهنه أوضاعًا وصورًا. وهيهات أن يسد التخيُّل مسدَّ المعاينة، ومسدَّ التقليب والتدوير بين اليدين.

وإذا أرادني القارئ أن أطرح جانبًا هذا البحث الجليل الخطير، فلا! لا يحسن بنا أن نترك الجاهل على جهله، ولا بد لنا أن نجلو الغوامض، ونفك المغالق؛ لئلا يقع في الأوهام أننا نريد أن نحبس العلم في صدورنا، وأن نضنَّ على الأمة بما أودعه الله في قلوبنا من معارف. ولا والله، لا أدع حديث الصابون حتى أبلغ به الغاية.

قلتُ: إنني لحقت عهد الكرات الصابونية يافعًا، والحقُّ أن هذه الكرات لم تنقطع بعد ذلك ألبتة، فقد ظل يبيعها رجل عتيق أحسبه عاصر المماليك؛ لما كان يحشد في دكانه من البضائع البلدية من أجبان وأسمان وتوابل. وقد رأيت عند ذلك الرجل يومًا (وكنت قد دخلت في الشباب واكتريت لنفسي حجرة أرضية في منزل امرأة خمسينية، ترمَّلت وفي عظامها شيء من الحرارة، فراحت تنفس طاقاتها في التنكيد على عباد الله، الأقرب إليها فالأقرب، وكنت أقرب الناس، وكان حظي من النكد عظيمًا)، أقول: رأيت عنده صابونًا من ذلك الصابون، كُرات مكومات في مرطبان زجاج. فقلت في نفسي: لقد والله خاب المُحدَثون. ما لهم نفروا عن الصابون المكور! وإن شكله لتام، وإن الغُسل به ليجلب إلى النفس سرورًا فلسفيًّا. وما زالت المسألة تتفاقم في ذهني حتى دعوت الرجل إلى أن يزن لي رطلين من ذلك الصابون. وبالوزن كان الصابون في بلدنا -نابلس.. أمِّ الصابون- يباع.

قصدت حجرتي في تسوية ذلك المنزل «المسكون» بالخمسينية، وأنا في غاية الطرب. أخرجت صابونة ونظرت إليها بإعجاب نظر الأم إلى وليدها. ويمَّمت شطر المغسلة. وضعت الصابونة بين كفيَّ، ورحت أسكب الماء، وأنا أظن أنها ستدور وتدور. ولكنني تحققت في ثوانٍ أن هذه الآلة إنما هي من «الآلات الدائمة الحركة» التي لا تتحرك. وتلك الآلاَت كانوا يصممونها معتقدين أنها ستدور إلى الأبد دون طاقة، ثم لا تدور.

لو كانت صابونتي مكعبة لكنت أستطيع أن أدفعها من جهة إلى جهة فتتدحرج -على تكعيبها- بين كفيَّ. ولكنها مكورة ولا سبيل إلى دفعها. لا زوايا ولا سطوح، إنما هو سطح واحد حاز الكمال المطلق وامتنع عن الحركة. النتيجة: خيبة عريضة. الحل: شطر الصابونة إلى شطرين؟

لم يكن حلًّا مرضيًا.

الحل النهائي: تذويب رطلي الصابون في صينية الفرن. النتيجة النهائية: تصاعد أبخرة شيطانية ... حالة اختناق احتملناها ببركة السعي إلى تجنب الندم العظيم. نتائج جانبية: فتح النافذتين كلتيهما، الأبخرة تتصاعد، الأرملة تنزل وتدق الباب دقًّا دقًّا: أحرقتَ البيت، سخَّمتَ الجدران ... بيتي ليس قَمِّيمًا! (والقميم مكان إحراق القمامة).

أطفأت النار تحت الطبخة، وهربت من وجه أم فلان. وبتُّ ليلتي في المطبعة، فتسليت بتصحيح الأغلاط وشممت رائحة الحبر والورق، وهي في أنفي أزكى من عبير الورد في شباب الربيع. ثم انتظرت ساعة حتى رفست المكنة الهائلة النسخة الأولى من الجريدة، وليس أبهج إلى قلب الصحفي من تصفح النسخة الأولى، ولا سيما إذا لم يكن مقاله حافلًا بالأغلاط المطبعية، فرشتُ الجريدة على الأرض، واضطجعت ساعة لم أفكر فيها بالصابون. وعندما جاءت سيارة الجريدة رشوت السائق بسيجارة فأوصلني إلى حجرتي. وجدت الصابون قد ذاب تمامًا وانساح في الصينية واستوى وتصلَّب، فقطعته ألواحًا ... فما كان أسهل ذلك ولمَّا يزددْ صلابة ويقسُ على السكين. قلتُ في نفسي: لعل كيمياءه قد اضطربت، ولعله صار يوسخ الأيدي بدل أن ينظفها، ولكن الحظ كان قد ابتسم، وصار عندي متوازيات مستطيلات فاخرات، صففتهن على الرف مثلما صفَّ الطنبوري عطوره.

ومنذئذ وأنا أهرب من الكمال. حتى لقد انصرفت عن كرة القدم إلى الرياضات التي ليس فيها كرات.

صابونات مشهورات

من أُمَّة الصابون المكوَّر صابونة الركبة. ولا أدري إن كانت العرب قد سمَّت ذلك العظم الغضروفي «صابونة» أم لا، ولكنه مجاز فصيح، وقد كان لي صديق في أيام الشباب الأول يتخصص في ركب الحسان -كانت تلك أول أيام «الميني جوب»- فكان له في الركبة وجمالها وأوضاعها المختلفة نظريات في غاية المجون. كان يعشق الركبة عشقًا غير سوي. وأظن أن أهل السيكولوجيا يلحقون صاحبي ذاك بالفتيشيين، وهم قوم يتركز اشتهاؤهم في عضو بعينه أو شيء ما من لوازم الجنس المقابل: حذاء أو سروال مثلًا.

ومن أمة الصابون المكور صابونة «مطعم الأمانة». وهذه أيضًا صابونة مجازية، وإن كان المجاز هذه المرة يتعدى الفصاحة إلى الغش. وكان صاحب مطعم الأمانة يقشر رأس لِفْت ويدوره تدويرًا ثم يضعه على المغسلة للزبائن الذين يفدون من القرى المجاورة، يدورونه بين أكفهم طول النهار. فإذا حل وقت الرواح قطع صاحب المطعم رأس اللفت ووضعه في مرطبان المخلل.

ومن أمة الصابون صابونة الدكتور حسن. لا أدري لم كان يضعها على المغسلة في عيادته. فلم أرها يومًا إلا جافة مصدعة، فقد كانت منزهة عن الماء. وكان الدكتور يمسح يديه بعد كل مريض بمريوله الأبيض الذي كان أدنى إلى مراييل الجزارين منه إلى مراييل الحلاقين، بله الدكاترة. والدكتور حسن -والحديث يجر الحديث- عجب في الدكاترة وفي البشر كلهم. عندما طلعت موضة مرض السكر، وصار الناس يصابون به، وضع الدكتور حسن على منضدته مصحفًا. فكلما جاءه مريض بالسكر، أرغمه على أداء اليمين على المصحف ألا يأكل الكنافة والبقلاوة إلا في رمضان. وكان المرضى يؤدون اليمين ... ثم يبرُّ بعضهم ويحنَث بعضهم، ولم يكن الحِنث أمرًا هيِّنًا، فالله مطلع على الأفئدة، والدكتور حسن بالمرصاد. كان كلما أقفل باب عيادته عصرًا قام بدوريَّة على محلات تقديم الكنافة والمعجنات، فيسأل صاحب كل محل: هل جاء عندك فلان؟ وهل طلب أوقية كنافة أو نصف أوقية، (وأوقية بلدنا ربع كيلو).

مرة جاءه رجل مسيحي عنده بوادر أزمة صدرية، فاتفق الدكتور حسن معه على الاكتفاء بخمس سجائر كل يوم ... وعندما حصل الإيجاب والقبول مدَّ الدكتور يده إلى المصحف، ثم تذكر أن الرجل ليس مسلمًا، فالتفت إلى الرف من خلفه وتناول معجم الأوبئة السارية، وقال له: احلف يا أخي على الإنجيل. فكاد الرجل أن يفقع من شدة ما كبت ضحكته، فقد كان متعلمًا ... وكان يعرف شكل الكتاب المقدس ... فلم يبد في وجه الدكتور حسن أي شعور بالإحراج، بل ذهب إلى أقصى الغرفة وأخرج من الخزانة لفة منكرة أخذ ينزع غلافها بتأن وحرص حتى أخرج منها سندويشًا وضعه على المنضدة وقال: احلف على الخبز يا أخي.

البخت

«الحظ قد ابتسم»! يعلم الله أن هذا التعبير مترجم عن لغة أوروبية، وله في العربية المعاصرة آلاف الأشقاء المترجمات. ولا أرى في ذلك ضيرًا. وقد كتبت الفقرة السابقة وأنا أسعى جاهدًا -لا جادًّا- إلى تقليد لغة القدماء؛ طلبًا للترويح ولحسًا من الزرنيخ العتيق، ولكن أين المفر من التعابير المترجمة؟

الحظُّ هو النصيب. الفُرس أخذوا كلمة النصيب عن العرب، والأتراك أخذوا عنا كلمة قِسْمة، والإنجليز أخذوا هذه الكلمة عن الأتراك وما زالت في معاجمهم ويكتبونها (Kismet) مراعاة للنطق التركي. وأخذ الفرس «قسمة» أيضًا. وأبى كثير من العرب إلا أن يستعيروا كلمة «بخت» من الفرس. وكان العرب القدماء يسمُّون الحظ «السَّعْدَ» فإذا كان حظًّا سيئًا سموه نحسًا أو شؤمًا، وكان الشعراء أميل إلى كلمة الجَدّ. والمجدود هو المحظوظ. والجد بفتح

الجيم أو بضمها هو الحظ، وأما بكسرها فهو ضد الهزل، وهذا كلام قواميس، ولا أضبط ذلك سليقة، بل أهرع إلى القاموس كلما أردتُ التفريق بين هذه وتلك وهاتيك.

أقوال غير مأثورة

• السيارة صندوق حديد يشعرك بالحرية والانطلاق ... وتصبح عبدًا له.

• الديمقراطية هي حرية الأغلبية في الغرب في استغلال الأغلبية في العالم.

• من بلغ الثامنة عشرة ولمَّا يدخل دنيا المثالية فهو بليد. ومن بلغ الثامنة والعشرين ولما يخرج منها ... فهو أحمق.

• الإعجاب بشعب قد يجعلك تحترم كل نفر من هذا الشعب، كل الناس يرتكبون هذه الحماقة.

• اللغة الأجنبية أداة مفيدة، كالملعقة مثلًا، ولكن الناس يضعونها في سلسلة ويعلقونها على صدورهم للزينة.

• هناك موظف يحتمل الوظيفة وموظف يكرهها، ولا بد أن هناك موظفًا يحب الوظيفة ... إنني أبحث عنه منذ عشرين سنة.

• الحافلة منصة متنقلة بين المكتب والبيت مخصصة لممارسة أحلام اليقظة.

• الذي يغتاب الناس جبان لا يؤذي، والذي يشي بهم جبان يؤذي.

• الغيبة نشاط اجتماعي مهم؛ فإذا اجتمعنا يا صاحبي على نيَّة الغيبة فإياك أن تتركني أبدأ ثم تكف لسانك، فهذا غدر، والغدر ليس من شيم الكرام.

(23) يوليو/ تموز ١٩٩٢.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع والعشرون
الضيف الثقيل، والمنجنيق «البالستيّ»، والضحك على درجات، وباب «التوقيعات» (24)

أريد أن أكتب عن الثقلاء ولا أعرف كيف أبدأ. وحتى لو أومض السطر الأول في الدقائق القادمة، فلست أحسن تقديم تحليل نظري مجرد للثقيل. وقع في ورطة مثل ورطتي هذه البهاءُ زهير، فقد بدأ يصف رجلًا ثقيل الظل في قصيدة، فما وصل البيت الثالث حتى انقطع نفسه، فكان البيت الرابع البيت الأخير:

وعلى الجُملةِ فالشيـ

ـخُ «ثقيلٌ» والسلامْ

قد تنفع الأمثلة، وتقوم الشواهد مقام الشرح النظري.

ثقيل على مائدة

دعوتُ إلى الغداء ثقيلًا ما كان من دعوته بُدٌّ. فلما انتظمنا حول المائدة أمسكت بالمغرفة أريد أن أكرمه وأقدمه فرفع كفه وقال: «يا سبحان الله، ما تصنع يا أخي! هات من يدك هات!»، وراح يعنِّفني باسم الأخوة والصداقة ووحدة الحال، ناولته المغرفة وأنا أقول في نفسي: «لعله يريد أمرًا». أخذها وقرع بها حافة قصعة المرق، ثم أطرق هنيهة ثم رفع رأسه، وقال: «صلِّ على النبي»، فقلت: «اللهم صلِّ على النبي»، قلتها عجِلًا مدغِمًا حرفًا بحرف، مدخلًا كلمة في كلمة كما يفعل عامة الناس. وقلتها وأنا أتعجله كي ينهي مسرحيته البغيضة. فقال: «زد النبي صلاة». فصليتُ على النبي وآله وصحبه والتابعين ومن والاهم إلى يوم الدين، بطيئًا متهاديًا أقلقل ما حقه القلقلة، وأشبع ما حقه الإشباع، وأعطش ما حقه التعطيش، وكأنني أشتغل في إذاعة لندن.

فقاطعني في آخر كلامي، كأنما شعر أنني دخلت مضماره وبدأت أجاريه، وقال: «يا أخي -وإخاؤنا قديم- أنا لست في بيتك، أنا في بيتي». فقلت في نفسي: «كذاب. والله ما دفع ثمن هذا الطعام سواي». ثم أخذ يقص علينا -وكنا خمسة أو ستة- كيف أن الاستهلال بالمرق يفسد الأمر كله. فالمرق حار يلسع اللسان، ولا يسع المرء وهو يحتسيه بادئًا به إلا أن يفكر بالأطايب القادمة، فيسرع في الاحتساء فيزداد لسانه اكتواءً. ثم قد تمتلئ المعدة مرقًا، فيقل اشتهاء المرء للحم والخضر والأرز.

ثم وضع مغرفة المرق في المرق، وتحول إلى ملعقة الأرز وجعل في طبق كل أحدٍ ملعقتين أرزًا، وأمرنا أن نأكل على بركة الله. رحت أتميز غيظًا. ألا يحق لي أن أكرم ضيوفي على راحتي، وأن أتمتع بشعور صاحب المأدبة؟

أراد أحدهم أن يتناول صدرَ دجاجة مع الأرز، فصرخ فيه صاحبُنا الثقيل قائلًا: أصلحك الله يا أبا فلان. أما أدركت الحكمة من تناول الأرز أولًا ... أتريد أن تدخل اللحم إلى جوفك دون أن تفرش له وِطاء لينًا. سامحك الله. ما رأيتُ رجلًا مثلك يريد أن يجلب على نفسه التخمة من أقصر طريق. فأقلع أبو فلان وقبضها على أنها نكتة، وإنه ليتميز غيظًا من هذا التسفيه. وأخذ صاحبنا الثقيل يمضغ الأرز بصوت منكر، وأخذ بعض الجالسين يحدق فيه تحديقَ تعجُّب فيه من الاشمئزاز ما فيه. ولكن الثقيل ضعيف الحساسية، راح يحدِّثنا عن سلق الأرز، ذلك الفن الدقيق. وكيف أن الطباخ الماهر يرفع قدر الأرز عن النار ولم تختلط أرزة بأختها. وإنك لو نثرت ملعقة من ذلك الأرز في الهواء لذهبت كل أرزة في ناحية من الحجرة. وأراد أحدهم أن يضع حدًّا لهذا الذي يحدث فقال: «ولكنني لم أر أجود سلقًا من هذا الأرز الذي نأكله الآن». فقاطعه صاحبنا وثنَّى على كلامه. وأخذ يقول: «إن ذلك الأرز المنثور لا بد أن يكون فيه حبات يابسات». ثم ما عيب اختلاط أرزة بأرزة؟ أليس مصير ذلك كله تحت الأضراس.

أصبنا شيئًا من كل طبق، وسمعنا محاضرة عن كل صنف من الأصناف التي كانت على المائدة. المشكلة في صاحبنا كانت أنه يعد كل عبارة يقولها أحد الحاضرين موجهة إلى شخصه فيقوم بواجب الرد. هناك ثرثار يقول أشياء سخيفة فيضحك الناس له ومنه، وأما الثقيل فيلقي عظات لا تستطيع معها إلا أن تسكت أو أن تقول له: «اسكت».

قُصَّ على الثقيل أي قصة، وأنا أضمن لك أنه سيقص عليك أطرف منها وأبدع منها وأبلغ منها وأعجب منها. قل له: إنك تغديت ثلاث دجاجات بثلاثة أرغفة، وسيحدثك عن صهره الذي أكل جديًا مشويًّا ودجاجتين، ولكي أكون صادقًا -هو يقول- فإنه ترك فخذ الدجاجة الثانية. ولكن، اسألني بالله عليك: ماذا فعل بعدئذ! لقد راح يتسلَّى قبل أن يقوموا عن الطعام برغيف، وراح يبحث عن مزيد.

الثقيل جلف سمج جامد الشعور. قد ينتظرك حتى تأتي على عبارتك ولكنه لا يصغي. إنه يسمع حديثك ليجد العيب فيه فيصلحه، ويأتي بحديث كامل تام. لو أنك اشتريت ساعة بمائة دينار، وقلت له: هذه بعشرة دنانير، لقال لك: لماذا لم تأخذني معك؟ لماذا لم تشاورني أولًا؟ هذه الساعة لا تساوي أكثر من خمسة دنانير. لقد رأيت مثلها عند فلان وفلان، وهي ساعة ممتازة، وإن كانت

تؤخر في الصيف وتقدم في الشتاء، وتصدأ من الماء والهواء. الثقيل ثقيل والسلام.

أصل الكلمة

علم الصواريخ (البالستية) هو بالعربية علم المقذوفات. وأصل الكلمة يوناني ومعناها قذف. ومنها كلمة «باليستا» التي معناها منجنيق. والمنجنيق نفسها كلمة يونانية معناها آلة الحرب وقد أخذها الإنجليز، فهي عندهم «مانجونيل». ولهذا السلاح القديم اسم ثالث في اللغات الأوروبية هو «كاتابولت»، والكلمة منحوتة من كلمتين يونانيتين معناهما مركز الرمي. وهناك كلمة رابعة تشير إلى ذلك الشيء بعينه: «تريبوشيه»، وهي مأخوذة عن الفرنسية القديمة. وقد ارتاحت العربية إلى كلمة منجنيق، وجمعتها على مجانيق ومجانق ومنجنيقات. فقال بعضهم: بل هي منجليق، والجمع مجاليق.

وسمَّى الإنجليز الصاروخ «روكيت»، وهي كلمة إيطالية معناها الأصلي أسطوانة، لمح القوم في تسميتهم «شكل» هذا السلاح. أما العرب فلمحوا في تعريبهم الصوت. رأوه يصرخ عند انطلاقه فسموه صاروخًا ولعلهم، إذا تم اختراع صاروخ مكتوم الصوت، يسمونه الساكوت؟ أو إذا كان صوته خافتًا يسمونه الهاموس أو الخافوت. وقد زاد المخترعون على القذيفة الصاروخية زيادة مهمة، فصار الصاروخ يوجِّه نفسه بنفسه توجيهًا دقيقًا، بعد أن يتم إطلاقه بتوجيه تقريبي. صار يوجه نفسه مغناطيسيًّا أو حراريًّا أو ليزريًّا، ولم يعد يخضع لجاذبية الأرض الخضوع المطلق. وزاد هذا التطور في عناء اللغويين فنبشوا كتب اللغة واختاروا كلمة البالستي، وهي لا تفيد أي شيء فيما يتعلق بالتوجيه.

التوقيعات

قد خطر بالبال باب طريف من أبواب الأدب العربي أحببت أن أجعله مادة لفقرة تطول أو تقصر، وهو باب «التوقيعات». وأصله أن الأمراء والخلفاء كانوا يذيِّلون الرسالة التي ترد من والٍ أو رجل من عامة الناس أو خاصتهم برد موجز يقع في سطر أو نصف سطر. ذيَّل هارون الرشيد رسالة أحد ولاته بسطر جاء فيه: «كثر شاكوك وقلَّ شاكروك، فإما اعتدلت، وإما اعتزلت». وكتب أحد الولاة إلى عمر بن عبد العزيز يستأذن في تحصين مدينته بسور، فكتب عمر في ذيل الكتاب: «حصِّنها بالعدل، ونقِّ طرقاتها من الظلم، ورده إلى الوالي». وقد كنتُ أحفظ كثيرًا من هذه التوقيعات، ولكنني نسيت نصوصها الحرفية، ولا يحسن بي أن أسوق أيًّا منها بمعناه دون نصه؛ لأن تلك العبارات إنما تستمد روعتها من رونقها ولا يفضُلُ فيها المعنى اللفظ. وسأحاول العثور على بعض التوقيعات الأخرى من كتاب بيدي هو المستطرف

في كل فن مستظرف للأبشيهي. ولست أعِدُ بشيء فإنني أكتب ما أكتب، ولمَّا أقع على فصل مخصص بالتوقيعات. قد أجد شيئًا في هذا الفصل … وهو بعنوان «الأجوبة المسكتة والمستحسنة، ورشقات اللسان». وفي هذا الفصل قصة طريفة، أقف عندها.

رشقات اللسان

دخل شريك بن الأعور على معاوية بن أبي سفيان، فقال له معاوية: «إنك لشريك وما لله من شريك، وإنك لأعور والصحيح خير من الأعور فكيف سُدْتَ قومك؟». فقال له شريك: «إنك لمعاوية، وما معاوية إلا كلبة عوت فاستعوت الكلاب، وإنك لابن صخر، والسهل خير من الصخر، وإنك لابن حرب والسلم خير من الحرب، وإنك لابن أمية وأمية هي الأمة صُغِّرت، والحرة خير من الأمة، فكيف صرت أمير المؤمنين؟» فسكت معاوية.

ومن الأجوبة البارعة جواب العباس عم الرسول □ لرجل سأله: «أأنت أكبر أم رسول الله؟» فقال العباس: «رسول الله أكبر، وأنا ولدت قبله».

لا أجد فصلًا برأسه عن التوقيعات، غير أنه يحضرني توقيع للمنصور في ذيل كتاب بعث به إليه أهل الكوفة يطلبون تغيير الوالي. كتب المنصور: «كما تكونون يُولَّى عليكم».

مراتب الضحك

ثمة ضحك مفتعل، وضحك تلقائي. الضحكة الصفراء حركة عضلية مصطنعة يؤديها الإنسان المهذب عندما يريد أن يقول لجليسه: «اخرس». وإذا ضحكت عجوز من الطبقة الوسطى في موقف محرج فهذا ليس ضحكًا، أما عجائز الطبقات الفقيرة فهن لا يضحكن في المواقف المحرجة إلا نادرًا بل يعالجنها بالتكشير. وإذا ضحكتَ لنكتة قديمة فذلك أدب ونفاق وليس ضحكًا.

الضحك الحقيقي يبدأ بالتبسم وهو انفراج الأسارير دون فتح الفم. وقد يأتي بعد ذلك الإهلاس، وهو ضحكة مكتومة قد يكون لها صوت مخنوق وقد لا يكون. ثم هناك الافترار وتنفرج فيه الشفتان. ثم الكتكتة وهي كه كه كه، ثم القهقهة وهي قه قه قه. ثم القرقرة، وبها يصبح المرء دجاجة وتصدر عنه أصوات مختلفة تلقائية، وبعد ذلك يأتي (الاستغراب)، وهو أن يضطر الضاحك إلى الرجوع بغاربه -والغارب هو الظهر- إلى الوراء. وقد يستلقي من شدة الضحك. ثم إن المرء ليعتدل في جلسته مرة أخرى وهو يضحك ويقول: طيخ طيخ طيخ … فهذه هي الطخطخة. وقد تتعب من شدة الضحك عضلات الجذع، فيفحص الضاحك برجليه ويمسك خاصرتيه بيديه، وكان القدماء يقولون: لاذ بكشحيه، ويقول أهل الشام: لقد ضحك حتى لم يعد له خواصر.

هذا عن الضحك مرتبًا في درجات. ومن الأوصاف الأخرى: ضحك حتى بانت نواجذه أي أضراسه القريبة من الحلق، ويقولون: ضحك ملء فمه وملء شدقيه. ولا شيء يضحك بني آدم مثل عيوب الآخرين. ترى الرجل يتزحلق بقشرة موز فتضحك أولًا، وتمد له يدك ثانيًا.

أقوال غير مأثورة

• الانتخابات هي الطريق الوحيد للديمقراطية في رأي الغرب، إلا إذا فاز فيها عندنا من لا يحب الغرب أن يفوز فعندئذ هناك طرق أخرى أفضل.

• إذا لم توفروا حقائق قابلة للتصديق سنصدق الشائعات، وإذا لم تتوافر فسنوفرها ... ثم نصدقها.

• أول ما يفكر فيه الرجل العاقل بعد الزواج، الطلاق. وأول ما تفكر فيه المرأة العاقلة: الأولاد.

• الزواج نصف الدين، والطلاق نصفه الآخر.

• مقالات المشايخ مملة.

• إذا وجدت مرحاض المطعم نظيفًا فاعلم أن الفاتورة ستكون خيالية، وأن المطبخ قد لا يكون أنظف من المرحاض.

• لي صديق كالبصلة، كله قشور، تحت كل قشرة منه قشرة، وإذا نزعت كل قشوره لم يبق شيء. اقتربت منه فترة غير عابئ بقشوره فآذتني رائحته.

• عتاب الأصدقاء من الألسنة، وعتاب الأصفياء في القلوب.

(24) أغسطس/ آب ١٩٩٢.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس والعشرون

بطرس غالي، الكمبيوتر.. والمعرّي، قاتل الأسرى، الكُنى الحيوانية، أمّ قشعم وأبي جعدة (25)

أَحبَّها ... هو. تلاقيا مرارًا. قبلات قليلات، كان ينتزعهن، وكانت هي تؤديهن أداءً. ليست هذه بداية القصة. ثم تزوجت غيره! وحتى هذه ليست بداية القصة! البداية هي طلاقها المفاجئ بعد سنة من الزواج السعيد. عندما سمع بالنبأ السارّ خفق قلبه. لقد تحررت وعادت. فرح، استحمق نفسه، ولكنه فرح. حزن ورثى لنفسه. ما زال يحبها. في أول جلسة معها بعد الطلاق بكت قليلًا وتحدثت طويلًا. قصت عليه ما ذاقت من هوان. ثم فاجأته: عرضت عليه زواجًا سريعًا. وفهم -وقلما يفهم الغارق في الحب- أنها تريد إغاظة مطلقها. أدرك أنها أحبت في مطلقها بساطته وقوته وغضباته وشراسة طبعه. لكنه هو هرب منها ومن قصصها. هذا العاشق الأحمق فهم متأخرًا. بل ربما فهم في الوقت المناسب، فنفض يديه من العلاقة ... ليس اشمئزازًا ولا غضبًا بل خوفًا ... خوفًا من حبها الذي ما زال يغلي في صدره.

بطرس غالي

العروبة عند ابن المغرب العربي حلم جميل يخلط بينه وبين الواقع في لحظات الانتشاء، ويحاول أن يطرده من وجدانه عندما تدهمه زحوف الواقع الكالحة؛ والعروبة عند المصري شعار المرحلة وشيء جميل ومقبول، شرط أن تكون لمصر الصدارة. وفكرة العروبة عند اللبنانيين مثل ذوبان نقطة من ماء الورد في بحيرة مالحة، وهم يعدُّون أنفسهم ماء الورد. الكويتيون والفلسطينيون، على ما بينهم، كفروا بالعروبة. وأما السوريون فالعروبة عندهم هي الخبز والماء.

ولكنه يبدو لي -وأنا مراقب غير محايد- أن العروبة حاولت أن تنتحر لكي تتخلص من العرب، وأن العرب حاولوا أن يذبحوها. فلا هي نجحت ولا هم، وبقيت معهم وستبقى إلى حين. عندما انتخب بطرس غالي أمينًا عامًّا للأمم المتحدة، اتصلت بي صحفية إنجليزية وطلبت مني بعض المعلومات عن حياته والمناصب التي تولاها، وأخذت تناقشني في أهمية هذا التعيين قائلة: لعل أهم ما يلفت النظر أنه أول مسلم يتولى هذا المنصب. فوافقتُها على ذلك، ورحت أشرح وأفصل القول فيه منبِّهًا إلى أن أهم شيء إنما هو أنه أول عربي يتبوأ هذا المنصب الصعب. وانتهت المكالمة. ثم تذكرت بعد حين أن بطرس غالي

ليس مسلمًا. سارعت أبحث عن رقمها وأحاول الاتصال بها في البيت ثم في المكتب قبل أن تنشر مقالها وتقع المشكلة. وقلت لها: الرجل مسيحي يا عزيزتي! ولم تكن الصحفية سعيدة بهذا التصحيح؛ لأنها جعلت العمود الفقري لمقالها كون الرجل مسلمًا. ولم تستطع أن تفهم كيف وقعت أنا في هذا الخطأ البسيط والفادح في آن معًا. وأنَّى لها أن تفهم! الناس في الغرب لا يفهموننا إلا على أننا قسمان: أغلبية مسلمة وأقلية مسيحية، وقد وقعوا في هذا الخلط العجيب في الحرب الأهلية اللبنانية.

الكمبيوتر.. والمعرّي

كل واحد منا مرت به فترة كان فيها شديد الفخر بالماضي التليد، وكل واحد منا مرت به فترة كفر فيها بأمجاد الماضي. والعرب الآن يعانون من مرض شامل هو أقرب ما يكون إلى انفصام الشخصية. المجد القديم راسخ في نفوسنا، ولكننا نشك أحيانًا في أنه كان مجدًا، ونشك أحيانًا في أبسط الحقائق التاريخية. وقد نظن أن الإمبراطورية العربية - الإسلامية نشأت بالصدفة. تربطنا بتراثنا علاقة حبغضية (أي علاقة حب وبغض ممتزجين متعاركين داخل النفس الواحدة). ولا بد للمريض من أن يسعى إلى الشفاء. وأظن أن الدواء يجب أن يستند إلى فهم التراث كما هو، والإقلال من الاعتزاز به ومن نبذه على حد سواء. ويستند أيضًا إلى الإصرار على التمسك به. نحن لسنا تلك القبائل التي حكمت المنطقة الواقعة جنوب الإمبراطورية البيزنطية، بل نحن ورثة الحضارة التي لا تلحق الحضارة البيزنطية بغبارها. نحن لسنا أصحاب السيوف اللامعة الذين خطر ببالهم ذات يوم أن ينهبوا فارس ومصر وبلاد الشام ففعلوا، هذا ما يظنه بعض الجهلة في الغرب. بل نحن حملة السيوف والأقلام. وعندما غزونا كانت هناك عملية منظمة للنهب، وكانت هذه العملية تطويرًا حضاريًّا للأعراف السائدة آنذاك بشأن الغنائم وبشأن العلاقة بين الغالب والمغلوب. لم نهدم حضارة فارس، بل كانت متآكلة من الداخل فلم تصمد إلا قليلًا. الغزو العربي كان مسلحًا بأكثر من السيف. كان مسلحًا بتصور: هذا التصور لم يكن خطابًا حماسيًّا من شيخ قبيلة بل برنامجًا اجتماعيًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا وحضاريًّا. وهذا البرنامج موجود بين أيدينا اليوم، ويمكن الحصول عليه من أي مكتبة في العالم وبأي لغة. ما على المرء إلا أن يطلب من صاحب المكتبة «القرآن الكريم» حتى يحصل على هذه الوثيقة التي تردُّ عنا غائلة التغريب والتشعيث الحضاري. وهناك شرح ضاف لهذا الكتاب هو الأحاديث النبوية.

ترابنا الحضاري موجود، وما علينا إلا أن ننزرع فيه. هناك دين جديد يزيد عدد الداخلين فيه كل يوم، هذا الدين مثلث الرؤوس، واسمه «الكمبيوتر ... الذرَّة ... الفضاء». وهو ليس أعظم من دين البخار ومحرك الديزل. وسوف تتبدد

الهالة التي تحيط به عندما نحسن تلقن تعاليمه. ولكن بعض كتَّاب الصحف في بلادنا يريدون لنا أن ننسى أبا العلاء المعرِّي لكي نحفظ تعاليم الدين الجديد. وتلك دعوات خطيرة. وما يقلل من خطرها أنها سطحية. التراث شيء كبير ... فيما أرى.

قاتل الأسرى

هل ستثور ثائرة التقليديين على مؤرخ معاصر يكشف سوءات بعض الخلفاء؟ أفضل طريقة للإجابة عن هذا السؤال هي أن نجرب. لنبدأ بسليمان بن عبد الملك. هذا الخليفة الأموي كان له مجلس فظيع. تقول القصة: إنه سار إلى الحج في سنة من السنين. فلما انصرف من حجِّه مكث بالمدينة المنورة برهة. وقد جيء إليه في المدينة بنحو ٤٠٠ من أسرى الروم. أحب سليمان أن يتسلَّى، فقعد في مجلسه وأمر بإدخال عدد من الأسرى. وقال لعبد الله بن الحسن وهو من أحفاد علي: «قُم فاضرب عنق البطريق» (أي كبير القوم، وأرفعهم رتبة)، فقام عبد الله وناوله أحد الحرس سيفًا كليلًا، غير ماضٍ، فضرب عنق الأسير وقطع ذراعه وقطع السلسلة الحديدية بضربة واحدةً، وقال له سليمان: «والله ما ضربته بسيفك بل بحسَبك»، وهذه لمحة ذكية. إذن فالأسير كان مقيدًا بالحديد! ليت الخليفة فعل مثلما كان الرومان يفعلون بإلقاء الأسرى للأسود. فتلك التسلية الهمجية تتيح للأسير فرصة -وإن ضئيلة- للنجاة في حال انتصاره على الأسد. ولم تكتمل سعادة سليمان بتكليف الأعيان والسادة بضرب أعناق الأسرى. فأمر الشعراء أن يتقدموا.

طلب من جرير أن يضرب عنق أسير، ففعل وقتل الأسير بضربة واحدة. وطلب من الفرزدق أن يقتل أسيرًا، فاستل سيفًا وأهوى به على عنق الأسير، فلم يصبه إلا بجرح غير مميت. وراح جرير يعيِّر الفرزدق، وراح الفرزدق يقول: إن قومه لم يتعودوا قتل الأسرى بل إطلاقهم، وإن السبب في عدم تسديد الضربة ليس الارتباك ولا الجبن، بل هو أن القدر شاء أن يعيش ذلك الأسير المسكين.

وتقول إحدى الروايات: إن سليمان قال للفرزدق قبل الضربة: «خذ سيفًا صقيلًا واضرب به». ولكن الفرزدق أبى وأصر أن يضرب بسيفه الذي ورثه عن جده مجاشع. فعندما خابت ضربته قال له سليمان: «أما والله لقد بقي عليك عارها وشنارها». وفي رأيي أن العار كله من نصيب الخليفة سليمان بن عبد الملك قاتل الأسرى المتسلي بقتلهم. وهناك رواية أخرى تقول إن الفرزدق بعد أن فشل في قتل الأسير طلب من الأمير أن يهبه له ففعل. وقال الفرزدق في ذلك:

ولا نقتل الأسرى ولكنْ نفكُّهمْ

إذا أثقل الأعناقَ حملُ المغارمِ

وقد تسلى أدباؤنا القدماء كثيرًا بهذه القصة وساقوها في روايات متباينة، وإن كانت الاختلافات بين رواية وأخرى هامشية. وذكروا أبياتًا كثيرة لجرير وللفرزدق ولغيرهما من الشعراء حول نبوِّ سيف الفرزدق. ولكن أحدًا منهم لم يفطن إلى أن قتل الأسرى عمل همجي، وإلى أن التسلي بقتل الأسرى عمل يثير الاشمئزاز. القصة مذكورة عند الطبري، وفي النقائض، وعليها شعر في ديواني الفرزدق وجرير، فأما رأيي في مغزاها فهو رأيي الشخصي.

الكُنى الحيوانية

كنا ونحن تلاميذ، نطرب كثيرًا عندما نعرف أن ولد الأسد يسمى الشبل، وولد الفأر الدِّرص، وولد الخنزير الخِنَّوْص. وقد فات ذلك. ثم عرفنا أن للحيوانات كنى وألقابًا. كان العربي يعتز بكنيته لأنها آية احترام الناس له. وكان الرجل تُولد له بنت فيسميها فاطمة ويكنيها أم سعد ولما يولد لها سعد أو سعيد ومن هنا اسم «أم كلثوم». وشاع أن يُكنى المرء باسم أبيه، ولا سيما إن كان الولد الأكبر. وشاع أن يكنى كل محمد بأبي القاسم أو الجاسم، وكل علي بأبي الحسن أو الحسين، وكل حسن وحسين بأبي علي. وكأنما أراد العرب أن يذهبوا بالمسألة كل مذهب، فأخذتهم الحال، فراحوا يطلقون الكنى على الحيوانات. لم يكتفوا بأن كنوا الأسد أبا الأشبال، وهي كنية أشبه بالاسم أو بالوصف، فأطلقوا عليه كنية حقيقية هي أبو الحارث، وقالوا للشبل: أبا غالب. الذئب: أبو جعدة، والثعلب: أبو الحصين، والضبع: أم عامر، والكلب: أبو خالد، والقط: أبو خداش، والبطة: أم حفصة، والعصفور: أبو محرز، والفيل: أبو الحجاج، والجمل: أبو صفوان، والديك: أبو سليمان، والبغل: أبو المختار، والخنزير: أبو زرعة.

وقد كنَّوا الحرب: أم قشعم، والخبز: أبا جابر، والرجل المشهور: ابن جَلَا. وهذه الأشياء نقلتها عن كتاب قديم انفصلت ورقات منه -لكثرة ما أنقل عنه- وصارت ترعى في أنحاء الدار. وقد أهش عليها، في لحظة نظام وترتيب، وأجمعها بين الجلدتين استعدادًا للغارة المقبلة، وقد يرغب بعض الناس في معرفة اسم الكتاب ... ولهم كامل الحرية في أن يرغبوا.

شيء من الازدراء

الذي يدافع عن الماركسية في هذه الأيام لا يموت شهيدًا ولا يعيش رغيدًا. لا تتحرش به الحكومات ولا الأصوليون ولا بسطاء المثقفين الذي يريدون إسلامًا لينًا. الذي يدافع عن الماركسية الآن له الإهمال وشيء من الازدراء مشوب بسخرية. لهذا لن أدافع عنها. ثم إنني ما دخلت فيها دخول المعتنق، ولا

خرجت منها خروج الذي زالت أوهامه في لحظة كشف أو لحظة انتهازية. لقد عرفتها عندما كانت الموضة في أوساط الطلبة، وفرضتْ عليَّ طبيعتي المتأنية أن أتجاوز الأسطر العشرة التي يحفظها الناس ويرددونها كالببغاء. كلما غاص المرء في كتب أهل الماركسية شبرًا غاص في بحر الطقوس مترًا. الماركسية فكر جريء، ودين مشحون بالخزعبلات الفيزيقية. لقد تعلمت من إطلالتي على ذلك المذهب أن الفكر يتبع الواقع.

أقوال غير مأثورة

• لم أر بخيلًا شجاعًا.

• السفر يزيد بعض الناس عمقًا، ويزيد بعض الناس سطحية.

• التقدم في السن يضعف القدرة لا الاشتهاء. وذلك من عذاب الدنيا.

• الذكر العربي يفكر بأشياء أخرى ... غير الجنس، أحيانًا.

• يمرض الطفل ويشرف على الموت، وهو ما زال على يقين من أن كل الناس قد يموتون غدًا ... لكن ليس هو.

• قراراتي في بداية العام الجديد: الإقلاع عن التدخين، وتخفيف الوزن، والامتناع عن بدء فلان بالتحية. وهي ثلاثة لا رابع لها. أحفظها جيدًا؛ فقد كانت قرارات العام الماضي، والأعوام العشرة التي سبقته.

• إذا احمرَّ وجهي دون سبب فاعلم أنني تذكرت إحدى حماقات المراهقة.

• الهارب من عروبته كالهارب من لسانه، هو يجري ولسانه يجري معه.

(25) سبتمبر/ أيلول ١٩٩٢.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس والعشرون

الزنبور، خلع الملابس، «الخلع» وغيره، تشيخوف وقصصه، الأسماك الملوّنة، فضلات الكلام (26)

مرَّ بي زمن كان لي فيه جَلَد على منطق النحاة وصبر على الدرس، وعلى ما هو مقيس وعلى ما لا ينقاس. ثم رأيتني أصير إلى زمن ينتهك فيه العلوج العربية ولا أكاد أسمع صراخ الفاحشة؛ لما يشغل سمعي من ضجيج المعاصَرة. كنت في ذلك الزمن الأول أنتشي ويذهب بي الطرب كل مذهب عندما أسمع عبارة جديدة من عبارات النحاة الاصطلاحية. كان عندي عرس يوم أدركت معنى قولهم «قد يغتفر في الثواني ما لا يغتفر في الأوائل»، وزهوت عندما أطقت فهم قولهم في (كاد) «إن نفيها إثبات، وإثباتها نفي عند أهل اللغة؛ ونفيها نفي، وإثباتها إثبات عند أهل النحو». وكنت أقول في إعراب (إذا): «ظرف لما يُستقبَل من الزمان يتضمن معنى الشرط، خافضٌ لشرطه منصوب بجوابه»، فتعروني هزة طرب لوقع هذه الكلمات الفخيمة في أذني. فأما إذا الفجائية فقد كان لها عندي منزلة فريدة بسبب المسألة الزنبورية! فإن بلغ من صبرك أن واصلت القراءة بعد تلكم العبارات فإنني مورد عليك قصة المسألة الزنبورية.

الزنبور

أما الزنبور فحشرة أكبر من النحلة، وأصغر من طائرة الهليكوبتر، على ما بين الثلاثة من شبه في الشكل والأذى. وأما المسألة الزنبورية فهي معركة نحْوية راح ضحيتها سيبويه والمنطق السليم، وصار النحو بعدها ملعبًا لهواة الشواذّ. كان سيبويه يقيم في البصرة، أخذ فيها عن أساتيذ كبار وخرَّج تلاميذ كبارًا. وفيها جعل علمه بين دفتي كتاب لم يُسَمِّه باسم.

صار الناس ينسخون الكتاب، وطار صيته، وراح الطالب يسأل الطالب: هل نسخت الكتاب؟ فيقول: نعم، أو يقول: لا. وراح المحاجج يقول لخصمه: هكذا ذكر سيبويه في الكتاب، أو يقول: لا ... هذه لم ترد في الكتاب. ولم تكد تمضي سنوات حتى صارت كلمة الكتاب عَلَمًا على كتاب سيبويه ذاك، فليس لذلك الكتاب من اسم سوى الكتاب. ومن حسن حظنا أن هذا الكتاب لم يضِع. لقد وصلنا وحققوه وطبعوه وشرحوه.

أغرت الدنيا سيبويه فارتحل عن البصرة وقدم على البرامكة في بغداد، وكانت الدنيا عندهم. وعزم يحيى بن خالد البرمكي على الجمع بين سيبويه، رأس نحاة البصرة، والكسائي زعيم نحاة الكوفة. وجعل يحيى لذلك يومًا. فلما التقى الرأسان لبس كل لصاحبه جلد النمر، وبدأ الكسائي صاحبه قائلًا: «أتسألني أم أسألك؟» فقال سيبويه: «سل». فسأل الكسائي: «أتقول العرب: قد كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو هي»، أم تقول: فإذا هو إياها؟» فقال سيبويه: «بل تقول: فإذا هو هي».

فعارضه الكسائي وغلَّطه، وتناظرا في الأمر طويلًا، فقال لهما يحيى البرمكي: «أنتما رئيسا بلديكما، فمن يحكم بينكما؟» فقال الكسائي: «تحكم بيننا العرب، وببابك عرب أقحاح». فأمر يحيى بأن يُؤذن لمن بالباب فدخل القوم، ثم سُئلوا عن العبارة فقالوا بما قال الكسائي. فاستكان سيبويه وداخَلَه من ذلك غم شديد. وانفض المجلس على ذلك.

شد سيبويه رحله إلى فارس إذ امتنعت عليه العودة إلى البصرة، وقد سبقته إليها قصة المسألة الزنبورية. قيل: إن الغم قتله في فارس بُعيدَ وصوله فمات شابًّا. وقد ذكر الذين يكتبون الكتب أن أولئك الأعراب كانوا تواطأوا على الأمر مع الكسائي فشهدوا زورًا ثم قبضوا. أتعبت المسألة الزنبورية النحاة. وتكاد غالبيتهم تقول: إن الصواب ما قال سيبويه «فإذا هو هي»، وإنما رفع سيبويه على الخبرية ونصب الكسائي على الحالية.

خلع الملابس

أريد أن أخلع لغتي القديمة، أريد أن أطرح عن كتفيَّ العباءة الصوفية الثقيلة وأن أستحم. قالت سيمون دي بوفوار: إنها كلما مر بها وضع صعب وأحست بلؤم البشر سارعت إلى الحمام، فعندما تصب الماء على نفسها يتملكها إحساس بأن الوسخ الذي علق بروحها ينزل مع الماء في البالوعة. أنا أكره اللغة القديمة؛ تراكيبها غريبة، تفرض عليَّ أفكارًا قد لا أريد أن أقولها أو أن أكتبها. اللغة القديمة هي التي تكتبني، وهي التي تفكر لي. أكرهها. هي لغة أخرى.

دعك من الهراء الذي نسمعه عن الصلة بين التراث والحاضر. اترك التفلسف قليلًا. تعال نتفاهم: ابن القرن العشرين يجب أن يكتب بلغة القرن العشرين، وعربية القرن العشرين هي عربية الجريدة والإذاعة وحديث الناس. لا يمكن أن تكتب فكرة جديدة، إلا بلغة جديدة. ولكن، لعله لا بأس في أن يداعب المرء تعابير الجاحظ وأبي حيان، وأن ينفق خمس دقائق في صحبة سيبويه.

خلع الأحذية

من أجمل الشعر الذي قرأته شعر مظفر النواب. قال المظفر: «أخلَعُ من وسخ الأيام حذائي». وقال:

يا طيرَ البرقِ القادمَ من جنات النخل بأحلامي

اِحمِلْ لبلادي حين ينام الناس سلامي

لشوارعها للصبرْ

لعليٍّ يتوضأ بالسيف قُبيل الفجرْ

أُنْبيكَ عليًّا: ما زلنا نتوضأ بالذل ونمسح بالخرقة حدَّ السيفْ

مظفر النواب شاعر عراقي، عاش تشرُّد مثقف عربي، وسبَّ كل الأنظمة، وحاربوه بالصمت. وآخر ما سمعت عنه أنه حي يرزق، أو لا يرزق، في عاصمة أوروبية. قال المظفر: «ناداني صوت جاء كخيمة عرس عربي/ قالت من أنت؟ / قلت أنا يا وطني».

قصص وقصائد وسؤال

قصة قصيرة:

سرق الحرامي ذَهَبات المرأة. قالت لزوجها: اشتر لي ذهبات غيرها، واشتر قفلًا إضافيًّا. خلع الرجل القفل الموجود على الباب وباعه في السوق، ولم يشتر ذهبات، وقال: الآن أمان.

قصة أقصر:

راودها عن نفسها، فانتفضت، وقالت: استر عليَّ، فقال: حسنًا ... بشرط!

قصة بين بين:

رجل يبحث عن كرسي. وجده، قعد عليه، فوجئ بأن الكرسي غير مريح. ضحك عليه القاعدون على كراسي، وحسده الباحثون عن كراسي.

قصيدة:

«بِأيِّ الفساتين جئتِ.. جميلةْ»

قصيدة أخرى:

«على مَهلِها أردافُهن تميلُ»

سؤال وجيه:

ما الفرق بين «وقف إطلاق النار» وبين «الهدنة»؟ الجواب: العبارة الأولى ثلاث كلمات، والثانية كلمة.

«الخلع» وغيره

يقولون: «خلع عليه ألقاب الرياسة»، ومعناها منحه الألقاب. والأصل أن الأمير كان في قديم الزمان إذا أعجبه إنشاد الشاعر خلع رداءه وأعطاه إياه. وكانت الملابس غالية جدًّا في زمن النسج اليدوي. وصار معنى كلمة خلع منح. كان الجالسون في مجالس الغناء إذا طربوا، أخذوا يشقون ملابسهم؛ لكي يثبتوا لأنفسهم وللناس أنهم كرماء؛ فالكريم يهزه الطرب ويخرجه عن طوره.

ثمة عبارة أخرى قديمة في أصلها؛ يقولون في الأخبار: «توجه الأمين العام إلى المنطقة يحدوه الأمل في تحقيق تسوية». وكان العربي القديم يغنِّي للإبل وهي تسير غناء رتيبًا لكي يحثها على مواصلة السير بإيقاع، وقالوا: إن الإبل كانت تحب ذلك، كان العربي يحدو الإبل بهذا الغناء، أو الحُداء.

وفي العبارة السابقة يكون الأمين العام بمثابة الحَدَّاء. باختصار صار معنى كلمة حَدا حَثَّ. شيء آخر، الفشل هو الجبن في العربية القديمة، ومنه بعض الآية: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، واليوم صار الفشل بمعنى الإخفاق.

تشيخوف وقصصه

من الحكايات ما ليس له حبكة. ومن ذلك كثير من قصص أنطون تشيخوف الروسي، وهي قصص عجيبة، تقرأ القصة فتجدها مقصوصة الذيل بلا نهاية. ولكنك تشعر بالارتياح، وقد تكتشف أن كل سطر له نهايته، اختلف النقاد في الشرق والغرب في أعظم الروائيين وأعظم الشعراء ولكنهم اتفقوا على تشيخوف. إنه إمام القصة القصيرة عند معظم الأوروبيين، وكان سر تشيخوف أنه لم يكن يشوِّه قصته المأخوذة من الحياة اليومية في سبيل خلق العقدة، كان يتجنب المبالغة، ولم يكن يخدع القارئ بمفاجأة يحبسها حتى نهاية القصة. وقد يسمح بالمفارقة إذا ساقت نفسها سوقًا.

من ذلك قصة المسافر الذي ركب عربة يجرها حصان ويجلس في مقدم العربة حُوذِيٌّ يحمل سوطًا أسود، ويلبس ملابس سودًا، وذقنه نابتة سوداء، وعيناه تقدحان شررًا. دخلت العربة غابة مظلمة فازداد خوف المسافر من الحوذي الذي كان يصرخ على حصانه بصوت أجش، وخرجت العربة من الغابة إلى طريق يسبح في شمس الضحى، ولكن خوف المسافر ظل يزيد، فراح يقول للحوذي: كم يزعجني هذا المسدس الذي في جيبي! وأخذ يلقي التلميحات المختلفة، ويضحك ضحكات مجنونة. وعلى حين غرة قفز الحوذي

من مقعده وانطلق هاربًا وتوارى خلف شجرة بمحاذاة الطريق. وهنا ... تنتهي القصة.

حكايتان

سمعت حكايتين ليست لهما حبكة. ولكنني لم أستطع تحويلهما إلى قصتين قصيرتين؛ فلذلك سأوردهما على حالهما. الحكاية الأولى: كان هناك رجل حقَّاني، كلما أكل طبق كنافة في السوق، دفع لزوجته -عندما يعود إلى البيت- ثمانية قروش. الحكاية الثانية: قال الرجل وهو على فراش الموت لولده البليد: «غدًا عندما أموت سيلفونني (على عادة أهل البلد) في بساط، وليس في بيتنا سوى بساط هذه الغرفة، وهو يساوي كذا وكذا من الدنانير، فإذا أنزلوني في القبر فإياك أن تغفل عن البساط، فهو أنفع لك من النحيب وقبول العزاء»، قال ذلك لابنه بحضور بعض العواد.

وقد روى أحدهم القصة بعد زمن وحلف أن نبوءة الأب تحققت، فقد مات الرجل في اليوم التالي ولُفَّ بالبساط عينه، ونسي ولده الخائب البساط في التربة، حتى ذكَّره أحد من كان حاضرًا وصيةَ أبيه العتيدة بالبساط، فحمله على عاتقه وانطلق إلى البيت.

الأسماك الملونة

مهما افتنَّت الحسان في تلبيق الألوان فلا بد أن يتسرب شيء من النشاز اللوني إلى أزيائهن، وأما في الأسماك الملونة فهناك انسجام رغم التنوع الباهر. الأسماك الملونة ظاهرة لونية فريدة. كان أحد الخطاطين يشتري أسماكًا ملونة لحوضه مثلما يشتري الفراشي والدهانات. كان يستنبط منها مزاوجات لونية للَّافتات التي يكتبها.

في البدء كانت الدنيا بالأبيض والأسود، وكان الناس يحيَوْن فيها. ثم لوَّنها الله لهم، فافتتنوا بها وصاروا يَعيشون فيها، وعشقوها. مصورون فوتوغرافيون كثيرون يتباهون بتفضيل صور الأبيض والأسود وإيثار التحكم في الظلال على التقلب في نعمة الألوان. أولئك قوم أخذتهم العزة بالإثم.

فضلات الكلام

• حضرت خمس دول المؤتمر، أما بقية الدول الأخرى فقد امتنعت. (بقية الدول = الدول الأخرى)

• ما زلنا نواصل قراءة هذه الأنباء. (ما زلنا = نواصل)

• أوضح الناطق بجلاء. (بجلاء = بوضوح)، والجلاء لا يزيد عن الوضوح في درجة التأكيد.

• اعتبرت الأمانة العامة أنها تعُدُّ المسألة في حكم المنتهية. (اعتبرت = أنها تعدُّ)

• وقال: إن المسروقات تتجاوز ما يزيد على مليوني دولار. (تتجاوز = ما يزيد)

• اقتراض مبالغ طائلة على سبيل الديون المؤجلة. (اقتراض = على سبيل الديون). الديون «المؤجلة»؟ فما هي الديون المعجلة إذن!

• وقال: إنه قد يكون هناك فرصة لاحتمال إقامة سلام دائم. (فرصة = احتمال)

أقوال غير مأثورة

• لماذا لا يرفع الناس أصابعهم بعلامة النصر إلَّا وهم منهزمون؟

• لماذا تكون الأغنية أحلى عندما تسمعها من الراديو مما لو سمعتها من الكاسيت؟

• المنجمون يصيبون بالصدفة ويخطئون بالصدفة، والاقتصاديون يخطئون دائمًا ولكن ليس بالصدفة ... إنهم يخطئون عن علم.

• الجنرالات الذين يظهرون على التلفزيون عساكر فاشلون متقاعدون، يحللون نشاطات عساكر فاشلين لم يتقاعدوا بعد.

• ثورة الاتصالات معجزة القرن العشرين، صار المرء يخاطب رجلًا يمشي على سطح القمر، ولم يعد يقول: صباح الخير لجاره.

• كلما زادت اللذة ارتفعت درجة التحريم.

• الفرق بين الحب والجنس هو كالفرق بين أن تأكل الوردة وأن تشمها. فالجنس مثل أكل الوردة ... شيء سخيف! والحب مثل شمها ... شيء سخيف أيضًا.

• نصف سكان البلد أغنياء، ونصفهم فقراء ... فما الحل؟ الحل هو القروض الأجنبية التي يتسلمها الأغنياء، ويدفع فوائدها الفقراء.

(26) أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٩٢.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع والعشرون

النظر في الخلاف بين عائلتي «حضّر» و«ثقّف»، وفك لغز بطاقات قاموس أكسفورد (27)

صبيًّا كنت أقطع السوق من أوله إلى آخره لأصلي الجمعة خلف الحنبلي. وأترك الجامع القريب وإمامه أبا فرحة. أبو فرحة كان يحدِّث في خطبته عن الدنيا والمجتمع والسياسة غير عابئ بالتعرض لمخلب السلطة. وكنت أفر من خطبته إلى الحنبلي الذي كان يلقي خطبة موسمية: عن رمضان في رمضان، وعن الهجرة في رأس السنة وهلم جرا، ولكن الحنبلي كان حريصًا على الديباجة. كان يتلوها بتروٍّ، وكان يضمِّنها صلوات على حمزة والعباس وسيد الشهداء الحسين. يقول ذلك كله في عبارات مسجوعة جميلة. كان يعجبني الحنبلي أكثر، وكنت أخجل من ذلك. والآن أكاد أعرف لماذا. أظن أن السبب هو أنه لم يكن يخلط الدين بالدنيا. كان يقدِّم لي في خطبته ترنيمة مكرورة ترهف الحس الديني بإيقاعها الرتيب. وكان أبو فرحة يرفع الدين سيفًا لتغيير الدنيا. واليوم أذكر الحنبلي فأصلي على النبي وآله وصحبه أجمعين، ومن والاهم بإحسان إلى يوم الدين، وأذكر أبا فرحة فأخاف من حرب أهلية. لكنني حقًّا كنت أقطع السوق من أوله إلى آخر لأسمع خطبة سمعتها قبل سنة قمرية حرفًا حرفًا. كانت تزداد في كل سنة جمالاً.

شاب في المكتبة

أبدأ هذه التأملة الثقافية بشاب عزيز علي، أراه كل صباح. أبدأُها به ينقل الخطو وئيدًا في قاعة المراجع بمكتبة جامعة دارمشتادت في ألمانيا. قصَّ عليَّ أنه دخل القاعة الصامتة بعد أن ترك معطفه في الردهة، فانقبض قلبه انقباضًا، ليس من الصمت، ولا خوفًا على المعطف. بل من الثراء الثقافي الفاحش الذي يتسلق الجدران عاليًا حتى السقف. كتب عتيقة وجديدة ... مراجع تُلقي في النفس الرهبة. من أين يبدأ!

نهضة الألمان

عندما نهض الألمان قبل مائة وعشرين سنة أثاروا غبار حركة ثقافية وعلمية هائلة، حرَّك كبارُ مثقفيهم في نفوس أبناء شعبهم نوازع عنصرية؛ ذلك أنهم رأوا أنفسهم أكثر شعوب أوروبا انقسامًا -ألم تكن خريطة ألمانيا آنذاك توصف بأنها رقعة الفسيفساء؛ لكثرة ما عليها من دول وإمارات- فكابروا واستعلَوا على العالمين. التفتوا إلى لغتهم، وصاروا ينفون منها الكلمات

المستعارة، ويجعلون مكانها كلمات جرمانية النَّسَب. ألّفوا المعاجم، ووضعوا المجلدات الكبار في الفلسفة والأدب وفي كل علم وفن. أبى عليهم اعتزازهم بلسانهم أن يسموا التهاب القصبات الهوائية (Bronchitis) فهذه كلمة لاتينية، قالوا: بل هو: (Luftroehrenentzuendung) هكذا كلمة واحدة … ولعلها أقدر على جلب ذلك الالتهاب منها على وصفه. نهضنا مثلهم على نية الوحدة … ثم قعدنا وصرنا نفكر في المعقول. وفي نهضتنا تلك المهيضة كتبنا قليلًا، وافتخرنا بعظام الأجداد كثيرًا. ونحن الآن في حضرة الغيبوبة الثقافية. ما أكثر الخريجين وما أقل الثقافة!

الإنجليز قصتهم مختلفة؛ فقد نهضوا من فِراش العصور الوسطى أول من نهض، وظلوا ينهضون أربعمائة سنة. وعندما انتهى زمن استعمار الأراضي مع انتهاء الحرب الثانية لملموا ما تشعَّث من أمرهم بوقار، حتى صار حجمهم متناسبًا مع مساحة جزيرتهم، وفي خضم نهضتهم الطويلة والرتيبة ألَّف القوم قاموسًا عظيمًا.

كنت قد تناولت هذا القاموس قبل أشهر بفقرة طويلة، ثم شعرت أنني لم أوفِّه حقَّه من الوصف ومن المديح، فقرأت عن ظروف تأليفه كتابًا. قرأته مستمتعًا به، لا بغرض نقل شيء منه إلى القارئ. وقراءة كتاب عن قاموس شيء غريب، ومثله في الغرابة القراءة في القاموس نفسه.

قراءة القواميس

ليس عيبًا أن يدمن المرء قراءة القواميس. إنه شذوذٌ فحسب؛ فالقواميس أُلِّفت لكي يُرجع إليها المرة بعد المرة، لا لكي تُقرأ كما تُقرأ الروايات. ولكن قارئ القواميس قد يقول في الدفاع عن نفسه: إن القاموس يشبه الرواية من عدة أوجه؛ ففيه شخصيات كثيرة هي الكلمات، ولكل كلمة يشرحها القاموس شخصية ذات تاريخ. كلمة ثقافة مثلًا أصلها من تثقيف الرمح، أي تشذيبه ليستوي، كان العربي في الجاهلية يثقف رمحه، وصار العربي في عهد الحضارة يثقف ولده أي يعلمه ويؤدبه، واليوم صارت كلمة الحضارة من أخوات الثقافة معنويًّا. وتاريخ هذه الكلمة أشد تعقيدًا من أختها. أصلها من الفعل «حضر» أي جاء. وكان البدو يحضرون إلى مراكز التجارة والأسواق، فسُمِّيت المدن المقصودة حواضر. كانت كلمة حاضرة تقوم مقام كلمة عاصمة في أيامنا. وفي الحاضرة توجد الحضارة.

فالحضارة على هذا هي جِماع التقدم المادي للأمة. والثقافة جماع التقدم العلمي والأدبي. ونقف عند الصفحة التي فيها الفعل حضر. نقف متفكرين. هناك المحاضرة التي يلقيها الأستاذ. هذه كلمة أخرى وشخصية أخرى … ولكنها من العائلة نفسها. فما درجة القرابة؟

الخطيب أو الأستاذ يلقي الكلمة في أناس «حضروا» للاستماع إليه. وبما أنهم حضروا فهم مَحْضَر تلك الجلسة. والذي يلقي درسًا في محضر من الناس يصبح درسه محاضرة. والمحضر الذي يحرره الشرطي إنما يسمى كذلك؛ لأنه لا بد من «حضور» أصحاب الشأن أثناء كتابته. ولكن لماذا يقولون: فلان احتُضر أي شارف على الموت؟ بسيطة؛ لأنهم كانوا يقولون: فلان حضرته الوفاة، فالاحتضار اشتقاق آخر من «حضر».

عائلة «حضر» كبيرة. أكبر بكثير من عائلة «ثقف» ولكن هناك علاقة قوية بين كلمة حضارة وكلمة ثقافة. وقد ثارت خلافات في أوساط «المثقفين» و«المتحضرين» على ترجمة كلمة (Civilization) أهي حضارة أم تحضر أم مدنية أم تمدن أم ثقافة؟ والقاموس يصف كل كلمة ويقص قصتها ولا يتدخل في الخلافات. القاموس الذي تمتعك قراءته هو القاموس الكبير الذي لا يحجم عن الخوض في أصول الكلمات وبيان تطورها، ولا أمتع من القراءة في قاموس أكسفورد الكبير.

يخطر ببالي قبل أن أستأنف الحديث عن أكسفورد تعبير «حضرة السيد فلان الفلاني». والحضرة هي قصر الأمير، الذي يحضر إليه الناس لعرض حوائجهم، والعامة لا يجوز أن تخاطب الأمير باستعمال الضمير «أنت». كانوا يتحايلون على ذلك بعبارات كثيرة، منها ذكر شيء لصيق بالأمير كناية عن ذاته؛ فقالوا: سموكم ومعاليكم وجنابكم ودولتكم، وقالوا أيضا: حضرتكم. وهكذا فحتى «حضرة فلان» أصلها من الحضور بمعنى المجيء وإن بعدت الشُّقَّة. قراءة القاموس شيء ممتع. القاموس العربي أمتع من غيره؛ لأن لغتنا عتيقة تقلبت ألفاظها في شتى مهود المعاني. ما عليك إلا أن تطيل النظر وتحك الرأس حتى تفك ألغاز شجرة العائلة للكلمة. وتظل كلمات كثيرة بحاجة إلى من يعرف كثيرًا لكي يفك قفلها. وتظل كلمات كثيرة يختلف العارفون في أصلها.

لسان الإنجليز

الفكرة لمعت في عام ١٨٥٧، ورُصدت المبالغ ووُضعت الخطط واختير المحررون. كانت الفكرة أن يؤلِّف «الناس» القاموس، وهذا ما حدث.

طبعت بطاقات فارغة في رأسها مكان للكلمة مدار البحث، وفي ذيلها مكان لاسم الكتاب والمؤلف والناشر وتاريخ النشر. ووُزعت آلاف من هذه البطاقات على من يطلبها. وصار الناس يقرأون في الكتب القديمة والحديثة. وكلما وجدوا كلمة استخدمت استخدامًا غير مألوف جعلوها في رأس البطاقة وكتبوا في الوسط الجملة التي وردت فيها الكلمة، وذيلوا البطاقة بأوصاف الكتاب. ومن كان أولئك القارئون؟ قُسسًا في أبرشياتهم لا يحملون همَّ الدنيا فقد ضمنتها لهم الكنيسة، ولا همَّ الآخرة … للسبب ذاته؛ ووارثين يعيشون

في أريافهم أو في مدنهم على دخول ثابتة، تغلها عليهم أطيان أو عقارات تليدة، وقد نالوا من الثقافة نصيبًا، ولا يدرون كيف يمارسون ثقافتهم، ولكنهم جميعًا يدركون جلال العمل الذي يشتركون فيه. وتدفقت البطاقات. في عام ١٨٧٩ بلغ وزن البطاقات الواردة طنًّا وثلاثة أرباع الطن. وبعد ذلك بعامين تقول السجلات: إن عدد القراء كان يتجاوز الثمانمائة. لقد نبشوا كتب الأدب والتاريخ والعلوم والفنون. لم يتركوا شيئًا. كانوا مثل الجراد. أحد أولئك القراء أرسل ستة وثلاثين ألف بطاقة. ولا شك عندي في أن هناك من أرسل بطاقة أو بطاقتين فقط. ولكن ذلك كله جهد نافع. وراح المحررون يبوِّبون ما يأتيهم. وصاروا يدرسون الكلمة من خلال ما ورد من شواهد عليها. فيرون كيف استخدمها شكسبير بالمعنى الفلاني والفلاني وكيف وردت عند أديب آخر أو عالم آخر بمعان أخرى، وراحوا يستخرجون المعاني المختلفة للكلمة، ويرتبونها الأقدم فالأحدث. وحرصوا على أن يكتبوا أمام الكلمة التاريخ الذي استعملت فيه أول مرة بحسب ما عندهم من شواهد. وكلما أوردوا معنى مختلفًا، شفعوا بيان المعنى بعدة عبارات تشهد عليه مع توثيقها ونسبتها إلى أصحابها. قاموس أكسفورد قصة جهد وتعب وإتقان وتعاون.

أحد المحررين، وهو جيمس موري، عمل في القاموس ٣٨ سنة. وقد جاءته عند ظهور الجزء الأول عام ١٨٨٤ رسالة من شاب معتل الصحة، لم يدرس في جامعة، اسمه هنري برادلي، فيها ملاحظات صائبة تدل على نظر لغوي دقيق، استدعاه المحرر وأشركه في العمل مساعدًا له سنتين ثم جعله محررًا ندًّا له ووكله بفريق من المساعدين، وكدح برادلي خمسًا وثلاثين سنة. وتعاقب على القاموس المحررون ومساعدوهم حتى ليخطر ببال من يرى قوائم أسمائهم أنه لم يبق في بريطانيا بالغ عاقل إلا وضع إصبعه في هذا العمل، وذلك بالضبط هو سر عظمة قاموس أكسفورد.

فالحضارة على هذا هي جِماع التقدم المادي للأمة. والثقافة جماع التقدم العلمي والأدبي. ونقف عند الصفحة التي فيها الفعل حضر. نقف متفكرين. هناك المحاضرة التي يلقيها الأستاذ. هذه كلمة أخرى وشخصية أخرى … ولكنها من العائلة نفسها. فما درجة القرابة؟

الخطيب أو الأستاذ يلقي الكلمة في أناس «حضروا» للاستماع إليه. وبما أنهم حضروا فهم مَحْضَر تلك الجلسة. والذي يلقي درسًا في محضر من الناس يصبح درسه محاضرة. والمحضر الذي يحرره الشرطي إنما يسمى كذلك؛ لأنه لا بد من «حضور» أصحاب الشأن أثناء كتابته. ولكن لماذا يقولون: فلان احتُضر أي شارف على الموت؟ بسيطة؛ لأنهم كانوا يقولون: فلان حضرته الوفاة، فالاحتضار اشتقاق آخر من «حضر».

عائلة «حضر» كبيرة. أكبر بكثير من عائلة «ثقف» ولكن هناك علاقة قوية بين كلمة حضارة وكلمة ثقافة. وقد ثارت خلافات في أوساط «المثقفين» و«المتحضرين» على ترجمة كلمة (Civilization) أهي حضارة أم تحضر أم مدنية أم تمدن أم ثقافة؟ والقاموس يصف كل كلمة ويقص قصتها ولا يتدخل في الخلافات. القاموس الذي تمتعك قراءته هو القاموس الكبير الذي لا يحجم عن الخوض في أصول الكلمات وبيان تطورها، ولا أمتع من القراءة في قاموس أكسفورد الكبير.

يخطر ببالي قبل أن أستأنف الحديث عن أكسفورد تعبير «حضرة السيد فلان الفلاني». والحضرة هي قصر الأمير، الذي يحضر إليه الناس لعرض حوائجهم، والعامة لا يجوز أن تخاطب الأمير باستعمال الضمير «أنت». كانوا يتحايلون على ذلك بعبارات كثيرة، منها ذكر شيء لصيق بالأمير كناية عن ذاته؛ فقالوا: سموكم ومعاليكم وجنابكم ودولتكم، وقالوا أيضا: حضرتكم. وهكذا فحتى «حضرة فلان» أصلها من الحضور بمعنى المجيء وإن بعدت الشُّقَّة. قراءة القاموس شيء ممتع. القاموس العربي أمتع من غيره؛ لأن لغتنا عتيقة تقلبت ألفاظها في شتى مهود المعاني. ما عليك إلا أن تطيل النظر وتحك الرأس حتى تفك ألغاز شجرة العائلة للكلمة. وتظل كلمات كثيرة بحاجة إلى من يعرف كثيرًا لكي يفك قفلها. وتظل كلمات كثيرة يختلف العارفون في أصلها.

لسان الإنجليز

الفكرة لمعت في عام ١٨٥٧، ورُصدت المبالغ ووُضعت الخطط واختير المحررون. كانت الفكرة أن يؤلِّف «الناس» القاموس، وهذا ما حدث.

طبعت بطاقات فارغة في رأسها مكان للكلمة مدار البحث، وفي ذيلها مكان لاسم الكتاب والمؤلف والناشر وتاريخ النشر. ووُزعت آلاف من هذه البطاقات على من يطلبها. وصار الناس يقرأون في الكتب القديمة والحديثة. وكلما وجدوا كلمة استخدمت استخدامًا غير مألوف جعلوها في رأس البطاقة وكتبوا في الوسط الجملة التي وردت فيها الكلمة، وذيلوا البطاقة بأوصاف الكتاب. ومن كان أولئك القارئون؟ قُسسًا في أبرشياتهم لا يحملون همَّ الدنيا فقد ضمنتها لهم الكنيسة، ولا همَّ الآخرة ... للسبب ذاته؛ ووارثين يعيشون في أريافهم أو في مدنهم على دخول ثابتة، تغلها عليهم أطيان أو عقارات تليدة، وقد نالوا من الثقافة نصيبًا، ولا يدرون كيف يمارسون ثقافتهم، ولكنهم جميعًا يدركون جلال العمل الذي يشتركون فيه. وتدفقت البطاقات. في عام ١٨٧٩ بلغ وزن البطاقات الواردة طنًّا وثلاثة أرباع الطن. وبعد ذلك بعامين تقول السجلات: إن عدد القراء كان يتجاوز الثمانمائة. لقد نبشوا كتب الأدب والتاريخ والعلوم والفنون. لم يتركوا شيئًا. كانوا مثل الجراد. أحد أولئك القراء

أرسل ستة وثلاثين ألف بطاقة. ولا شك عندي في أن هناك من أرسل بطاقة أو بطاقتين فقط. ولكن ذلك كله جهد نافع. وراح المحررون يبوِّبون ما يأتيهم. وصاروا يدرسون الكلمة من خلال ما ورد من شواهد عليها. فيرون كيف استخدمها شكسبير بالمعنى الفلاني والفلاني وكيف وردت عند أديب آخر أو عالم آخر بمعان أخرى، وراحوا يستخرجون المعاني المختلفة للكلمة، ويرتبونها الأقدم فالأحدث. وحرصوا على أن يكتبوا أمام الكلمة التاريخ الذي استعملت فيه أول مرة بحسب ما عندهم من شواهد. وكلما أوردوا معنى مختلفًا، شفعوا بيان المعنى بعدة عبارات تشهد عليه مع توثيقها ونسبتها إلى أصحابها. قاموس أكسفورد قصة جهد وتعب وإتقان وتعاون.

أحد المحررين، وهو جيمس موري، عمل في القاموس ٣٨ سنة. وقد جاءته عند ظهور الجزء الأول عام ١٨٨٤ رسالة من شاب معتل الصحة، لم يدرس في جامعة، اسمه هنري برادلي، فيها ملاحظات صائبة تدل على نظر لغوي دقيق، استدعاه المحرر وأشركه في العمل مساعدًا له سنتين ثم جعله محررًا ندًّا له ووكله بفريق من المساعدين، وكدح برادلي خمسًا وثلاثين سنة. وتعاقب على القاموس المحررون ومساعدوهم حتى ليخطر ببال من يرى قوائم أسمائهم أنه لم يبق في بريطانيا بالغ عاقل إلا وضع إصبعه في هذا العمل، وذلك بالضبط هو سر عظمة قاموس أكسفورد.

في عام ١٩٢٨ تم القاموس وصدر كاملًا، ولكن اللغة شيء محيِّر، لقد تغيرت الإنجليزية كثيرًا خلال السبعين سنة التي استغرقها وضع القاموس، ظهرت كلمات جديدة، ومعان جديدة لكلمات قديمة، وما تنفس المحررون الصعداء حتى بدأ غيرهم يبرون أقلامهم استعدادًا للاستدراك على القاموس. وبدأت تظهر الملاحق، وظلت تظهر.

في عام ١٩٨٩ طُبع القاموس كله مع ملاحقه منسقًا تنسيقًا بديعًا بفضل الكمبيوتر. ولن يُقَيَّض لهذا القاموس أن يستقر على شكل، وأن يُختم بخاتم الكمال، ما دامت الإنجليزية لغة حية تتغير وتتبدل في كل يوم. قاموس أكسفورد يحكي قصة الإنجليزية.

وما بأيدي الناس من قواميس تحمل اسم «أكسفورد» -بعضها صغير وبعضها متوسط وبعضها يتعدى الألف صفحة- إنما هي من أبناء أكسفورد الكبير وأحفاده.

فضلات الكلام

فضلات الكلام مثل فضلات الطعام. ولا يليق بالكاتب أن يقدِّم لضيفه الفضلات على مائدة مقاله أو تقريره. وقد تُسْمِن فضلاتُ الطعام وتغني من

جوع، ولكن فضلات الكلام تقف في الحلق؛ لأنها كلمات أو عبارات لا تضيف إلى المعنى جديدًا. ولمجرد الإيضاح إليك هذه العبارة: «مفاجأة غير متوقعة» ثلثا هذه العبارة فضلة. أما كان يحسن بالصحفي أن يكتفي بكلمة «مفاجأة!» كلمة مفاجأة تقوم بالمعنى، وإذا وصفتها بأنها «غير متوقعة» فإنك تضعفها. ولكي نقدِّم مثالًا على سعة صدر اللغة نسوق عبارة أخرى هي «مفاجأة متوقعة» فلو قال الصحفي: «كانت استقالة الرئيس مفاجأة متوقعة» لأفادنا شيئًا. اللغة تقبل هذا المنطق الذي فيه التفاف، اللغة تقبل أن يلعب المرء بها، ولكنها ترفض السخف والبلاهة.

انظر إلى عبارة «هبط إلى الأسفل» و«تقدم إلى الأمام». ألا ترى أن القارئ العجلان قد يمر بهما ولا يحس بما فيهما من تكرار سمج؟ ولعلك تحب أن تكتشف الحشو في هذه العبارة «شربت الخيول الماء من النهر القريب»، وأنت تعلم أن النبيذ والعسل المصفى لا يجريان في أنهار هذه الدنيا الفانية. وانظر إلى هذه العبارة أيضًا «إن الدليل على صحة البراهين التي قدمها الادعاء احتواؤها على إثبات أن الجريمة وقعت قبل انتصاف الليل»، نعم هناك أدلة وبراهين وإثباتات تدل وتبرهن وتثبت ذلك.

أقوال مأثورة

• مستوى النقاش عالٍ في مجلس اللوردات، وهذا دليل آخر على وجود حياة بعد الموت. (دونالد سوبر)

• أريد أن أخبرك بسرٍّ يا صديقي: لا تنتظر الحساب، فهو يحدث كل يوم. (ألبير كامو)

• عندما رفعت جفنيها كانت كمن يتعرى. (سيدوني كوليت)

• كيف يمكنك أن تحكم بلدًا فيه ٢٤٦ نوعًا من الجبن؟ (تنسب إلى شارل ديغول)

• نحن في حالة نزاع مسلح، هذا هو ما قلته بالضبط، لم يكن هناك إعلان حرب. (أنتوني إيدن/ بعد إخفاق العدوان الثلاثي)

• الاندفاع القومي من أمراض الطفولة. إنه كالحصبة بالنسبة إلى الأمم. (ألبرت آينشتاين)

• ربما كانت الرغبة في تناول الأدوية من أهم ما يميز الإنسان عن الحيوان. (وليام أورلز)

• أسرع طريقة لكي توقف الحرب أن تخسرها. (جورج أورويل)

(27) نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٩٢.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن والعشرون
خبر الصوفي الذي وقع في حب فتاة نصرانية وشراء الكتب بأبعاض ثمنها الأصلي، برنارد شو، الكتاب الأخضر (28)

يزهِّدني في تناول الشعر القديم ثلاثة أشياء: صعوبته التي تحول دون التذوق، فإن شرحنا الكلمات الصعبة مات الكلام وصار مثل دروس التلاميذ، والشعر القديم قيل لكي ينشد لا لكي يكتب في القراطيس، فإن كتبناه فلا يلتذ بقراءته إلا من يقرأه بأذنيه لا بعينيه. والشعر يجب أن يكون مستريحًا على الورقة إذ يطبع. ولا بد أن يُظهر الطابع التماثل النصفي للبيت، فهذا أساس مكين في بناء القصيدة، لا بد من تساوي الأشطر في أطوالها على الورق مثلما هي متساوية في الوزن. وباختصار: أخشى من القارئ وعليه، أخشى ألا يقرأ صح، أو ألا يفهم صح، أستثني الذين يهيمون في وديان الشعر القديم، من الغاوين الذين يتَّبعون الشعراء. هذه هي الأشياء الثلاثة وهي -لمن لم يكن يعدُّ على أصابعه- الصعوبة أولًا، وفقدان الإنشاد ثانيًا، وجور التنضيد الطباعي ثالثًا.

بيتان من الشعر

إذا أراد رئيس الحكومة المأزومة أن ينقذها من السقوط بحيلة مَّا وهي على شفير الهاوية، قالت المعارضة: «لا يُصلح العطار ما أفسد الدهر». وأصل هذا المثل بيتان من الشعر:

عجوز تُرجِّي أن تكون فتيَّة

وقد لَحِبَ الجنبان واحدَوْدب الظهرُ

تدسُّ إلى العطار مِيرةَ أهلها

وهل يُصلح العطار ما أفسد الدهرُ؟

شرح البيتين أن هذه العجوز الشمطاء -أي التي اختلط أبيضُ شعرها بأسوده- تتصابى بصبغ الشعر، أو باتخاذ المعاجين والمراهم والخمائر لتشد جلد وجهها ويديها. وهيهات! فقد هدم الزمن بنيان شبابها، ولحِب وانبسط ما كان مكوَّرًا من جنبيها، وراح ما فيهما من لحم. وتكوَّرَ ما كان منبسطًا من ظهرها، فاحدودب وبرز بروزًا منكرًا. ولكنها تريد أن تجادل السنين، فتأخذ ميرة أهلها، من جبن وزيت ولحم قديد وسمن، المرة تلو المرة خُلسة، وتدفعها إلى العطار، بائع العطر وأصباغ الشعر وصاحب الوصفات. ولكن، هل يصلح

العطار شيئا أفسده الدهر؟ هذان بيتان فيهما صورة لطيفة. لا شك أن الشطر الأخير يقدم الخلاصة في أحسن صياغة. ولكنني كلما سمعتهم يقصرون استشهادهم عليه ويهملون البقية قلت: خسارة! ففي البيتين قصة وصورة.

أرق ... قرأ

أرقت ... أردت أن أقرأ في كتاب، جلبًا للنوم أو دفعًا للسأم. وقفت أمام رف كتبي!

كتاب عن أوضاع العالم كله في أرقام، كتاب إحصاءات يصور لك حال أمم الأرض في جداول ومنحنيات، ويتيح لك أن تقارن بين دولة ودولة في المساحة وعدد السكان وعدد الأبقار والإنتاج القومي ومعدل دخل الفرد ومعدل استهلاك كل فرد من أكواب القهوة والشاي، ومن اللحم ... إلخ.

لا، ليس الآن. هذا كتاب يعجبني في معظم الأوقات. لكن ليس الآن. وبما أنني فتحت الكتاب فلأنقل منه معلومتين: أكثر الناس استهلاكًا للقهوة الفنلندي، وللشاي التركي (ويأتي المغربي في الشاي خامسًا على العالم، والسعودي عاشرًا)، وأكثر الناس استهلاكًا للحوم بأنواعها الكويتي والأمريكي، ويتساويان. وأقلهم أهل بنغلاديش. والأكثر استهلاكًا للسكر الأمريكيون بلا منازع، يستهلك الأمريكي من السكر ٢٥ ضعفًا مما يستهلكه الهندي.

برنارد شو والمتنبي

كتاب آخر عن جورج برنارد شو. هذا كتاب من ألف وخمسمائة صفحة ثارت حوله زوبعة إعجاب عند صدوره قبل أربع سنوات في بريطانيا. والكتاب مثال للإبداع في فن كتابة السيرة. وسيرة من؟ سيرة رجل لا أرى له مثيلًا. كنتُ جئت أتحدث عن برنارد شو مرة على هذه الصفحة، فتزاحمت في نفسي مشاعر الإعجاب، فأمسكت وعرفت أنني لن أكتب شيئًا ذا قيمة إلا بعد مضي مدة تزول فيها الهالة، ويخلص الحديد من الخَبَث. أحب في كثير من الأوقات أن أفتح جزءًا من هذه الأجزاء الثلاثة الضخمة على أي صفحة وأقرأ ... فلن أجد إلا ما هو طريف ودسم، كدت أمد يدي إلى جزءٍ منها لأقرأ قليلًا أو كثيرًا، ثم انصرفت نفسي عن ذلك، لا أريد في هذه الساعة أن أقرأ من الشمال إلى اليمين، وإذا اضطررت فليس في هذا الكتاب المليء بالكلمات الصعبة. انزلقت عيني إلى أسفل الرف، وهو -إن أردتَ أن تتخيله- مجموعة من الرفوف مصندقة معًا. ورأيت مجموعة أقاصيص بوكاشيو إمام القصة عند الإيطاليين. رجل خفيف الظل، لا يبالي أن يقص عليك ما يجري بين رجل وامرأة عندما يكون الشيطانُ ثالثَهما. منعني من تناول الكتاب شيئان: القصص التي فيها حرارة كنت استصفيتها أولًا بأول عندما اقتنيت الكتاب، ثم

إنني في هذه الساعة من السأم الليلي لا أريد أن ازداد انتباهًا. أنا طالب نوم لا يقظة. تركت بوكاشيو في مكانه. ديوان المتنبي، حدثتني نفسي به. ولكن .... هل هناك أمل في العثور على ذلك البيت الذي أحاول أن أتذكره منذ أيام ويفر من بين أصابعي فرار النوم عن عين الجبان؟ لا سبيل ... سأتذكره بالصدفة. هذه هي الطريقة العملية الوحيدة لتذكر بيت شعر فارّ. ها هو ... ها هو ... وجدته ... البيت الفارّ. لم أتناول ديوان المتنبي، ولم أفحص عن شيء. بل لم أحاول أن أتذكر البيت. كنت أريد فقط أن أبدأ سطرًا جديدًا واصفًا كتابًا آخر، فإذا البيت يقرع ناقوس ذاكرتي. الحقيقة أن هذا البيت طرق باب حياتي العملية قبل أيام. فقد تعرض أحدهم لسرقة ... واستطاع بقرائن عديدة أن يعرف السارق ... والسارق هو جاره الذي بالجنب. ولكن ماذا يفعل؟ الجواب: لا شيء ... ليس في وسعه إلا أن يحتمل الأذى وهو يرى جاره يروح ويجيء أمام ناظريه. تذكرت عندما خطرت ببالي القصة بيت المتنبي:

واحتمالُ الأذى ورؤيةُ جانيـ

ـهِ غِذاءٌ تَضوَى بهِ الأجسامُ

لن أتحدث عن المتنبي كثيرًا، فقط سأشرح البيت (تحمل الأذى مع رؤيتك الشخص الذي جنى عليك هذا الأذى هو كالطعام الذي تضوى، أي تهزل، به الأجسام بدل أن تصح). أفضِّل أن أنتقل إلى الرفّ الأوسط.

المزبلة

كُتب هذا الرفِّ هي بين كتاب صغير ورقيِّ الغلاف عجيب المقاسات، وكتاب مرشح للانتقال إلى المزبلة الحقيقية، وكتاب أيديولوجي. وأضع أمام هذه الكتب قطع النقد الصغيرة والأقلام التي لا تكتب، والتي لم أتخلص منها على أمل أن تغير رأيها يومًا وتنشط. لماذا أحدق أصلا في هذا الرف الحقير؟ ولكن، حنانيك! هذا كتاب طريف.

هذا كتاب «بروير» الذي يحتوي على كل طريف وممتع، ولا سيما فيما يتعلق بأصول الكلمات وبخرافات الشعوب. إنه قاموس يحلل العبارات المتداولة في لسان الإنجليز ويردُّها إلى أصولها، ويروي ما يتعلق بها من حكايات. ألَّفه الأب بروير قبل ثمان وتسعين سنة. رأيتُ الكتاب وشعرت بوخز الندم؛ لأنني لم أشتر الطبعة الرابعة عشرة منه ... الطبعة الحديثة المنقحة التي يمكن اعتبارها كتابًا آخر حسن التوثيق والتحرير. فالطبعة التي عندي هي صورة طبق الأصل عن كتاب بروير الذي سقطت حقوق نشره ... وعليه فالكتاب رخيص جدًّا. وقفت أمام الطبعة الجديدة قبل أشهر، وأردت أن أشتري نسخة

من المكتبة ثم أحجمت أمام السبعة عشر جنيهًا. وها أنا أندم. أستأهل. نفسي تعاف هذه النسخة الأصلية.

ثم ألقى نفسه أمام عيني كتابٌ انبطح على جنبه فوق الكتب؛ لأنه من القطع الكبير. كتاب صور فوتوغرافية. ليس عندي مثله غيره. اشتريته بثمن بخس من مكتبة تبيع فوائض الموزعين بأبعاض الثمن الأصلي. ثم ألقى الله محبته في قلبي وعقدتُ صداقات مع أشخاص تلك الصور.

كان عندي، من زمان، كتاب كهذا حصلت عليه من فم النبع: كنت أشتغل في مطبعة، وطبعنا كتابَ صورٍ، وأخذت نسخة من تلك النسخ التي يصيبها تشوه، وشذبت هذا التشوه ما استطعت بالمقص الكبير، فانصلح حال الكتاب، وإن ظل فيه شيء يحرمه من أن يكون صالحًا للسوق، ولكن يمنحه هذا الشيء خصوصية. صار هذا الكتاب دفترًا من دفاتري. أدمنت النظر فيه وصار وعاء لأحلامي. راح هذا الكتاب. وعندي الآن كتاب - دفتر جديد.

ما الداعي إلى هذا الكتاب الآن؟ ألا يكفيني ما أنا فيه من أرق. صور الكتاب فيها فقر كثير وانحلال كثير. لا أعني بالانحلال الفتيات العاريات، ولكن الفتيات والفتية الذين يتسكعون ويقفون وِقفة مرتخية ويفوحون لامبالاة وإحباطًا. وفي الكتاب أيضًا صور لوردات وأرِستقراطيين. الصور كلها من بريطانيا ... من بلد التفاوت الطبقي ... ما أقبح ذلك! لا أريد أن أستذكر القيم والمثل العليا. أريد أن أقول ما أحس به باللجوء إلى مثال.

من أبسط الأشياء أن يدخل الأب غرفة أولاده في الليل على رؤوس أصابعه فيغطيهم. الفقراء لا يفعلون ذلك. الفقر انحطاط. إذا كثر فقراء بلد وصاروا طبقة، وصارت هذه الطبقة تجدِّد نفسها جيلًا فجيلًا، صار هناك عصابات تسرق الغسيل المنشور على الحبال وتسرق المحافظ وتدمر نفسها وتزعج غيرها. الفقر تهمة للبلد وللمجتمع.

كفى عن هذا الكتاب، كل هذا التفلسف وأنا لم أفتح الكتاب فكيف لو فتحته؟ ازددت على الأرق والسأم حيرة وأنا واقف أمام رف كتبي.

الكتاب الأخضر؟

بدون وعي سحبت الكتاب الأخضر. لا ... ليس ما ظننت! أقصد المستطرف في كل فن مستظرف ونسختي منه خضراء. سحبته دون أي تفكير. ربما بحكم العادة. فإنني كلما اعتادني من السأم عيد لجأت إلى المستطرف، ففيه كل النوادر والقصص من تراث العرب القدماء ومن جاورهم من فرس وهنود. فيه خزعبلات وحكم ومواقف. وهو مكتوب بقلم حنون. مؤلفه الأبشيهي ودود وغزير النوادر ويحسن الاختيار. وهو بعيد عن التعالم، وعربيته جميلة، وهذا

شيء نادر ... ليس فقط في أيامنا هذه، بل في ذلك الزمن أيضًا. كان المستطرف قد أخبرني من سنوات بخبر أحد أقطاب الصوفية، وظل هذا الخبر يعيش في نفسي، وكلما مرَّ الوقت ازداد ذلك الخبر لطفًا ورقة واكتسب ظلالًا من الشك وضاع مزيد من التفاصيل. القصة المؤثرة هي التي تتبخر تفاصيلها ولا يبقى منها بعد حين إلا أثرها في النفس خالصًا من شوائب التفاصيل.

ذلك الخبر هو خبر الصوفي الذي وقع في حب فتاة نصرانية، فترك أصحابه ولحقها إلى الدير وتزوجها ... ثم رأوه بعد حين يرعى الخنازير في البرية، فبكوا لما آل إليه ... ثم خرج الصوفي من النهر وعاد إلى أصحابه. شيء من هذا القبيل. خرج من وسط الماء ... إلخ. فتحتُ المستطرف وقرأت أسطرًا: «سئل بزرجمهر عن حاله في نكبته. فقال: عوَّلتُ على أربعة أشياء: أولها أني قلت: القضاء والقدر لا بد من جريانهما. والثاني أني قلت: إن لم أصبر فما أصنع؟ والثالث أني قلت: قد كان يجوز أن يكون أعظم من هذا. والرابع أني قلت: لعل الفرج قريب».

تعجبني هندسة هذه الحكاية. قرأت في المستطرف هزيعًا من ليلي، وملزمتين من صفحاته، وطويته وطواني النعاس.

وفي الصباح قلت: «يا فتاح يا عليم، يا رزَّاق يا كريم، لا تحرمني نعمة التمتع بالنظر في كتب قومي، ولا تجعلني أتغرَّب في كتب الأعاجم إلا بمقدار».

فضلات الكلام

• لغز محيِّر: لم يعد أحد يذكر كلمة «لغز» إلا أردفها بكلمة محيِّر حتى لكأنهما كلمة واحدة. وهل يكون اللغز لغزًا إن لم يكن محيِّرًا؟ ثم أي الكلمتين أقوى وقعًا؟ كلمة لغز هي الأوقع؛ ولهذا أرى من الفضول أن نتبعها بكلمة أضعف منها، فهذا يجعل «اللغز المحير» أقل تحييرًا من «اللغز» وحدها.

• النساء الحوامل: هذا التعبير سابق لزمنه. عندما يخترع الأطباء وسيلة تمكن الرجل من حمل الأجنة في بطنه يصبح من الضروري أن نفرق بين النساء الحوامل والرجال الحاملين، أما في زمن التخلف هذا فكلمة «الحوامل» وحدها تكفي.

• تعرض الماموث للانقراض التام منذ آلاف السنين: الانقراض ليس وصفًا يحتاج إلى عيار. إنه حالة محددة معلومة. ليس هناك انقراض تام وانقراض ناقص. هذا يذكرني برجل كان يحشر كلمة «تقريبًا»، في كل موضع فإذا سألته: ماذا أكلت؟ قال سمكًا تقريبًا، أو أين تغديت؟ قال: في البيت تقريبًا.

(28) ديسمبر/ كانون الأول ١٩٩٢.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع والعشرون
ديباجة، تطفل، الخنفشار، الجنس، نظرية سياسية، تنمّر.. وتنمرد (29)

اللهم لا أسألك الشفاء، بل الاشتفاء. صدري عامر بالغيظ والشره والحسد والاشتهاء، وبكل ما له اسم وما ليس له من نفايات العواطف وكبار الضغائن. اللهم قد وقف ببابك خلق كثير يشتكي علل الصدر ويشتهي أن تزول، فإنني واقف بباب استجابتك أشتهي أن أشتفي. فأرني ضغائني أجسامًا تمشي بين يدي، وحقق نفايات عواطفي، إنك أنت السميع المجيب. سألتك اللهم أن تبعد إبليس عني، بعد أن يفرغ مني، وأن تجعل عفتي اختيارًا. رب لا أسألك مالًا ولا كمالًا، فالمال الذي يغني معرفتك، والكمال لا يكون إلا في الفناء في ذاتك العلية، أسألك ألا تتركني في سوق الشهوات إلا بائعًا أو شاريًا. إنك على كل شيء قدير.

ديباجة

إليك أشياء في اللغة، يعرفها كثيرون ويجهلها كثيرون، فإن كنت من الكثيرين الأوائل، فاصفح صفحًا جميلًا، وأغضِ إغضاء العالم يسمع ما يعرف ويحبس لسانه عن قول: «كنت أعرف ذلك»، وإنها لتضطرب في صدره، ويمسك رأسه أن يميل ذات اليمين أو ذات الشمال، أو أن يهتز اهتزازة تومئ إلى أنه كان يعرف. وإن كنت من الكثيرين الأواخر فأفد هذه الأشياء، وادَّخرها في محفوظك ولا تفاخر بها أحدًا، فإن المفاخرة بنتف العلم تنفِّر القلوب، ولا كذلك مطارحة النوادر والفكاهات. والمرء يكره أن يأخذ العلم مشافهة مثلما يكره أن يستدين عشرة جنيهات تظل معلقة بحبل من مسد في عنقه، يسمع لها صليلًا بغيضًا (أو حفيفًا مخيفًا، إن كانت من العملة الورقية). ولكنه لا يكره أن يحتطب العلم من الدفاتر، فأوراقها تقف بينه وبين الكاتب ستارًا يحميه مذلة الإقرار بالدَّين، ويقيه شبح السداد.

أقول قولي هذا وقد أخذت أنا نفسي هذه الأشياء، التي سأعطيكها، عن الدفاتر. إن يكن لي فضل أُدِلُّ به، ففضل النقل والتحرير والتقطير، فلست أنقل شيئًا من ورقة إلى ورقة إلا بعد أن أسطره أولًا على صفحة ذهني، وأتركه يتقلب مثلما تتقلب حبات البن في المحمصة، وقد يغريني بين الحين والحين كتاب حسن التأليف أن أسلخ منه شيئًا. غير أنني أقف هنيهة. يمر أمامي «ضمير الكاتب» وبيده عصًا دقيقة كعصا المايسترو يهزها في وجهي برفق، فأنحيه بيدي جانبا، ويمر شبح الفضيحة أمامي ويقول لي: إنك لتقول

في نفسك إنها غارة صغيرة وإن جمهور القراء لن يكتشف الأمر. ولكن ما يدريك؟ لعل فيهم من يتعقَّبك سطرًا فسطرًا وشهرًا فشهرًا.

ثم يمر أمامي قارئ يعرف عن الموضوع أكثر مما أعرف، ولكنه يقرأني لكي يتأكد من تفوقه، وأراه يمسك بمعصمي ويشد عليه حتى يسقط القلم. أرى كل هذه الصور فأثوب إلى العفة مؤمنًا بها، أو خائفًا من مغبة الافتضاح. ثم أترك الفوائد اللغوية وأقنع بحديث أسوقه عن أصناف الطعام أو عن أحوال الأنام. أتركُ الهمَّ، والهم لا يتركني. أرى طائفة من الناس قد أخذت بالصياح من وراء الستار الورقي تطلب نتف العلم وفرائد اللغة وشوارد لسان العرب. أما بعد، (بعد هذه الديباجة) فإليك شيئًا من هذه الأشياء في اللغة التي يعرفها الكثيرون، إليك أصل كلمة «تطفل».

تطفل

يتطفلون على الفن والأدب أشكالًا وألوانًا. تفتح زوجة رئيس مجلس الإدارة باب صالونها للفنانين والأدباء، وتسقيهم الشاي المعطر، وتعلفهم الكعك المستورد في علب تنكية جذابة، حتى تتسلل إلى طبقتهم وترتفع عن صواحبها درجة، فتغيظهن فيشتمنها وراء ظهرها. أما آكلو الكعك فيتظرفون أمامها ثم يهزأون بها وراء ظهرها، وإنهم لأشد إحساسًا بالغربة في صالونها وفي حضرة آنيتها الفاخرة وما حوته من طرائف النُّقل المستورد، الذي لا يشبع بطون شُذَّاذ الآفاق من الأدباء ولكن يشحذ شهواتهم المتقدة إلى تسلق السلم الاجتماعي، إنهم لأشد إحساسًا بالغربة في صالونها منهم بالغربة في أوساطهم، وبين فتات أحاديثهم. وتهبط أحاديثهم على سلم المستوى الفكري حتى تصير ملائمة لعقل زوجة رئيس مجلس الإدارة المتطفلة على الفن والأدب.

أذكر متطفلًا من نوع آخر ظل يكتب الشعر ويملأ به الدواوين والأرصفة وواجهات المكاتب وصدور الصحف والمجلات حتى اقتنعت به الدولة، وجعلته نقيبًا للرابطة أو رئيسًا لهيئة الكتَّاب والفنانين والصحفيين، وصار يحضر المؤتمرات والندوات ويربط نفسه من عنقه بزمام ملون يتدلى على صدره. وأعطوه سيارة، وشقة في عمارة، واستمر يوجِّه الانتقاد (البنَّاء) للحكومة … بحساب معلوم.

الذي جرنا إلى هذا الكلام هو كلمة متطفل. وأصلها في اللغة ليس من كلمة طفل كما قد يحسب بعض الناس (ولهم أن يحسبوا؛ فالطفل متطفل على أهله). أصلها من طفيل. وكان «طفيل» رجلًا يعيش في الكوفة ويأتي الأعراس غير مدعو؛ فيخاله أهل العروس من أهل العريس، والعكس بالعكس. وقد أخذتُ أصل كلمة «تطفل» من كتاب المُزهر لجلال الدين

السيوطي. وهذا كتاب جليل يقع في ألف ومائتين وتسعين صفحة ليس فيها سطر من كيس السيوطي، بل هو سفر نُقول، نقله المؤلف عن الكتب الأخرى، وقيمته أن السيوطي عالم جليل يحرِّر ما ينقل، وأن كثيرًا من الكتبِ الأصلِ قد ضاع، وعليَّ أن أضيف شيئًا آخر، وهو أن الإمام الجليل كان يرد الأشياءَ إلى أصحابها … على الأقل في هذا الكتاب.

الخنفشار

وآخر ما أنا مورده عليك من أشياء في اللغة، وقد ألح عليَّ النعاس، أصل قولهم: «هذا الكلام خنفشاري»، يعنون به كلامًا ملفقًا مختلقًا جملة وتفصيلًا. أصل التعبير: كان هناك رجل يحضر مجلس الأمير ويدَّعي معرفة كل شيء في اللغة، فلا ترِدُ كلمة إلا فسرها واستشهد لها الشعر والحديث. ثم يفتحون معاجمهم فلا يرون فيها شيئًا من تفسيراته وشواهده، وهو يقول لهم: معاجمكم قاصرة وتلومونني!

ضجر الأمير من الخصومة بين هذا المتعالم وسائر الجلساء، فأراد أن يختبره. ذات يوم نظر الأمير إلى جلسائه وكانوا ستة، وقال لهم: ليعطني كل واحد منكم حرفًا. فقال الأول: خاء، والثاني: نون، والثالث: فاء … حتى اجتمعت أحرف «خنفشار». وعندما حضر الرجل المتفاصح المتعالم قال له الأمير: خبرني عن الخنفشار، ما هو؟ فانطلق المتعالم يقول: أصلح الله الأمير، إنما ذلك نبات يطلع في الخلاء غِبَّ المطرة الأولى، وبه يعقدون الجبن فهو يغني عن المساة، وقد ذكره الشاعر في قوله:

لقد عُقدتْ محبتُكم بقلبي

كما عَقدَ الحليبَ الخنفشارُ

فأثنى الأمير عليه، وعلم أن من الدجل ما هو في غاية الجمال. ولعله أدرك أيضًا أن اللغة علم خنفشاري إلى حد بعيد.

الجنس

أحيانًا يصرخ القلم بصاحبه: احملني بين أصابعك واكتب بي، لا عليك، فالأفكار وأبكار المعاني ستتدفق. وأحيانًا يمسك المرء القلم ويُهوي به على الورقة في ضربات عظيمات، فيقدح في الصخر ولا ينال سوى فتات من الخواطر الباهتة. هاك واحدة:

الجنس كلمة وسخة. اجلس في الغرفة وحدك. أغلق الباب عليك. فكر في الأمر. استعرض ثلاثة الأحرف: الجيم والنون والسين. ثم انطقها بتأن معًا: جنس … تحس بأن لسانك توسخ جدًّا. إن كنت قاهريًّا وجيمك مثل قاف البدوِ

فانتبه إلى حرف السين واجعله يصفر وامدد النطق وشدِّده، وإن كنت شاميًّا فجيمك تصلح لهذا المطلب ... جُرَّ هذه الجيم التي كادت لولا الحياء أن تصير شينًا ... جرَّها واجرشها بين لسانك وسقف حلقك حتى ينقطع النفس أو يكاد، وامنحها عمقًا صَدائيًّا من تجويف الصدر (اصنع ذلك الآن خطوة خطوة كما أصف لك)، ثم تخلص من النون والسين في آخر سنتيمترين مكعبين من هواء رئتيك ... تَرَ بأم عينك وسخًا كثيرًا. «الجنس» كلمة وسخة، وهي كلمة جدَّت على العربية في القرن العشرين أو الذي سبقه. وما كان يعرفها الجاحظ ولا الراغب الأصفهاني. كان عند العرب مائة كلمة أخرى تقوم مقامها. وصارت كل هذه الكلمات محظورة. وبقيت كلمة الجنس «بيتًا» مرخصًا يكشف عليه طبيب الدولة بين الحين والحين.

قصة قصيرة

كان هناك بلدان متجاوران. وكانت فقيرات كل منهما يذهبن إلى البلد الآخر ليشتغلن بغايا. هذا ما أحبط كل محاولات توحيد البلدين.

نظرية سياسية

إذا كان هناك نهر كبير عميم النفع ينبع في بلد ويصب في بلد آخر، فلا بد أن يكون بلد المصب أقوى من بلد المنبع، وذلك حتى لا يستأثر بلد المنبع بالماء بإقامة السدود وحفر التحويلات. فإن لم يكن ذلك كذلك تقم الحرب وتعقد التحالفات، حتى يصبح ذلك كذلك.

تنمّر.. وتنمرد

يقال: «فلان يتنمرد علينا»، ويقال: «يتنمر». قد يحسب بعضهم أن يتنمرد (بالدال) عامية فصحاها يتنمر. الحقيقة أنهما كلمتان مختلفتان؛ فإذا قلت: فلان تنمَّر لجاره، فأنت تقصد أنه أبدى لجاره شراسة وسوء طبع، وقد تقول كما كان قدماء العرب يقولون: لبس له جلد النمر، فالكلمة مأخوذة من اسم ذلك الحيوان الشرس.

وأما التنمرد فهو شيء غير بعيد عن ذلك في المعنى وإن كان مختلفًا في الأصل. هو التشبه بنمرود الطاغية الذي ورد في كتب القَصَص الديني أنه ألقى بإبراهيم أبي الأنبياء في النار فكانت بردًا وسلامًا. ومثل التنمرد التفرعن. وهذه مشتقة من فرعون الذي استكبر وعصى.

أقوال غير مأثورة

• لا لعب في الحياة ... كل ما يدعى باللهو هو تدريب على مهام حياتية أساسية.

• غالبًا ما يكون المسرف أشد خوفًا من صروف الدهر من المقتصد.

• أخطر اختراع العجلة، يليه التلفزيون.

• الثروات أمانات يضعها المجتمع عند أفراد منه لصيانتها، وأصحاب الثروات يخونون الأمانة دائمًا.. ولكنه ثبت أنهم أصْوَنُ للثروات من الدولة.

• الاشتراكية حلم جميل، حاول بعضهم تمثيله في الواقع، فكانت الكارثة.

• كيف يركبون دراجة العجلتين ولا يقعون؟ سألت جدي وأنا صغير؛ فقال: كلما مالت نحو الشمال مالوا نحو اليمين، ويظل هذا دأبهم. وكبرت وفكرت في الأمر، ولم أجد حتى الآن تفسيرًا أفضل.

• إنما يشاهدون الأفلام الإباحية لمساعدة مخيلاتهم الضعيفة.

• لماذا يا ترى لا أفقد قلمًا إلا ويكون صالحًا للكتابة. ولا أعثر على قلم إلا ويكون معطلًا تالفًا؟ لا بد أن هناك في مقابلي شخصًا يفقد أقلامًا تالفة ويجد أقلامًا صالحة.

أقوال مأثورة

• إنما توجد حياة في الكون؛ لأن ذرة الكربون ذات خواص غير عادية. (السير جيمس جينز)

• عندما لا أكون مع الفتاة التي أحب، أحب الفتاة التي معي. (يب هاربورغ)

• أصبح العالم مستشفى مجانين، يديره المجانين. (لويد جورج، عندما صعد نجم هتلر)

• الحياة سقوط أفقي. (جان كوكتو)

• العالم مضطرب جدًّا، وقريبًا لن يبقى في العالم سوى خمسة ملوك: ملك إنجلترا وملك الديناري وملك السباتي وملك الكبة وملك البستوني (في أوراق اللعب). (قالها الملك فاروق للورد بويد أور في عام ١٩٤٨، على ذمة الأخير).

• أعرفه جيدًا، فقد كنت غارقًا فيه طوال الأسبوع الماضي. (جون ميجور رئيس وزراء بريطانيا، قالها وهو يجرف السماد الحيواني إلى جذع شجرة أثناء نشاط اجتماعي، وقد حاول أحدهم أن يشرح له فائدة الزبل للنباتات. وكان ذلك في نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٩٢ بعد أسبوع حافل بالهجوم على الحكومة).

(29) يناير/ كانون الثاني ١٩٩٣.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثلاثون

دعبل سارق الكلمات، والإنجليزي المتلاعب بها وجنيه الذهب الذي أصبح رطل عنب (30)

ليس هناك كاتب لا يتأخر في مقاله، ولا يماطل، ولا يسوِّف، أحب أن يبقى المقال في جيبي حتى اللحظة الأخيرة. ومتى خرج شيَّعته بدموع الأب الفاقد. ولو أُتيح لي أن أنزل معه في حفرة المطبعة لكي أظل أتعهده بالتشذيب لما قصرت. لا بل إنني على استعداد لإصلاح الخلل والزلل (مني ومن الطابع) حتى بعد خروج المجلة من بين تروس المطبعة. مستعد لتصحيح الأغلاط في كل نسخة على حدة. في الخامس عشر من كل شهر يزداد الضغط؛ إذ في العشرين لا بد من التسليم. فإن أكن في شهر سعد يكن حمل ومخاض ووضع في الأيام الخمسة المعلومة. وإلا فحمل فإجهاض، فحمل آخر فإجهاض آخر، حتى أبلغ الليلة الأخيرة. وفيها أجلس إلى منضدتي مجلس امرئ مقدم على عملية فدائية. أفكر وأتأمل دون أن أملك ترف التأمل. في النهاية لا بد من شيء على الورق ... أحيانا أمد يدي في جراب الشعر القديم. هذه حيلة مجدية.

ليلتي هذه ليلة ليلاء، وسأمد فيها ذراعي. ها أنذا أحس شيئًا ملتصقًا بقعر الجراب. وَخزٌ أشعر به في أناملي، لا بد أن هذا الجسم الخشن قصيدة هجاء! أو لعله رأس عنترة العبسي، لا هذا ولا ذاك. لقد أمسكت بهذا الجسم الغريب، واقتلعته بعد أن نالني من أذاه ما نالني. وعندما وضعته بيني وبين ضوء المصباح وجدته شاعرًا اسمه دِعْبِل.

دِعبل الخزاعي

دعبل قاطع طريق. قتل رجلًا في رمانة، فطارده أمير الناحية فعاش مشردًا طول عمره. قال مرة: «ها أنذا أحمل خشبتي على عاتقي منذ خمسين سنة لا أجد من يصلبني عليها». هكذا وردت العبارة في الأغاني وكنت أظنها من العبارات المحدثة المترجمة. لم يحظ دعبل بالميتة التي تمناها، بل بعث إليه أحد الولاة برجل قتله غيلة بسنان مسموم؛ لأنه كان قد هجا هذا الوالي. على أن دِعْبِلًا كان متخصصًا في هجاء الخلفاء. عندما آل الأمر إلى ثامن الخلفاء العباسيين، المعتصم، قال دعبل:

ملوكُ بني العباس في الكُتْبِ سبعةٌ

ولم تأتِنا عن ثامنٍ لهمُ كتْبُ

كذلك أهلُ الكهفِ في الكهف سبعةٌ

خِيارٌ إذا عُدُّوا، وثامنُهم كلبُ

ومات المعتصم فشيَّعه دعبل بقصيدة جاء فيها:

الحمد لله لا صبرٌ ولا جَلَدُ

ولا عزاء، إذا أهلُ البَلا رَقدوا

خليفةٌ مات لم يحزن له أحدٌ

وآخرٌ قام لم يفرح به أحدُ

فمرَّ هذا ومرَّ الشؤم يتبعُه

وقام هذا فقام الظلم والنكدُ

ولدعبل بيتان لخَّص فيهما موقفه من البشر:

ما أكثرَ الناسَ لا بل ما أقلَّهُمُ

والله يعلمُ أني لم أقل فَنَدا

إنِّي لأفتحُ عينيِ حين أفتحُها

على كثيرٍ، ولكنْ لا أرى أحدا

ولكن شهرة دعبل تقوم على قصيدتين، قصيدة على التاء مدح فيها آلَ البيت وكان متشيِّعًا، فوهبه علي بن موسى الرضا عباءته، ودفع له فيها أهل قُم ثلاثين ألف درهم فأبى أن يبيعَها، فأخذوها منه غصبًا للتبرك بها، ثم إنه قبض الثلاثين ألفًا شرط أن يُعطوه أحد كُمَّيِ العباءة. واحتفظ بالكم وأوصى أن يدفن معه. وقصيدة أخرى على الكاف فيها أشهر بيت قاله دعبل:

لا تَعجبي يا سَلْمَ من رجل

ضحك المشيبُ برأسه فبكى

وهذا البيت مسروق من مسلم بن الوليد، أستاذ دعبل، حين يقول:

مستعبِرٌ يبكي على دِمنةٍ

ورأسُه يضحكُ فيه المشيبْ

والسرقة واضحة لا تحتاج إلى إقامة الحُجَّة. ولكن بيت دعبل أخف وقعًا وأحسن تقسيمًا. الصنعة في البيتين تكبح الدفقة الشعرية.

ويعجبني من شعر دعبل قصيدته الهاشمية المشهورة، وفيها يتألم لما يعانيه أهل البيت من ظلم أقربائهم بني العباس. ويتذكر متوجعًا قتلى بدر وخيبر. وهو يستمد الصبر من إيمانه بأن آل البيت لا بد أن يأخذوا بزمام الأمر في نهاية المطاف. وإني لأنظر في أبيات هذه الهاشمية فلا أجد بيتًا متألقًا أقتبسه رغم أنها قصيدة متماسكة. أسوق البيت الأخير:

كأنكَ بالأضلاع قد ضاق رَحْبُها

لِما ضَمِنَتْ من شدة الزَّفَراتِ

وعندي أن أجملَ بيت لدعبل قولُه في رثاء أحدِ أبناء قبيلته خُزاعة:

كانت خُزاعةُ ملءَ الأرض ما رَحُبتْ

فقصَّ مَرُّ الليالي مِن حواشيها

لا أَمَلُّ من ترداد هذا البيت.

اللعب بالكلمات

الكلمات تسحرني، أحب أن ألعب بمفردات اللغة وأن أسرف في ذلك حتى تصبح الكلمات أشباحًا تتراقص أمام عيني وحتى تنفصل عن معانيها، وأروح أتذكر ما معنى الكلمة الفلانية؟ إنني أعرفها جيدًا وأستعملها كثيرًا، ولكنني لشدة ما أعملت الفكر فيها، ولطول ما قلَّبتها على أوجهها لم أعد أتبيَّن لها معنى محددًا.

مرت بي مدةٌ صرت فيها إذا تكلمت العامية التي تعلمتها في المهد شعرت كأنني أتكلم لغة أجنبية، وذاك أني كنت كلما فُهْتُ بعبارة وقفت وقفة تطول أو تقصر، ورحت أحلل التركيب وأؤول المعاني، وألتمس المسلك الذي سلكته هذه العبارة في عقلي قبل أن تخرج من بين شفتي، صرت أفكر في كل شيء أقوله قبل أن أقوله.

هناك كلمة إنجليزية تطلق على الشخص الخجول المتردد: يسمونه «الواعي لنفسه» أو «المراقب تصرفاته».

ترى الرجل العامي الفصيح الثرثار يجود بالتعبيرات اللذيذة والأمثال والأيْمان المصوغة ببراعة، وتراه يسرد قصته مستخدمًا كل ضروب البلاغة والحجج والمغالطات المنطقية لا يفكر في كلماته. وترى مثقفًا يحسن فهم أكثر من لغة ويقرأ كثيرًا ويسمع كثيرًا، ولكنه لا ينطق بالجملة المفيدة إلا بقلع الضرس. أترى هذا المثقف يراقب نفسه ويزن كلماته ويحاول أن يفصل ثوبًا

من الكلام على قدِّ جسم المعنى؟ إن كان ذلك كذلك، فلا أظن إلا أنه يلقي على كتفي معانيه الخرق والأسمال.

الذي تفتنه الكلمات يرسف في أغلالها، ويُحرم ثمار الأدب فلا يروق له عود ولا تطيب في فمه ثمرة، تبهره الكلمة المفردة وتفقده توازنه فلا يعود يسيغ بيتًا بله قصيدة، ولا يحسن أن يكتب قصة، بل تكتبه القصة. ولا أجد له ترياقًا إلا الإكثار من الدعاء والاستغفار إن كانا مما يرد غائلة هذا السم الزعاف الذي اسمه «اللعب بالكلمات». ولا والله ما أصنع في زاويتي هذه إلا ذلك.

الميل

المِيل مشكلة. لو أن بريطانيا وحدها تتمسك به مقياسًا للمسافة، لكان هناك أمل في أن تعدل عنه إلى الكيلومتر العشري بعد حين، ولكن الأمريكيين أشد تمسكًا بالميل من إخوتهم في اللسان.

قد بدأ قطبا المدنية السكسونية على طرفي المحيط ينسيان قياس الحرارة بالدرجات الفهرنهايتية المعقدة، ورضيا المقياس المئوي بعض الرضا، ولكن الميل بقي عزيزًا على قلوبهم، فإذا أرادوا استيراد سيارة من فرنسا أو اليابان اشترطوا أن تَعُد خطواتها بالأميال. نحاول هنا أن نتجاوز عن شرط بريطاني آخر عجيب هو أن تكون عجلة القيادة على اليمين حتى يكون السائق بعيدًا عن الرصيف، مع أن شوارع هذه الجزيرة من الضيق والاكتظاظ بالسيارات المصطفة على الجانبين بحيث لا يسوق المرءُ سيارته على يمين الشارع ولا على يساره بل في وسطه. وقد ترى بعين خيالك شارعًا يخرج فيه السائق من سيارته ويرفعها عاليًا بكلتا يديه حتى يجتاز مكانًا بالغ الضيق ثم يضعها مرة أخرى ويركب ويسوق، مثلما يصنع السائقون في أفلام الكرتون، الذي يسوق سيارة في بريطانيا سيأتيه هذا الخيال مرة على الأقل كل يوم.

انتهى الاستطراد، نعود إلى الميل وشأنه أهون من شأن الرطل الإنجليزي. وقد جعلوا هذا الرطل ست عشرة أونصة. قسمة عجيبة حقًّا. ويسمونه الباوند. والباوند اسم عملتهم أيضًا. وليس هذا موضع انتقاص أو عيب، فقد سمَّت الأمم نقودها بأسماء موازينها. فالدرهم وزن أولًا، ثم صار عملة، ألا ترى إلى قولهم: «درهم وقاية خير من قنطار علاج»؟ وكانوا في القديم لا يثقون بدار سك النقود، فإذا قبض أحدهم ثمن بيته ألف درهم جاء بميزانه ووزنها. والقيراط اسم عملة قديمة، وهو مأخوذ من وزن. وشاقل اليهود الذي ذكر في التوراة وزن أصلًا -شاقل العبرية هي أخت ثقل العربية- ثم صار عملة.

ومن المفروض أن يكون الجنيه الإسترليني أو «الباوند» مساويًا في القيمة لرطل إنجليزي أو باوند وزني من الفضة. ولكن وزراء الخزانة المتعاقبين أعدموه عافيته حتى غدا عاجزًا عن مساواة رطل من العنب.

وقد كان لتقسيم الجنيه قبل بضع عشرة سنة أمر عجيب. كان الجنيه مائتين وأربعين بنسًا أو عشرين شلنًا؛ فعلى هذا كان الشلن اثني عشر بنسًا، ولكن القوم نبذوا ذلك كله وجعلوا الجنيه مائة بنس.

نعود إلى الميل. وهو ١٦٠٩ أمتار على البرّ، فإذا وقفت بسيارتك على الشاطئ واعتليت ظهر يختك فميلك ١٨٤٢ مترًا، وهذا هو الميل البحري. فإن سموه «العقدة» فلذلك شأن آخر. العقدة هي «ميل بحري في الساعة». فعلى ذلك لا تقل: سرعة الزورق عشرون عقدة في الساعة، فعبارة «في الساعة» هذه متضمنة في كلمة عقدة، بل قل سرعة الزورق عشرون عقدة.

نعود إلى الميل البري. يقولون: إن تحويله إلى كيلومتر أمر بسيط. اضرب أميالك في ثمانية أخماس تحصل على كيلومترات. لعمري إن ذلك لمن عزم الأمور. ولا سيما إن كنت تريد تحويل سبعة وخمسين ميلًا مثلًا. ثم إن ذلك غير دقيق أيضًا، فالميل ليس ثمانية أخماس الكيلومتر إنه ينحرف عن ذلك قليلًا. انتظر حتى أحسبها على ورقة أخرى. (الميل أكثر من ذلك بنحو تسعة أمتار ولكن الرغبة في التبسيط هي السبب). ثم إن الميل لا يساوي ١٦٠٩ أمتار بالضبط. هناك تبسيط في هذه أيضًا. فالميل لا يقسم أصلًا إلى أمتار بل إلى ياردات.

لنختصر الشر

لا تحاججني فيما أقول، فإنني فاتح القاموس على جدول المقاييس والأوزان الملحق بآخره. وأمامي آلة حاسبة. وفي استطاعتي أن أمطرك بالمقارنات حتى تسلِّم أو تقلب الصفحة.

نعود -للمرة العاشرة- إلى الميل، هذا المقياس الوعر. الغريب أن الميل في الأصل مقياس عشري مثل الكيلومتر. عشري؟ نعم! صحيح أنه ١٧٦٠ ياردة، أو ١٦٠٩ أمتار تقريبًا. ولكنه عشري في الأصل. إنه ألف خطوة، والخطوة مقياس روماني قديم. عندما كان الرومان يريدون تحديد المسافة بين مدينة ومدينة كانوا يقيسونها بآلاف الخطوات. وسموا الألف خطوة ميلًا. والذي يشعرك بذلك ويثبته لك كلمة ميل نفسها. ألا ترى أن المليغرام هو جزء من الألف من الغرام، وألا ترى أن المليم هو كذلك بالنسبة إلى الجنيه وألا ترى أن الملينيوم معناه ألف سنة. باللاتينية: «ميل» معناها ألف.

الطريف أن العرب سبقوا الإنجليز إلى اقتباس كلمة ميل من اللغة اللاتينية.

قال المتنبي يصف عراكًا بين أمير طبرية والأسد:

سبق التقاءَكَهُ بوثْبة هاجمٍ

لو لم تصادِمْه لجازَكَ ميلا

فالأسد وثب على الأمير وثبة قوية، ولو لم يصادمه الأمير لكان الأسد قد حطَّ من وثبته على بعد ميل. قال شارحٌ: إن الميل مسافة غير محددة، وقال آخر: إن الميل ثلاثة فراسخ. وقال غيره: بل الفرسخ ثلاثة أميال. وقال قوم: إن الميل هو البُعد بينك وبين غاية ما يصل إليه بصرك. وتحديد ذلك يقتضينا أن نُلِمَّ بنصف قطر الكرة الأرضية، وأن نحدد بُعد عيني الرأي عن سطح الأرض، وأن نحسب طول الخط المستقيم الذي يصل عيني الرائي بطرف الدائرة الأرضية مماسًّا لها، ولعل معلم رياضيات يحب أن يتفرغ لذلك.

وأما معلِّم اللغة العربية فما أخلقه أن يقف إزاء هذا الكلام كله متأملًا. كلمة «ميل» أخذناها قبلهم واستعملناها بمعان شتى. ولكننا لا نستعملها اليوم إلا نقلًا عن الإنجليز الذين أعطوها معنى محددًا، لكنه مع ذلك مربك. فتعالوا نرفع الشكر للثورة العشرية التي أراحتنا من كل هذا.

أقوال غير مأثورة

• الغيبة مثل الجنس؛ كلهم يمارسونها وينكرون ذلك.

• لا بأس في أن يغتابوني؛ فأنا قادر على مجازاتهم بالمثل.

• الدكتاتور شخص غير سوي؛ لأنه محروم من نشاط أساسي هو الغيبة.

• كلما ازداد المستقبل غموضًا ازداد الماضي بريقًا.

• المائدة عند الأوروبيين، بملاعقها وسكاكينها وصحونها المختلفات، ورشة.

• إذا اختلف ترتيب الأخبار بين إذاعة وإذاعة فلا يوجد أخبار.

• قالوا: الأحلام تشرح الماضي لا المستقبل، ولكن: هل يصنع المستقبل سوى الماضي.

• الذي ينقل عني كلامًا لم أقله كذاب. والذي ينقل كلامًا قلته نذل وكذاب معًا؛ نذل لأنه استمع إلى كلامي على نية النقل، وكذاب لأنه أشعرني بغير ذلك.

• مثلما يسوِّي الموت بين الجميع سوَّى الانتكاس الحاضر بين شعوب العرب.

(30) فبراير/ شباط ١٩٩٣.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي والثلاثون
علوم العربية، العلم الجديد، العنخصاف، زنبك.. قفس (31)

نشمِّر عن ساعد الجِد، ونقدح الذهن بصخر الكتب. ونخترع علمًا جديدًا نضيفه إلى علوم اللغة العربية، ونتوكل في ذلك كله على الله. قد يذكر القارئ تلك الإعلانات في الجرائد: «بعد التوكل على الله، عزم فلان الفلاني صاحب محلات كذا للأقمشة والأجواخ الإنجليزية، رجالي وحريمي، بالأسعار المعتدلة، والجودة العالية، على أداء فريضة الحج». أو في رواية أخرى: «على شد الرحال إلى الرحاب الطاهرة». وعندما يعود، ينشر إعلانًا آخر عن «محلات (الحاج) فلان الفلاني التي وصلتها، أثناء وجوده في الديار المقدسة، تشكيلة من آخر الموديلات ...إلخ».

بعد التوكل على الله، عزمنا على اختراع علم جديد نضيفه إلى علوم العربية. وقد اختلف العلماء قديمًا وحديثًا في هذه العلوم وتقسيمها: أدخل بعضهم علمًا في علم، وأخرج بعضهم فرعًا لأحد العلوم وجعله علمًا قائمة برأسه، فما هي علوم العربية؟ حق علينا أن نبيِّن القائم منها، قبل أن نضيف إليه جديدًا.

علوم العربية

الصرف: هو علم الاشتقاق وتوليد الألفاظ من جذورها، وهو علم نافع لأعضاء المجامع اللغوية، قد يقول لك أحدهم: إن «آلة» عصر الزيتون تسمى المِعصرة (بكسر اللام). أما المكان الذي يذهب الفلاحون بزيتونهم لعصره فيسمى مَعصرة (بفتح اللام)، وإنما يستندون في هذه الفتوى إلى علم الصرف، فالوزن مِفعلة (بالكسر) من أوزان اسم الآلة. والوزن مَفعلة (بالفتح) يصلح للدلالة على المكان.

الإعراب: هو العلم الذي يجعلك قادرًا على تبرير أغلاطك، وتخطئة خصومك، فإن قلت: الخاطف يحمل جواز سفر إيطالي. فإنك تزعم أنك جررت كلمة إيطالي «على المجاورة». وإن قال تلك الجملة زميلك، الذي نال علاوة دونك، فأنت تقول له: «أَوَما نصبت!» فالإيطالي صفة لجواز لا لسفر. فإذا قال لك: «إنما جررت على المجاورة». قلت له: «تلك أمثلة تُحفظ ولا يُقاس عليها». وهذه عبارة من عبارات النحاة. ويُقال للصرف والإعراب معًا: «علم النحو»، وهناك من يجعل النحو مقصورًا على الإعراب، ويجعل الصرف علما مستقلاًّ؛ ومن هنا قولهم: النحو والصرف.

الرسم: قد درجوا على تسمية هذا العلم بالإملاء. وهو طريقة رسم الكلمات، ويكاد هذا العلم يقتصر على طريقة كتابة الهمزة. وأقول: إن من يدَّعي أنه يعرف قواعد الهمزة جاهل أو كذاب، فليس لرسم الهمزة قواعد، بل هي آراء. وخير ما يصنعه العاقل أن يستحضر كلمة مشابهة ويقيس عليها. ورسم العربية، بعد، سهل إذا ما قورن برسم الإنجليزية والفرنسية.

المعاني: هو علم أساليب اللغة وتركيباتها: الاستطراد والتكرار والتوكيد والجملة الخبرية والإنشائية.

البيان: هو علم التشبيه والاستعارة. ظن القدماء أن التشبيهات والاستعارات تزيد الكلام بيانًا ووضوحًا؛ فسموا العلم الذي يتناولها علم البيان، ونحن نعرف أنها تزيد الكلام غموضًا وتعقيدًا. الدليل على ذلك أننا جميعًا نسينا كل ما تعلمناه عن الاستعارة فور الخروج من قاعة امتحان الثانوية العامة، وإلا فقل لي بربك: ما هي استعارة المحسوس لمحسوس بوجه حسي؟

البديع: ذلك علم التلاعب بالألفاظ ومنه السجع والجناس والتورية.

وهذه العلوم الثلاثة الأخيرة (المعاني والبيان والبديع) تجمعها لفظة واحدة هي «البلاغة».

العَروض: هو علم ميزان الشعر، ومن يتقنه يستطيع أن يقول كلامًا موزونًا، وأن يكتشف الأغلاط المطبعية في الشعر، وأن يتذوق الشعر أكثر.

القوافي: الجزء الأخير من بيت الشعر هو القافية، ليس الحرف الأخير، فهذا الروِيّ، ولكن ذلك الجزء الذي يتضمن آخر متحرك قبل الساكن قبل الأخير وما بعده (مفهوم طبعًا!). ما لنا ولهذا الشأن العويص. أعمق بحث كتب في علم القوافي هو مقدمة ديوان اللزوميات التي كتبها صاحب الديوان أبو العلاء المعرِّي، وكان فحلًا في العروض والقافية واللغة و… في كل شيء.

علم الشعر: جعلوا لنظم الشعر قواعد. ولكنه ثبت أن أي نظم يُطيع أي قاعدة عن وعي يخرج عن كونه شعرًا.

علم الإنشاء: كيف تنشئ رسالة، وكيف تنمق الديباجة، وكيف تبسط مرادك في عبارات دبلوماسية أو مباشرة، ذلك هو علم الإنشاء.

الخطابة: قالوا: إنها علم.

الأدب: درس النصوص الأدبية ومقارنتها بعضها ببعض.

متن اللغة: كلمات اللغة ومعانيها. وتأليف المعاجم. هذا العلم كان القدماء يسمونه «علم اللغة». ومن فروعه «علم الغريب»، وهو دراسة الكلمات

النادرة أو القديمة التي ماتت، ومن فروع علم اللغة علم أصول الكلمات، ويسمونه «التأثيل».

تلك هي الثلاثة عشر علمًا التي هي علوم العربية كما قسَّمها بعضهم. والتقسيم قديم وأكاد أزعم أنه بائد. فقد خرجت علوم الشعر والأدب والخطابة والإنشاء، ولم يَعُد أحد يعتبرها من علوم اللغة. وتوسع علم الصرف كثيرًا، ونشأ من ضلعه علم يسمونه «فقه اللغة». وتضاءلت أهمية علوم البلاغة، وأسرف المعاصرون في هجائها؛ لأنها لا تفيد، ولأنهم لم يفهموها. قُيِّض للعربية في عصور الذهب والحرير والغزو والعبيد رجال عظام درسوها درسًا وقعَّدوا لها. وتغيرت أساليب اللغة وكلماتها، وصرنا بحاجة إلى رجال عظام يضعون قواعد جديدة. ولم نحصل حتى الآن إلا على فريق من باحثي الدرجة الثانية ممن يعيشون على فتات الأجداد ويكتبون أطروحات الماجستير والدكتوراه ويصيرون أساتذة جامعات. القدرات والمواهب موجودة، ولكن أولي الأمر لا ينفقون المال إلا على الجهود الاجترارية. الأوضاع راقدة.

وراءنا ألف وخمسمائة سنة من التاريخ اللغوي، وهي تشهد على أن التقدمية السياسية تفرز تقدمية لغوية إفرازًا. والرقود السياسي -والاجتماعي- يؤدي ليس فقط إلى رقود لغوي، بل إلى رجعية وتسطيح للتراث. إذا خشيت على التراث فإنما أخشى عليه من رافعي لوائه والمتشدقين برموزه.

هل آن لنا أن نخرج من هذا الكلام إلى ما كنا وعدنا به آنفًا من تأسيس علم جديد من علوم اللغة؟ حسنًا … لا بد أن نؤكد أننا لا نتحدث جادين كل الجد، ولا هازلين كل الهزل عندما نزعم أننا سنخترع علمًا جديدًا، فنحن أصلًا لا نقيم وزنًا كبيرًا لتقسيم اللغة إلى علوم تقسيمًا صارمًا. وأما سبب عرضنا للثلاثة عشر علمًا على النحو الذي رأيت فهو إطراف القارئ. ونحن نعلم أن من القراء من يتسلّى بالإحاطة بهذه الأشياء، وبمعرفة الحدود والقيود والأصول والفروع؛ ويتسلى باسترجاع أشياء تعلمها في المدرسة ونسيها … يحب أن يتذكرها ليتمكن من نسيانها من جديد.

العلم الجديد

تالله إن هذا لافتراء! سكبت على الورق نصف محبرة -وأنا أكتب بالحبر السائل لأريح أصابعي من الضغط الذي يستوجبه قلم الحبر الجاف- نصف محبرة وأنا أصف علوم العربية وأبشِّر العالمين بولادة علم جديد، ولما أضع لهذا العلم اسمًا، حتى بيني وبين نفسي … لم أسمِّه بعد.

من يدريك! لعلي كتبتُ كل ما كتبت وأنا أنوي ضبط الأسماء الأجنبية باستخدام رموز وأحرف إضافية مبتكرة. وربما كنت أفكر في أبجدية جديدة، أو لعلي

كنت أريد أن أقترح إسقاط باب الممنوع من الصرف وقواعد العدد والمعدود من النحو. ربما. قد يكون العلم الجديد الذي بشَّرتك به في السطور السابقة يتلخص في إسقاط الإعراب والسماح للصحفيين الخائبين لغويًّا بأن يكتبوا: «زار الوزيرين الدولتان في جولة يزورا خلالها أيضًا ثلاثة دولًا أخرى». وكما ترى ففي هذه العبارة خمسة أخطاء نحوية صريحة ... لكن العبارة ظلت مفهومة. ألا يكفي هذا دليلًا على أن النحو زينة؟ من يدريك بنيتي! على أنني أقول لك الآن: إن هذا العلم الجديد هو العَنْخَصاف.

العنخصاف

العنخصاف هو «علم النحو والاختصار وصوغ الأسماء والأفعال». وكما ترى من اسم هذا العلم، فإنه يجمع الأحرف الأولى من اسم طويل لصوغ اسم قصير. حسنًا، الأمر ليس بهذه السهولة دائمًا.

قال القدماء: «بسمل الرجل». أي قال: «بسم الله». فأخذوا الكلمة الأولى وحرفًا من الثانية، وذلك شبيه بانزلاق الأنبوب الأصغر في التلسكوب أو المنظار داخل الأنبوب الأكبر، وأنا أسمِّي هذا «النحت المنظاري». وعلى هذه الطريقة يمكن أن نختصر مصطلح «البعد الرابع» بكلمة «البُعْدُر». ويمكن أن نستعيض عن عبارة «المجلات العربية الصقيلة الملونة التي تصدر في لندن» بكلمتي «معصم لندن». أو بكلمة «معصمل»، وننطقها على وزن «سَفَرْجَل». فهذا نحت منظاري «أكرونيمي» بالتعبير الأجنبي، أي أنه يأخذ الحرف الأول من كل كلمة لصنع كلمة جديدة. ونحن في العنخصاف سنمضي إلى أبعد من ذلك.

نضع ألفاظًا تغنينا عن تكرار جمل طويلة، مثلًا: «وقد ناشد الجهات والهيئات والمنظمات الدولية بذل كافة الجهود للعمل على ...» يمكن أن نختصرها بكلمة «نشناش»، وقد استوحيتها من كلمة ناشد، وعلى هذا يطلع المذيع على ملايين الناس بهذا الخبر: «الوزير نشناش وقف إراقة الدماء» ويفهم الناس الأمر، بل يفهمونه أكثر مما في حالة العبارة الطويلة تلك التي ما يكاد المذيع يفرغ منها حتى ينسى المستمع أولها.

أجدادنا كانوا يجعلون التحميد والصلاة على النبي وإهداء التحية وإزجاء السلام في الرسالة أسطرًا كثيرة يقولون بعدها «أما بعد». بعضهم ألغى الأسطر الأولى، وصار يقول «أما بعد» في أول الرسالة، وذلك لعمري اختصار بديع. أنا أقترح أن نقول «أما بعْ» فنختصر حرفًا آخر إمعانًا في مسايرة عصر السرعة.

ما رأيكم في كلمة «عس» اختصارًا لتعبير «عصر السرعة»؟

ما رأيكم في كلمة «كردح» لـ «كريات الدم الحمراء»، و«كردب» لأخواتها؟

ما قولكم في كلمة «دعمقط»! تبدو، من شكلها على الورقة رقيعة، وأما وقعها على الأذن فأسوأ بمراحل ... ولا سيما إذا عرف الذي لا يعرف أن كلمة «قلعط» بالسريانية معناها وسخ، ولها مشتقات كثيرة مثل «القلعاط» و«القلعطة» و«المقلعط»، وكلها تجلب إلى الذهن صورة القاذورات والأوساخ. وهي مما أخذته عاميات بلاد الشام من السريانية.

ذلك عن قلعط السريانية، وأما «دعمقط» العربية التي اقترحها فهي ذات معنى سامٍ. إنني أريدها لتقوم مقام عبارة «الدعوة إلى مؤتمر قمة طارئ» ولا يخفى على القارئ اللبيب أن هذه العبارة ترد كثيرًا في نشرات الأخبار، ومن الخير أن يُعثَر على كلمة توجزها إيجازًا. فهل لنا الآن أن نقدم مثالًا بسيطًا على ما يمكن إنجازه عن طريق علم «العنخصاف». لو قال المذيع: «نشناش الوزير وقف العدوان ودعمقط». فإننا سنفهم أنه ناشد الهيئات وقف العدوان وأنه دعا إلى مؤتمر قمة طارئ. بعض الإذاعات التي تكثر فيها الكليشيهات ستصبح نشراتها الإخبارية ثلاثين ثانية إذا عملت بالعنخصاف.

زنبك.. قفس

قد يرى بعضهم أنني أسخر من دول وحكومات المجموعة الاقتصادية الأوروبية إذ أسوق قواعد العنخصاف، ولكن هذا إجحاف. أنا لا أسخر إلا من قومي الذين ينفقون الوقت الطويل وهم يكررون عبارة: «تطبيق قراري مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ورقم ٣٣٨، وإرساء أسس السلام العادل والمشرف» عشر مرات في نشرة الأخبار. لم لا يلاحظون كثرة حرف القاف في النصف الأول من هذه الجملة، وحرف السين في النصف الثاني فيقولوا اختصارا: «قاف سين» ثم يختصرونها إلى «قفسين» ثم إلى «قفس». وربما قرر أحد مجامع اللغة اختصارها إلى: «قه قه قه».

ما رأيكم في عبارة «وزراء نفط حكومات ودول منظمة الأقطار المنتجة والمصدرة للنفط أوبك» لماذا لا نختصرها بكلمة «زنبك»؛ فحرف الزاي يذكرنا بالوزراء، والنون بالنفط، و«بك» تذكرنا بأوبيك. وعندئذ يصبح الخبر «اجتمع زنبك في فيينا».

العنخصاف علم جليل ونافع. وأحوج الناس إليه قوم اهترأت أحوالهم حتى صارت ذخيرتهم الإعلامية مجموعة محدودة معروفة من العبارات الطويلة التي انسلَّ منها المضمون وقل الإيمان بها وقل تصديقها حتى كاد ينعدم، فلا أقل -والحالة هذه- من اختصارها.

أقوال غير مأثورة

- إطالة المقدمات أدعى إلى سوء التفاهم.

• هزيمة ١٩٦٧ كانت أمرَّ من نكبة ١٩٤٨. هذه نكبة أعقبها أمل، وذاك أمل حطمته هزيمة.

• للأنانية مائة صورة، أميِّز منها تسعًا وتسعين؛ لأنه ليس عندي مرآة.

• لو كان مضيِّفك يحترمك لما ضرب ولده على مشهد منك.

• نزل الزعيمان إلى شوارع العاصمة وتعانقا أمام الحشود بعد خصومة راح ضحيتها الآلاف. وأخذ الشعب يثابر ويجد، استعدادًا للحرب الأهلية القادمة.

• عذر واحد، وإن كاذبًا، خير من عذرين وإن صادقين.

• من أطيب طيبات العيش الإنفاق عن سعة.

• لا يشكُكَ أحد إلى المدير، ولا تشكُ أنت أحدًا، الأمران عند المدير سيان.

(31) مارس/ آذار ١٩٩٣.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني والثلاثون

الفالوذج والسرطراط واللوزينج والجوزينج، والكوادر التي تقلصت في «حزب البيجو» (32)

العدد الأخير من مجلة «هنا لندن»، وورثتها «المشاهد السياسي»

كانت العرب إذ أرادت أن تعيِّر قومًا بقلة العدد تقول: إنهم أَكَلَةُ رأس، أي يشبعهم رأس بعير، على قلة ما في الرأس من لحم، وقد ذكَّرني هذا التعبير بـ«حزب البيجو»؛ سماه مؤسِّسوه الحزب الوطني أو القومي، لست على يقين، ثم أخذ الاسم يطول مع الزمن حتى صار «الحزب الوطني الاشتراكي الديمقراطي الإصلاحي الثوري». أراد أصحابه أن يحبِّبوا كل من يحترم أحد هذه الأوصاف في حزبهم، فكان أن نفر كل من يزدري أيًّا منها من حزبهم، وآل بهم الأمر إلى أن انكمشوا إلى ثُلَّة، وكان لأحد أعضاء الحزب سيارة بيجو، فكانوا يروحون معه ويجيئون، وصار اسم الحزب «حزب البيجو».

أحاول أن أوظف هذه الحكاية في خدمة فكرة ما. لكن، بصراحة، الأمر أهون من ذلك، إن هي إلا تسمية استدعاها ذلك التعبير العربي القديم.

الباذنجان

من مناقب الباذنجان التواضع؛ فهو يحضر المائدة مستحييًا، يكاد يرفع كفه كي يقي صفحة خده صفعة صافع أو لطمة لاطم. وقد يستتر بين خبزتين في شطيرة، وقد يلتحف طبقة من اللحم والطماطم، وقد ينتفخ بأرز ولحم مطحون، فلا يقدر أن يحتال لكرشه البارزة.

ومن مثالب الباذنجان الغدر، يبالغ في تواضعه فتتشجع فتأكل منه شيئًا فيلسع لسانك. وهو ثمر إسفنجي القوام، تقطِّعه شرائح وتضعه في المقلى فيشرب كل الزيت ... ثم يحترق فلا تنتفع بأكله ولا يصفو جو بيتك من القتير الخطير، الذي يقفل الصدر والمناخير. يحترق اللعين بعد أن يشرب كل الزيت، فكأنه ناخبو ذلك المرشح للانتخابات البلدية الذي سقط فقال للناس: «أكلتم خيري، وانتخبتم غيري».

في مجلس أحد الأمراء راح قوم من المتفَيهِقين الذين يدَّعون بَصَرًا بالطبائع والأخلاط يمتدحون الباذنجان، وأخذ الأمير يهزَ رأسه، فراح آخرون ممن طُبعوا على التملُّق يزيدون الباذنجان مديحًا، كل هذا والأمير مطرق متجهم يكظم غيظه. وكان في المجلس رجل صامت. التفت إليه الأمير وقال: «أراك مطرقًا، ألا ترى في الباذنجان رأي القوم؟» فقال الرجل الصامت: «أطال الله

عمر الأمير، والله لو قُلِيَ بالسعادة، ورُشَّتْ عليه البهجة، ولو حُشِيَ بالتقوى، ووُعد آكِلوه بالمغفرة، ما أساغَهُ حلقي، ولا طاب بين أضراسي». انتهت القصة. ولو قُدِّر لها أن تطول لرأينا فيها الأمير يستحسن رأي الرجل الصامت، فيروح «حزب الباذنجان» يتخلص من أيديولوجيته الباذنجانية وينقلب إلى ذم الثمرة الإسفنجية.

وهذه التكملة ليست من عندي، بل أخذتُها من قصة باذنجانية أخرى قصها علينا أحمد شوقي في قصيدة جاء فيها أن الملك مدح الباذنجان فمدحه النديم، فذمَّ الملكُ الباذنجان فأخذ النديم يذمُّه. فلامه الملك فـ:

قال النديمُ يا مَليكَ الناسِ

عذرًا فما في فِعلتي من باسِ

جُعِلتُ كي أنادمَ السلطانا

ولم أنادمْ قطُّ باذِنجانا

قصة وليمتين

ومما مر بي من حكايات الملوك ومخالفة ندمائهم لهم أن عبد الملك ابن مروان أولم وليمة عظيمة، وبسط أمام الحاضرين الأطايب من فالوذج ولوزينج وسكباج وطباهج.

والفالوذج مثل «البان كيك» عند الأمريكان: خبزة مرقوقة ملتوتة بالعسل. ولم يكن العرب يعرفونها، فأخذوها عن الفرس مع اسمها. وسماها بعضهم السِّرِطْراط؛ لأنها سهلة الاستراط، والاستراط مثل الازدراد. واللَّوْزَيْنج مثل القطائف وكانوا يَلِتُّونه بزيت اللوز. فإذا اعتاضوا منه زيت الجوز سموه الجَوْزينج. وأما السكباج فلحم مطبوخ بماء وخل. والكلمة فارسية أيضًا وأقرب ما في العربية القديمة إلى السكباج السَّمَقْمَق. والطباهج رقائق لحم مقلية، سماها العرب الصفائف، وهي الستيك.

نعود إلى وليمة عبد الملك، فبعد أن أكل الناس ورفعوا أيديهم، نظر الخليفة الأموي فرأى المائدة ظلت على حالها، كأنما لم يأكل أحد من ألوانها شيئًا لكثرة الطعام؛ هذا وإنَّ كل واحد منهم ليمسك بطنه لكثرة ما اسْتَرَط. قال عبد الملك مزهوًّا: «أرأيتم طعامًا أطيب أو أكثر مما رأيتم في يومكم هذا؟» فارتفعت همهمة المدعوين بالثناء على الخليفة وعلى مائدته. وساد هدوء. فإذا أعرابيٌّ يقول دون لجلجة ولا غمغمة: «أما أكثر فلا والله ما وقعت عيني على أكثر من طعام أمير المؤمنين. وأما أطيب فلقد والله طعِمتُ أطيب». فتصاعدت همهمة استياء. ورشقوه بويحك والويل لك وثكلتك أمك. فأشار

إليهم الخليفة أن يكفوا فسكتوا واجمين. أراد عبد الملك أن يعرف أي طعام كان أطيب من طعامه. ولعله قال في نفسه: «والله لآمرن بهذا الأعرابي أن يُجلد خمسينَ على جلافته ووقاحته، ولكنني أحب أن أعرف أولًا ماذا عنده». قال عبد الملك للأعرابي: «هيه!» يستزيده.

قال الأعرابي: «خرجت للصيد، ولم أتزود بغير الماء. قلتُ: آكل مما أصيد. فلم أصد شيئًا، وارتفعت الشمس، ونالني التعب، وضللت طريقي وأنا أطارد الظباء والمها. وانصرف القيظ وأخذت أخشى على نفسي من التلف جوعًا. ثم عرض لي نبع، فكمنت، منتظرًا أن يرد الماءَ ظبي أو مهاة. فورد الماء سرب من حمر الوحش فسددت السهم فأصمَيْتُ، وخَرَّ جحشٌ منها عند نخلة جمَّاء. فانطلقت إليه فحززت رأسه».

ويعلم القارئ أن العرب كانت تؤثر لحم حمار الوحش على كل لحم، وكان تقول: كل الصيد جوف الفرا، والفرا حمار الوحش. ومن صاده فكأنما صاد غزالًا وأرنبًا ومهاة في آنٍ معًا. نعود إلى راوينا ونعيد إليه ضمير المتكلم.

حززتُ رأس حمار الوحش ونحيته جانبًا، ورحت أجمع القش والحطب. وجعلت ذلك كله من تحت حمار الوحش وفوقه وعلى جوانبه، ثم أوقدت نارًا وأخذت أصطلي وقد برد الجو، فسرقني النوم، وما صحوت إلَّا وقد غربت الشمس. رأيت حمار الوحش وقد نضج لحمه حتى تشقق، والحطب تحته وحواليه قد غدا جمرًا. صعدت النخلة وملأت جرابي تمرًا. ثم قعدت إزاء حمار الوحش آخذ منه الشحمة فأجعلها بين تمرتين، أو أجعل التمرة بين الشحمة واللحمة، وآكل هذا وذاك والدهن يسيل من مرفقيّ. فوالله يا أمير المؤمنين ما دخل جوفي قبل تلك الأكلة ولا بعدها أشهى منها. انشرح عبد الملك وأمر للأعرابي بكسوة ومال.

قصة قصيرة

انتظر القمر ساعة الكسوف الكليّ طويلًا، وعندما حانت والتقى بالشمس، قدم استقالته وسلَّم العهدة، خلع هالته ونزع المرآة المستديرة التي يعكس بها الأشعة على العالم ورماها عند قدمي الشمس.

قالت له: يا أحمق! وماذا ستفعل؟ قال: سأشتغل لحسابي الخاص. فتناولته الشمس من أذنه. وعلقت في عنقه المرآة المستديرة ثم طوقته بالهالة. وقالت له: خلقت يا أبله كي تكون تابعًا. الاستقلال لهيب لا يتحمله التابعون. أصلِح من شأنك بسرعة، واعتدل في مشيتك؛ لئلا يلاحظ الفلكيون اختلاج حركتك، ألا تراهم قد صوبوا المناظير إلينا؟!

إنفلونزا

لما بدأت الإنفلونزا تتسرب إلى عظامه في ذلك الصباح شعر بخدر لذيذ، وصار يتعمد أن يكِزَ الجدار بمرفقه وكزًا هيِّنًا، فيحس لذلك رعشة تشبه ما يحس به المُسْتَعِط (سَعوط = نَشوق). وعند الغروب أخذته الرِّعدة، وأحب ذلك جدًّا، وراح يدوس على أرضية الحمام حافيًا فتشتد به الرعدة ويرتجف من البرد فيسرع إلى فراشه فيدفأ بسرعة ويتصبب عرقًا، ثم يروح يئن أنينًا غريبًا يلحنه تلحينًا، (لا شك في أن المريض لا يئن إلا لأن الأنين يريحه). ثم ناء بالسخونة، ودخل مرحلة الهلوسة التي لم يخرج منها إلا عندما أصبح. ونام في الضحى نومًا مريحًا، وقضى بقية يومه بين الفراش والمطبخ. آلى على نفسه أن يعد وجبة بالغة التعقيد تحية لشهيته التي عادت إليه.

انصرفت الإنفلونزا، كانت خفيفة الظل، وحافلة بما يسلِّي وينشط.

حديث خرافة

كان «خرافة» تام العقل سليم المنطق، ثم استهوته الجن فصار يحدِّث الناس أحاديث عجيبة. فأخذوا يصفون كل قول لا يصدقونه بأنه مثل حديث «خرافة». ثم سموا كل قصة لا تَركَب على العقل: خرافة. وإذا أسنَّ رجل وتَلِف مَنطِقُه، وانفتحت غرفات دماغه بعضها على بعض، واختل عياره، قالوا: إنه خَرِف. وسموا الألزهايمر «الخرف» وهي ترجمة طيبة.

وعلى هذا فإن قلت: هذا الحديث خرافةٌ، فإنك جعلت خرافة بمعنى أسطورة، وإن قلت: هذا حديثُ خرافةَ، فأنت تريد خرافة نفسه الذي مات منذ ألف وخمسمائة عام وصار اسمه كلمة من كلمات اللغة.

أبونا

عندما صار الناس يقولون له: «يا أبونا»، وصار يلبس المسوح السود المكوية، فكر مليًّا في وضعه الجديد. فتن قلبه الزي الجديد، ظنه في البداية يستر بطنًا له متدليًا مرتخيًا يندفع إلى أمام وكأنه يريد أن ينزل على قدمه ككرة القدم إذ يتلقاها اللاعب من صدره بقدمه، وظنه يستر قفًا مشرئبة إلى أعلى منخلعة من أصل الظهر كأنما تريد أن تصعد في الهواء كبالون منفوخ بالهيدروجين.

ثم أخذ يكتشف أن ذلك المسح الذي يزيد القد الجميل جمالًا، إنما يزيد القد القبيح قبحًا.

ولكنه سرَّ أن أخذ الناس يقولون له: «يا أبونا».

بالتدريج وضع حدًّا لمعابثات أخدانه من أيام المدرسة. (أحدهم ما زال يضع يده على كتف أبونا كما كان يفعل في السنين الخوالي، وأبونا يهز كتفه

ويتملص. ما يغيظه هو أن صاحبه يفعل ذلك بحسن نية. لله الناس ما أقل إحساسهم!)

زاد في عقدته النفسية أنه أخذ يومًا فيومًا، يؤمن بنظرية هي أن الخوري لا يلقى الاحترام إلا إذا كان ممشوق القوام وبهي الطلعة، ولم يكن له من أيِّهما نصيب.

وما أشد ما ضايقه أنه اكتشف نظرية أخرى هي أن القوام الممشوق والطلعة البهية لا يقدمان ولا يؤخران في الاحترام الذي يناله رجال الدين المسلمون الشباب، فاللفة البيضاء على الطربوش الأحمر تخطف العين، فلا تقع العين بعدئذ على كرش ولا على قفا. والأدهى من ذلك أن المشايخ الشباب صاروا ينبذون الجبة واللفة، وصاروا يلبسون الأحذية الرياضية ويكتفون من شعار المشيخة بتقصير شعر الرأس وإطلاق اللحية. وهو لهم حاسد. ولكن، يغيظه مؤذن القرية المجاورة الذي لا يحفظ من أمر دينه سوى الأذان، يعيده كل يوم خمس مرات -أو أقل، بحسب مواسم البذار والحصاد- بصوت أجش، وإنه ليسأله كلما رآه: كيف حالك يا بطرس. متى ستتزوج؟

الذي يغيظ بطرس أن المؤذن يسأل بحسن نية، فمن أين للمؤذن أن يعرف أن بطرس من الملة التي لا يتزوج فيها الخوري؟

أخيرًا -وهذه ليست قصة بل عرضٌ لحال رجل بسيط من عامة الناس- أفلح بطرس في إقناع أمه أن لا طاقة له باللاهوت، وأنه لن يصبح شيئًا في الكنيسة.

وخرج من الكنيسة مثلما دخل.

صار يحرث أرضهم، ويحرث أراضي الغير بالأجر، وصار سعيدًا. وتحسن قوامه على حين غرة. لاحظ ذلك مرة وهو يقبض على المحراث خلف البغل، فسر سرورًا عظيمًا.

ذات يوم أخرجت أمه من تحت الوسادة علبة سجائر وعلبة كبريت، ناولته إياهما وقالت: اذهب، اقعد على القهوة وتسلَّ.

كانت تخطط لتزويجه، ولكنها أرادته أولًا أن يقعد على القهوة لكي يعلمه رفاق السوء أبجديات الزواج.

أقوال مأثورة

• كن مهذبًا مع الذين تمر بهم وأنت تصعد نحو القمة، فسوف تلتقي بهم مرة أخرى وأنت هابط. (ويلسون مايزنر)

• السلطة هي الغاية لا الوسيلة؛ فالسياسي لا يؤسس نظامًا دكتاتوريًّا لكي يقوم بثورة، بل يقوم بثورة لتأسيس نظام دكتاتوري. (جورج أورويل)

• إنني أمضي في الطريق التي شقتها أمامي العناية الإلهية باطمئنان مَنْ يسير في نومه. (أدولف هتلر)

• قبل العَلَمين لم نذق طعم النصر، وبعدها لم نعرف الهزيمة. (ونستون تشرشل)

• العازف: امرؤ يحسن قراءة الموسيقى ولا يحسن سماعها. (المايسترو البريطاني توماس بيتشام)

أقوال غير مأثورة

• النجوم يستمتعون بالشهرة، والعظماء لا يعرفون كيف يستمتعون بالشهرة، أو «يعرفون كيف لا يستمتعون بالشهرة».

• أرى الأفلام العربية القديمة تشبه الأفلام الأجنبية القديمة كثيرًا. هل لأن الأبيض والأسود كان يسوِّي بين الجميع، فجاءت الألوان فجعلت التفريق سهلًا بين ملون فصيحة ألوانه وملون باهت؟ أم لأنهم تطوروا في فن السينما كثيرًا، وبقينا في مكاننا؟

• برامج الحيوانات في التلفزيون تعرض على المرء طباع بني آدم بدون رتوش الحضارة. الطفل والفيلسوف كلاهما يشاهدانها بعين واحدة، وأما المغفلون فيريدون أن يتعرفوا منها على معلومات قشرية.

• جمال الجميلة غلّ العبودية، وقبح القبيحة نفي إلى الربع الخالي. تتحرر المرأة يوم تكسر مفاهيم الجمال.

(32) إبريل/ نيسان ١٩٩٣.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث والثلاثون
والضّحى، شجراتٌ أربع
كتابة على وسادة خالية، القالزة والسطر القصير
والضّحَى

الضُّحى وقت عزيز على قلبي. الضُّحى عندي هو الساعة العاشرة صباحًا. إنه الوقت الذي أُحِبُّ فيه الشمس. تُطِلُّ من الأفُقِ الشرقي مائلة، وتقول لي: بعد قليل سأزحف لكي أقف فوق رأسك وأشويك شيًّا، لكنني الآن بعيدة أُضيء ولا أُحرق. الضحى ضياءٌ محض. هو لربَّة البيت الوقتُ الذي تضع فيه غلَّاية القَهوة على النار، وتنادي جارتَها لكي تَغتابَ معها الجارة الأخرى. الضحى لِطفلٍ في السابعة هو تلك الساعةُ التي يُطِلُّ فيها من نافذة الصفِّ بمدرسته فيرى الشارع يسبح في الضوْء، ويدقُّ قلبُه الصغير فرَحًا بالضوْء، وحُزنًا من الحبس.

كنتُ هذا الطفل. كنت في الصف الأول. نظرتُ بحسرة من نافذة غرفة الدرس، وتمنَّيتُ أمنية مستحيلة: أن أخرجَ لأمشيَ في الشارع. لن أسامح المدرسة على ذلك اليوم.

حظِيتُ بضحىً آخرَ لم يكن رديئًا. كنت معلمًا بديلًا في مدرسةٍ بجبل النُّزْهة في عَمَّان. وفي ضحى ذلك اليوم، في سبعينات القرن الماضي، فتح مديرُ المدرسة بابَ غرفة الدرس؛ أقول: فتح الباب، ولا أقول: طرقه. فمدير المدرسة العظيم لا يحترم أستاذًا بديلًا شابًّا فيطرقَ الباب عليه، بل هو يفتح الباب. وأقول لذلك المدير، وكنيته أبو نبال، ولعله الآن في أواسط التسعين من العمر: سامحتُك دنيا وآخرةً على فتح الباب. قال لي أبو نبال: تفضلْ! فتقدمت نحوه، فجذِبني خارج غرفة الدرس، ودفع رجلًا آخر إلى داخل الغرفة. ثم قال لي: قد جاء أستاذٌ معيَّنٌ تعيينًا رسميًّا من الوزارة. أنت تأخذ حسابَك من مديرية التربية. قالها وولَّاني ظهره. لم أسامح أبا نبال على جلافته وفِجاجِته، ولا على فِظاظته وغِلظَته، ولا على خشونته وشِكاسِته، ولا على صَلَفِه وصَفاقَته، ولا على عُجْبه وعُجْرُفِيَّته، ولا على وُعورتِه وشَراسته، ولا على عَرامَتِه وزَعارَته، ولا على قاسِيائِه وجَاسِيائِه. لكنني فرحتُ أنْ تخلصتُ مِن ذلكَ الحبْس في ذلك الوقتِ من أوقات النهار. كان الوقتُ ضحىً. خرجتُ من المدرسة رجلًا حرًّا، وقصدتُ مطعمًا شعبيًّا، وقعدتُ إلى خِوانٍ وُضِعَ على الرصيف. كان ذلك الشارع يسير على شَفيرِ هاويةٍ سحيقة. كنتُ بين اللقمة

واللقمة أطِلّ فأرى الواديَ تحتي، وأمُدُّ عينيَّ إلى الأفق فأرى الجبلَ المقابل. كان المشهدُ كلُّه يسبح في ضياء الضحى.

أجمل الأيام عندي اليومُ الذي أستقيل فيه من عمل، وفعلتُها كثيرًا. وحتى لو كان طردًا ورَفتًا وصَرفًا من الخدمة، فلا بأس أيضًا، شرطَ أن يكون ذلك في وقت الضحى.

شجرات أربع

كانت هناك شجراتٌ أربَعُ على طَرَفِ الحديقةِ العامة. رمَى عمَّالُ البِناءِ حُمولَةً مِنَ الخَشَبِ والمساميرِ الصَّدِئَةِ على مقرُبَةٍ منها. وبعد حين تنبَّهَتِ البلديةُ إلى أن إحدى الأشجارِ بدأتْ تَذوي، وفَحَصتْ عن السبب، فكبَّدَت مُقاوِلَ البناءِ غرمًا ثقيلًا. وكلَّفَتْ مُقاولًا من نوع آخرَ بإصلاحِ الضَّرر. وهذا المقاولُ الآخرُ «طبيبُ أشجارٍ» إن صحَّت التَّسمِية. وجاءَ بعُمَّالِه، وكنتُ أحدَهُمْ. أخذْنا نحفِرُ حولَ الأشجارِ لِتغذِيَةِ الجذورِ بالأسمدَةِ والأتْرِبَةِ النظيفة. هذا حدث في دارمْشتادْت في ألمانيا، وكنت أيَّامئذ طالبًا هناك.

أخذت أضربُ بِفأْسِي بقوةٍ وبسرعة، ونبَّهَني المقاولُ إلى أنَّ هذا لا يُفيد. كنتُ كالمُنْبَتِّ لا أرضًا قَطعَ ولا ظهرًا أبقى. أخذَ المقاولُ الفأسَ مِن يدي، وبدأ يُريني كيفَ يكونُ العملُ بِضَرَباتٍ منتظِمة، وبسرعَةٍ معتدِلَة. لم أكنْ أعملُ بسرعةٍ على طريقَتي الأولى كي أُرْضِيَ صاحبَ العَمل، كحالِ كلِّ عاملٍ جديد. بل إنَّ هذه طبيعتي. فكرتُ يومَها أن أشرحَ لِصاحبِ العمل أنني شخصٌ مُتَلَهْوِجٌ، عجولٌ في كل شأنٍ من شؤوني. ثم أضربْتُ عن الفكرة، فصاحبُ العملِ يَراك، يَرى قلبَك، يرى أعماقَك.

لا تشرحْ لمديرِكَ شيئًا أيُّها الموظف. أنتَ كائِنٌ أرضِيٌّ، والمديرُ كائِنٌ سَماوي. هو يَراك، فلا تشرحْ له. واعرِفْ -وأنتَ سيد العارفين- أن الشخْصَ الذي يُكثِرُ من التَّرَدُّدِ على مكتبِ المديرِ إنَّما يفعلُ ذلكَ تَقرُّبًا، وكي يُحَنِّنَ قلبَ المدير عليه. وكلَّما رآهُ المديرُ مقبِلًا، قال في نفسه: يا هذا الموظف! اشتغِلْ وأنا أَراك، أَراكَ بِأُذُنيَّ فيما ينقُلُه الآخرونَ عنك، وأراكَ بِعيْنيَّ، فعندَما أَمُرُّ بينَ المكاتِبِ تلتَقِطُ عينايَ كلَّ شيء.

كتابة على وسادة خالية

وسادَتي لها وَجْه، يُسَمُّونَه كِيسًا. قبل مدَّةٍ صَحَوْتُ فقعدْتُ على السرير، ولا أقولُ: نهضْتُ؛ لأنني لم أنهض، بل قعدتُ قبل النُّهوضِ لأستَعيدَ تفاصيلَ حُلْمٍ غريب. حلَمْتُ بأنَّ سيَّارتي، الموجودةَ في الدَّوحَةِ في قَطر، وَقَعَتْ في جدولٍ يَشُقُّ حديقةَ النَّباتِ في غلاسغو باسكوتلندا، والأدهَى مِن ذلكَ أنني أخرجْتُها مِن الجدولِ سَحبًا بِيدَيّ، ثم استَوَتِ السيارةُ على الأرض، لكنْ أين؟ في مَلعَبِ

كرةِ القدمِ في الجامِعةِ التي كنتُ أعملُ بها في فِلَسْطين، ورأيتُ بِداخلِ السيارة شَخْصًا يوجَدُ بيني وبينَه نُفورٌ يجلِسُ في المَقعَدِ الخلفيِّ ويمُدُّ رِجلَيْهِ باتِّجاهِ مَقعدِ السائق. قَعَدْتُ على طَرَفِ سَريري أُفَسِّرُ الحلم. وها هو التفسير.

كنت فعلًا أقودُ قبل حين سيارةً في غلاسغو، (هذا الواقع لا الحلم)، وثُقِبَ الإطارُ، فَوَقَفْتُها إلى جانِبِ الطريقِ والمطرُ يَهطِلُ مِدرارًا. ونَزلْتُ وبَدَّلْتُ العَجَلَةَ، وانطلقت فرتقت الثَّقْب في المحل. وهنَّأتُ نفسي على إنجازي. فهذا يُفَسِّرُ سَحبِيَ السيَّارةَ من الجَدول، والجدولُ ممتَلِئٌ مَاءً كالمطرِ الذي كان يهطِل. وأمَّا الشخصُ الذي بيني وبينَه نُفورٌ فهذا كانَ في الواقِعِ زميلًا منافسًا دخَلَ مكتبي ذاتَ يوم، وقالَ لي: «اسْمَعْني سبعَ دقائق». فابتسمتُ وقلتُ له: «تفضل». فنظرَ في ساعتِه ثم قال لي: «أريدُ أن أقولَ لكَ لماذا أنا أَجْدرُ بموقِعِكَ مِنك». ومضى يشرحُ لي مهاراتِه، فهو يحفظُ مِن المُتونِ كذا وكذا، وهو يحملُ الشهادَةَ الفُلانيةَ والفُلانية. وتدفَّق في الشرح. ثم توقَّفَ فجأة. ونظر في ساعتِه. وأراني وَجْهَ الساعة. ورفعَ سبَّابَتَه، وقال بلهجةِ المنتَصِرْ: «سبعُ دقائِقَ لا غير». قلت له: «بارك الله فيك». فشَبَّ على قدمَيْهِ وانصرَف. وقد صوَّرَه لي الحلمُ راكِبًا في المَقعَدِ الخلفيِّ ويَمُدُّ قدَمَيْهِ باتِّجاهِ مقعَدِ القيادة. إنَّه لا يمْلِكُ المهاراتِ اللازمة لحقلِ العملِ الذي أقوم به.

لكن لماذا جعلتُ السيارةَ تخرج من الجدول في غلاسغو إلى ملعب كرة القدم بالجامعة؟ السببُ أنَّني كنتُ قبلَ أيَّامٍ مِن ذلكَ الحُلم قد قدَّمْتُ استقالَتي ونَوَيْتُ العودةَ إلى بَلدي وإلى العملِ في الجامعة. وبالمناسبة فَهذا ما حَدَثَ فعلًا. ولكنَّ زميلي البارعَ في ضبطِ الوقت لم يَنَلْ الموقِعَ الذي يَشتَهيه. ظل يجلسُ في المقعَدِ الخلفي، وربما ظلَّ يَرفَعُ قَدمَيهِ باتِّجاهِ مَقعَدِ القِيادة.

بعد أن فسَّرْتُ لِنفسي حُلُمي نظرتُ إلى وَجْهِ الوِسادة، وانتبهْتُ إلى كَلماتٍ مَنقوشَةْ عليهِ بالحرفِ اللاتيني: محبة، وداد، راحة، سعادة، وأمثالِ هذهِ الأشياءِ التي يكتُبُونَها على الأقمِشة. وتعجبْتُ مِنْ شيء: مضتْ عَلَيَّ خمسةُ أشْهُرٍ وأنا أنامُ على هذهِ الوِسادةِ، ولم أقْرأْ هذهِ الكلماتِ إلَّا اليوم. بِكلِّ بَساطة: عَيني لا تَلتَقِطُ إلَّا الحرفَ العربي. الحرفُ العربيُّ مَعجونٌ مَع وِجداني. لا أقرأُ الحرفَ العربيَّ بَلْ هو يَنتابُني انتِيابًا، يدخلُ في وَعيِي، يَدفَعُ البابَ ويدخُلُ بيتَه. وأمَّا الحرفُ الأجنبيُّ فعليْهِ أن يَقرَعَ البابَ طويلًا.

القالِزة والسطر القصير

هذا حديث أبدَأُه ولا أعرفُ أين سينتهي. وموضوعُه لست أعرفه، ولو عرفته لعرفتُ أين سأقف. هي أشياءُ تخطر ببالي.

يقولون في اللغة الدارِجة: إنَّ الطاوِلَةَ تتَقَلّقَز، وهذا من الفصحى؛ فالعصفور يقلُزُ أي يقفز في مِشيته. ترى أربعة شباب جالسين يحتسون الشاي فتقلُزُ الطاولة، فينسكبُ الشاي من كوب أحدهم، فينشغلُ في معالجة الأمر، وينشغلُ اثنانِ في مُناوَلَتِهِ مناديلَ الورق. فماذا عن الرابع؟ الرابعُ يشغَلُ نفسَه بوضعِ حَصاةٍ أو خَشَبةٍ تحت إحدى قوائِمِ الطاوِلة. ثم تَقْلُزُ الطاولة وينفَلِتُ الحجر، فيبدأ هذا الرابع بمعالجة كرتونة، يثنِيها مرةً ومرة، ليضَعَها تحت القائِمَةِ القالِزَة، ويظل هذا دأبَه طولَ الجلسة. يصبحُ تعديلُ ميزان الطاولة القالِزَةِ شُغلَهُ الشاغل. فماذا لو كانت الطاولة ذاتَ ثلاثِ قوائم؟ عندئذ لن تَقلُز.

في العالم اليوم بضعةُ مليارات من الطاولاتِ ذواتِ القوائِمِ الأربع. يقوم على خِدْمَتِهِنَّ بضعةُ مليارات من الشباب، يثنُون الكَراتينَ ويَدسونها تحت أخمصِ القائمةِ القصيرة. وأصحاب المطاعم يأبَوْنَ أن يقتنعوا بالطاولة ذاتِ الثلاثِ قوائم. البشريةُ وصلتْ إلى القمر، ولم تصلْ بعد إلى بعضِ الأمور المنطقية.

من هذه الأمور المنطقية الورقُ المسطَّر.

عندما عملت في الجرائد -وكنتُ دونَ العشرين- كنت أكتبُ على كَدْسَةٍ مِن ورَقِ الجريدةِ الرخيصِ الخَشِن، تكونُ طَرِيَّةً ويغوصُ فيها القلم. (أولُ خبر كتبتُه أتممْتُه على الوجهِ الثاني مِنَ الوَرَقةِ، فقيلَ لي: لا تفعل. فكفَفْت. هذا استطرادٌ لا يخدُمُ الفِكرة). وهذا الورقُ غيرَ مُسَطَّرٍ بالطبع؛ لذا كان خَطِّي ينزلُ ليشرَبَ مِنَ النَّهر. ومن ملاحَظاتي أنَّ كلَّ صحفيٍّ تصعَدُ سطورُه بَدلَ أن تنزِل يكونُ غريبَ الأطوار، نزِقًا.

عندما يَصُفُّ الطابِعُ أحرُفَ الجريدة، يجعلُها في أَعمِدَة، والسَّطْرُ قصير. وفي المعاجِمِ والكتبِ ذاتِ القَطْعِ الكبير يجعلونَ الصفحَةَ في عَمودينِ أو ثلاثة، والسببَ لا يتعلقُ بنزول السطر أو صعوده، بل بتسهيلِ القراءة. ففي السطر الطويل تصِلُ عينُ القَارئِ إلى نهايةِ السطر، ثم تَضِلُّ طريقَها إلى بدايةِ السطر التالي. السطر القصير يحُلُّ المشكلة. الأعمدة هي الحل.

كنت سأَمضي في الكلام فأطالبُ الناسَ بالكِتابةِ على وَرَقٍ مسطَّرٍ، ثم استدركت؛ فلا أحد يكتب الآن بالقلم.

أعدائي حفظهم الله

في ختامِ دورةِ تَدريب، قلتُ للمُتَدرِّبين: بَقيتْ دقائقُ خَمس، فهل من سؤال؟ سألَتْني مَتَدرِّبةٌ تعمل مذيعةً، سؤالًا غريبًا: «ما المواقفُ المَسمومَةُ التي تعرَّضْتَ لها؟» أدركتُ أنها ربما تعرضَتْ لبعضِ المضايَقاتِ، أو ربَّما كانت

تُعاني مِنْ حُمَّى التنافس. لم يكنِ الوقتُ كافِيًا لأقدِّمَ جوابًا شافيًا. الآن سأفعل.

عمِلْتُ في إذاعةِ البي بي سي عشرَ سِنينَ راجِحَة. ثم عُدْتُ إلى بلدي فلسطين، وعَمِلْتُ في الإذاعةَ الرَّسمِيَّة. كنت تخَطَّيْتُ أواسِطَ العُمْر. أخذْتُ أُقَدِّمُ برنامَجًا ثقافيًّا، وفي إحدى الحَلَقات حَدَثَ التِباسٌ معَ مهندِسِ الصَّوت، وارتَبَكَتِ الحلْقة. بعد نهايَتِها رآني زميل، فنَظَرَ إلَيَّ مِنْ قِمَّةِ رأسي إلى مُشْطِ قدمَيَّ -تمامًا كما يفعلون في الأفلام- وقال لي: «أنت كنتَ تعملُ في البي بي سي؟» وهز رأسه وولَّاني ظهرَه. ذلك البرنامج كان اسمه «لكلِّ مَقامٍ مقال». ومضيتُ في تقديمِهِ ثلاثَة أشهر.

في حلْقةٍ أخرى من هذا البرنامج لم يكن هناك ارتِباك. وكان زميلٌ آخرُ يقِفُ في غرفةِ المتَابَعَة ويسمعني. عندما أنهَيْتُ الحلْقَةَ وخَرجْتُ من الاستديو، أشارَ إليَّ بسبَّابَتِه مع هَزَّةِ رأسٍ، وقال: «هذا جيد». فابتسمتُ ابتسامَةً صفراء، فيها كبرياء. فَعَلَتْ وجهَه غَبَرَة. قال متهكِّمًا: «أراكَ تبتسم!» قلت: «الابتِسامَةُ في وجهِ أخيكَ صَدَقة». فولَّاني ظهرَه. واتَّخَذَني عدوًّا.

ذلك البرنامج كان حسَنَ الحظ؛ فقد فازت به إذاعةُ «صوتِ فلسطين» بالجائرةِ الأولى، الذهبية، في مِهرَجانِ القاهِرةِ للإذاعةِ والتلفزيون في عامِ تِسعةٍ وتِسعين، وربما في عام ألفين.

هذا الفَوْزُ كانَ الأولَ لتلكَ الإذاعةِ التي دَأَبَتْ بِضعَ سنينَ على المشاركةِ في مِهرجانِ القاهرة للإذاعة والتلفزيون.

عادَ وَفْدُ الإذاعةِ مِنَ القاهرة، ومَعَهُم تِمثالٌ كبيرٌ في وَسَطِهِ قُرْصٌ مُذْهَب. وفي اليومِ التالي لعودتِهم مررتُ بمكتبِ مديرِ الإذاعة، وقلت له: «الحمد لله على السلامة». فلم يردَّ، بل أشارَ بيدِه إلى الرفِّ الذي أقعد عليه التمثالَ-الجائزة. وقال: يمكِنُكَ أن تتصوَّرَ معَه إن شئت. ابتسمتُ بِزَهْوٍ، وقلت: «ليس هذا مِن شَأني». وقَفَلْتُ منسحبًا دون أن أقعد. وبعد يوم أو يومين أو ثلاثة صادفْتُ مديرَ البرامج فقلتُ مرحبًا، فأشاحَ بوجهه. تلك عداوات أعتز بها.

والآن، عزيزتي المذيعة صاحبةَ السؤال، قرأتُ أشياءَ كهذِهِ في كُتُبِ المذكِّرات. وكنتُ دائمًا أظُنُّ الكاتبَ قد بالَغَ بعضَ المبالغة. غير أنني أقول: ما رويتُه لَكِ عمَّا وقَعَ لي ليس فيه شيء من المبالغة. وقد يقع كلامي هذا بيد بعض من يعملون في تلك الإذاعة، وسيكون في مقدورهم بسهولة أن يعرفوا أسماءَ مَن تحدَّثتُ عنهم.

وهذه إضافة فيها عبرة.

بعد أن انتهى عملي في تلك الإذاعة عملت في جامعة بيرزيت محاضِرًا ومديرًا لمعهد الإعلام، ومكثت في هذا العمل سبعَ سنين. فأمَّا الذي وَلَّاني ظهرَه أوَّلَ مَن وَلَّى، فقد دعَوْتُه إلى تقديمِ برنامج مُسجَّلٍ عن مدينةِ القدس لِقاءَ أجرٍ طَيِّب. وهو صاحب صوت من أجمل الأصوات، وقدَّم البرنامج. وأمَّا الذي ولَّاني ظهره ثانيَ مَنْ وَلَّى فقد رفضْتُ له نصًّا، لأنه كان رديئًا، وعاتَبَني. وأما مديرُ البرامِج الذي أشاح بوجهِهِ ولم يَرُدَّ التَّحيَّة فإنني دعوتُه إلى إفطارٍ في رمضان، وكلَّفْتُه بإعداد وتقديمِ برنامجِ موسيقي، وكان رحمه الله ذا صوتٍ قوي، وكان عاشقًا للموسيقى، وأعدَّ البرنامج لقاءَ أجرٍ طيب. وطلبَ مِنِّي مرَّةً أن أُحضِرَ له أقراصًا مُدمَجَةً مِن بريطانيا عليها موسيقى القِرب الاسكوتلندية، ففعلت. هذا كلُّه بعد أن استَقَلْتُ مِنَ الإذاعةِ ببضْعِ سنين. وأمَّا مديرُ الإذاعة فقد زرتُه بِصُحبَةِ زَميلةٍ مبدِعَةٍ أنتجَتْ برنامجًا مميزًا عن مِهنة الصِّحافة سمَّتْه (مهنةَ المتاعب)، وأحبَّتْ أن يُذاعَ البرنامَج مِن الإذاعةِ الرسمية. ولم يحدُثْ ذلك. العِبْرةُ مِن كلامي أنني لا أقطعُ الحبلَ مع مَن يعاديني، فإن كانت لديهِ موهبةٌ فأنا أُقدِّرها، وأنا أدرك أنَّ الناسَ يخافونَ مِن المُنافِس. وأختم ببيت، مدح إبراهيم طوقان قومًا فقال:

وإذا ما تَجَرَّدُوا لِعَداءٍ

وَقَفوا بَالعَداءِ عندَ حُدودِ

بعد الختام: نَسيتُ عدوًّا شرسًا. كان هذا الشخصُ يُلاحِقُني ويُراقِبُني، وكُلَّما تَحدَّثْتُ إلى بعضِ الزملاءِ حَشَرَ نفسَه لِكيْ يُخطِّئني في كلِّ عِبارة. وذاتَ يومٍ سألَني بكل صراحة: «متى ينتهي عَقدُك مع إذاعتنا؟» فطمأنْتُه إلى أنَّه يَنتهي في موعدِه بعد انقضاءِ ثلاثةِ أشهرٍ عليه، وهكذا كان. وكيْ يعرِفَ هذا العدوُّ نفسَه إذا وَقَعَ بيدِه كِتابي فإنَّني أذَكِّرُه بأنَّه زَارني في مكتبي، وطلَبَ شيئًا، ولبَّيتُ طلَبَه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع والثلاثون
الاجتياح، هل باعوا أرضهم؟
الفلسطينيون واليهود
الاجتياح

كنتُ قاعدًا في بيتي أكتبُ برنامجًا عن الموسيقى الكلاسيكية من مائةٍ وسبعين حلقة، وكتبتُه، وصدرَ في قرصٍ مُدمَجٍ عن جامعةِ بيرزيت باسمِ «همس وضوضاء: رحلة في الموسيقى الكلاسيكية». وهو على اليوتيوب باسم «همس وضوضاء».

فهل سميته كذلك لأن الدبابات الإسرائيلية كانت ترابط خارج منزلي وتحاصرني؟ لا. سميته كذلك لأن الموسيقى الكلاسيكية تكون هامسةً حينًا، ثم تعلُو بشكل مفاجئ، فهذا هو الهمس والضوضاء.

في ربيع عام ألفين واثنين بدأ «الاجتياح». كانت الانتفاضةُ الثانية مشتعلة. وجرَّب المحتل الإسرائيلي أن يكسر الشعب الفلسطيني. دخلت الدباباتُ والمدرَّعاتُ المدنَ في الضفة الغربية: في رام الله حاصروا مقرَّ الرئيس ياسر عرفات وبدأوا يقصفونَه غرفةً غرفة، حتى حُصِر عرفات في آخر غرفة، وقال على ضوْء شمعته: شَهيدًا شَهيدًا. كنت أسكنُ في شارع الإرسال الذي تقع فيه «المقاطعة» مقَرُّ عرفات. وقفَتْ أمام بيتي مدرَّعَتان، وعلى بعد بضعةِ أمتارٍ وقفتْ دبَّابةٌ أو اثنتان. وقعدت أسمع الموسيقى الكلاسيكية، وأقرأ عنها، وأكتب عنها. كذا أنا، أستطيع أن أعيش في داخل نفسي غير آبِهٍ بما يجري حولي.

دخل المحتلون نابلس والخليل وبيت لحم، وكلَّ مدينة. حوصِرَ مائةٌ وعشرونَ مقاوِمًا في كنيسةِ المهد ببيتَ لحمَ شهرًا وأسبوعًا. ودُمِّر مخيم جنين بعد أن صمد صمودًا مشهودًا. ودُمِّرت مبانٍ كثيرةٌ في نابلسَ القديمة. استشهد مائتان وأربعون، وجرح المئات، واعتُقل خمسةُ آلاف، مقابل مقتلِ ثلاثةٍ وعشرينَ جنديًّا إسرائيليًّا. وبالطبع تفهمتْ واشنطن موقفَ إسرائيل.

الاجتياح لم يكنْ دباباتٍ في شوارع المدن فقط. كان شيئًا آخرَ أيضًا. كان الجنود يدخلون بيوت الناس، ويخرِّبون الأثاث، ويرابطون فوق أسطح البنايات. كانوا يدخلون غرف النوم، ويفتحون الأدراج بحثًا عن زجاجة عطر مستعملة يأخذونها، كي تُحِسَّ المرأة أن خصوصيتَها انتُهكت. كانت هناك سرقات، وكان

هناك بطش. كنت أعمل في تلك الأيام في إذاعة أجيال. دخلوها وحطموا كل جهاز وكل حاسوب. وحتى أجهزةُ الهاتف الأرضية تلقَت ضَرَبات قاضية.

ودخلوا محطات التلفزة، وههنا كاد يحدث شيءٌ آخرُ قبل التحطيم. شيءٌ تفتَّقَ عنه ذهن المحتل في ذلك الاجتياح. جلب الجنود معهم أفلامًا إباحية، وجلبوا مهندسي بث لكي يشغِّلوا محطات التلفزة، ويبثوا الأفلام الإباحية على الهواء. أرادوا أن يَدخُلوا البيوت وينتهكوا حُرُماتِها بهذه الطريقة.

حدث هذا في ربيع عام ألفين واثنين. واسم ذلك الشيء عند الفلسطينيين «الاجتياح».

هل باعوا أرضهم؟

هل باع الفلسطينيون أرضهم؟

تُبيِّنُ خريطةٌ مشهورةٌ لِفِلَسْطينَ قبل سنَتينِ مِن قِيامِ دَولَةِ إسرائيل أنَّ اليهودَ امتَلَكُوا ستَّةً بالمائة من الأراضي. كانت فلَسطينُ تحتَ الانتدابِ البريطاني، وكانت الجمعياتُ الزراعيةُ اليهوديةُ تَشتَري الأرضَ من الإقْطاعِيينَ الذين يعيشُ معظمُهم في الخارج.

وكانت تجارةُ الأراضي من التِّجاراتِ الموجودةِ في فلسطين: بين عَرَبٍ وعَرَب وعَربٍ ويهود. لكنَّ، الفلسطينيين تنبَّهُوا إلى المخطَّطات الصُّهيونية، ورفعُوا شعارَ تحريمِ بيعِ الأرض للجمعياتِ الزراعيَّةِ اليهودية.

هنا تَنتهي قِصَّةُ بيعِ الأرض. وقامت دولة إسرائيل، وهجَّرت الناسَ واستولَت على الأراضي بالقوة.

لِلعربِ في لندنَ اليومَ عَقاراتٌ كثيرة، ولِمَن شاءَ أن يُضيفَ إلى عَقاراتِه أراضيَ في الرِّيفِ الإنجليزيِّ فسوفَ يَلقَى كلَّ ترحيب، فقط حُلَّ كيسَك. لكنْ، هل تَستطيعُ امتِلاكَ السِّيادةِ على أرضِكَ البريطانية، وهل يمكِنُكَ الخروجُ مِن قوانين بريطانيا؟ هل يمكِنُكَ إنشاءُ دولةٍ في ريفِ إنجلترا مثلًا؟! شراء الأرض شيء، والسيادةُ عليها شيء آخر.

فلماذا يُقْرِفُنا كثيرونَ بخُرافة «بيعِ الفلسطينيين أراضِيَهم»؟

ذلك لأنَّ بعضَ الحكوماتِ تُوعِزُ إلى مُطَبِّليها بَسَبِّ الفلسطينيين، فيبْحثونَ عن سببٍ ولو كانَ واهيًا، ولو كان خرافة. وبعضُ الناسِ العاديين يريدونَ تبريرَ قَبولِهِمْ شَرعِيَّةَ امتِلاكِ إسرائيلَ لِفِلَسْطين، فيوافقونَ على ما يقولُه المطَبلون.

أيها الحُكَّام، لماذا تبحثون عن مُبَرِّر؟ لقد فتح لكم أنور السادات، وياسر عرفات، والملك حسين الباب. فادخلوا البيوتَ من أبوابِها، واتركوا التجنِّي.

وواحدةٌ أخرى آخذُها مِن فيروز. في مسرحِيَّتِها جبالِ الصَّوَّان تقولُ عن مشَرَّدينَ فَقَدوا أرضَهْم ولَجأوا إلى بِلادِ الجيران: «اللِّي مَطرود مَنُّو ضيف، حامل حزنو معو، وحامل الحزن بيهربوا منو الناس. بيخافوا يعديهن».

الفلسطيني الذي يعيش في الشَّتات يحملُ كآبَةً، ويظلُّ يقولُ: فلسطين فلسطين. والناس تقولُ له: مَلِلْنا منكَ. ونريدُ أن نلتَفِتَ لِشؤونِنا.

اللهُمَّ حَنِّنْ قلوبَ العربِ على مشرَّدي العربِ مِنْ سُورِيِّينَ وعِراقِيِّينَ وفِلَسْطِينيِّين، واجعَلْهُم يُدرِكوا أنَّ في وَسْعِهِم الاعتناءَ بِشؤونهم دون التَّجَنِّي على أحد.

الفلسطينيون واليهود

لستُ صاحبَ نظريةِ أنَّ الفِلَسْطينيينَ أَصبَحوا بِانتشارِهم وتغلغُلِهِم في المؤَسَّساتِ الإعلاميَّةِ وفي الشركات شَبيهينَ بِاليَهودِ في تَاريخِهِم وفي حاضِرِهِم. وربما كان فيها قَدرٌ من الصحة.

خرجَ علينا بعضُ الدَّارسينَ بِنظريَّةٍ مُفادُها أنَّ اليَهودَ الأَشْكِناز أذكى البشر. وفَنَّدَ هذه النظريةَ كثيرون، ومن بينِهِمْ يَهودُ أشكناز. قالوا: هو ليس ذكاءً، بل حُنكةٌ مُكْتَسَبةٌ بسببِ الظروفِ الصعبة.

ومما شكَّلَ ضَغطًا على اليهود في عُهودٍ مُتعاقِبةٍ ما فَرضوهُ على أنفسِهِم من عُزْلة، وما فَرضَهُ الآخَرونَ عليهِمْ مِنْ عُزْلَة. كثيرون منهُمْ دخَلوا في المسيحيَّة، ورَبَّوْا أبناءَهم تربيةً عَلمانِيَّة أو مَسيحِيَّة. ولكنَّ المجتمعاتِ التي عاشوا فيها كانت تُصِرُّ على أنَّهُمْ يَهود. وكثيرونَ ثَبَتُوا على الهُوِيَّةِ اليهودية ضمن مجتمعاتٍ مَسيحيَّةٍ أو مُسْلِمة.

يتعرضُ الفِلَسْطينيونَ لِظُروفٍ مُشابهة، ولا أقول: مماثلة.

يكتسب كثيرونَ مِنهُم حُنْكَةً وقُدرَةً على الالتِفافِ على الأَعراف والقوانين. ويبرزُ مِن بينِهم أشخاصٌ متميزون. ويكثُرُ فيهِمُ المُطَبِّلون والمفكِّرونَ والمتعصِّبون والمُسْتَمْسكونَ بِالعُزْلَة، والمبالِغون في البُكاءِ على جِراحِهِم. هذا ليس لِذكاءٍ ولا لِغباء، بل هو ناشِئٌ عن الظروف.

وتجِدُ فريقًا من الفِلَسْطينيين يتمسَّكُ بالهُوِيَّةِ العربيَّةِ والإسلاميةِ في مَسعىً لِكسْرِ العُزْلَة. وهناك مَنْ يحاولون أن يذوبُوا في مُجتمعاتٍ أخرى، فتصدُّهمْ هذه المجتمعات، وتُصِرُّ على تصنيفِهِم كَفِلَسْطينيين.

الانتماءُ الفلسطيني مسألةٌ معقَّدة. وكالعادة لا بدَّ لي مِنْ أنْ أحدِّثَكُمْ عن تَجرِبَتي الشَّخصيَّة. سألني أستاذي الألماني فْريتز كالِنْبرِغ يومًا: أأنتَ فلسطيني أم عربي؟ لعلَّهُ تَمَنَّى أن أقولَ له: أنا عربي، حتى يجدَ لمُعْضِلَةِ

دولةِ إسرائيلَ حلّا في ذِهنه، فهي قد استَوْلَتْ على فلسطين، فإذا ما شَعَرَ الفلسطينيون بأنهم عربٌ فقد حُلَّت المشكلة. قلت لك كلامًا طويلًا مُفادهُ أنني عربي مسلم فلسطيني. هز رأسه. وحضرْتُ جلسةَ محكَمَةٍ كان المُدَّعي فيها زميليَ المرحومُ يوسُف نور عوض، والمدَّعَى عليه إذاعةَ البي بي سي. وكنتُ شاهِدًا في صَفِّ البي بي سي. الطريفُ أنَّني عندما دخلتُ القاعَة مَع المحامِيةِ لأَداءِ الشَّهادَة كانَ يوسف رحمه الله جالسًا، فقامَ وعانَقَني وقبَّلَني على الوَجْنَتَين. وبعد أن خَسِرَ الدَّعوى ظلَّ لي صَديقًا حتى مماتِه، رحمه الله.

تهيَّأتُ لأداءِ شَهادتي. قبل أداءِ الشَّهادة سَألَني القاضي «رابين»، وهذا هو اسمُه العائلي، واضِحٌ أنَّه يَهوديٌّ بريطاني، عن مَدى اتِّساعِ التَّزاوُجِ في الأردنِّ بينَ الفلسطينيين والأردنيين، فقلت له: إن ذلك موجودٌ ومحدود، ولم يُعَقِّب. أرادَ حضرَته أن يَطمَئِنَّ إلى أننا نذوبُ فتذوبُ بذوبانِنا مُشكِلَةُ إسرائيل.

آخرُ ما أَقولُه: سواءٌ أكان الفلسطيني مِخْلَبًا لِنظامٍ قَمْعِيٍّ أم مُطبِّلًا، أم عالمًا أم داعِيةً أم موظَّفًا فقضيَّتُه قَدَرُه، إنْ فَرَّ منها صَلبُوه عليها، وإن استَمْسَك بها صَلبُوه عليها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس والثلاثون

ورطة أنقذني منها بيت شعر، الأستاذ حمام أم وجدان الأمّة

المعلّم في شيخوخته، الفوضوية

ورطة أنقذني منها بيت شعر

وقعت في ورطة خرجت منها ببيت شعر قديم. وأبدأ كلامي بكلمة فصيحة ولها في العامية معانٍ ترقص بمرح: مالَ يَميلُ. معناها في الفصحى: مالَ يَميلُ. أقول للصديق الذي أُماشِيهِ عندما نصِلُ إلى بابِ بيتي: «مَيِّلْ واشرب معي فنجان قهوة». وكان كاتب الأغنية أسخى مني عندما قال: «ميِّلْ لَكْ مَيُّولة، نعمل لك تبُّولة». ويريد أهل لبنان أن يقولوا: «الجهة اليمنى»، فتخرج من لسانهم: «المَيْلة اليمين». «المَيْلَة» في لبنان معناها «الجِهة».

وقد يقول لي صاحبي إذ يريد اقتراض المال: «أأستطيع أن أَمِيل عليكَ بِمائةِ دينار؟» وهذا ميلٌ حسن، فأمَّا في السعودية فإنكَ إذا فعلت فِعلةً منكَرَة قال لك صاحبك: «مالت عليك».

وقد تميلُ الناقةُ على حُوارها، لكنها لا تَضُرُّه ولا تَضِيرُه. يقول المثل: «الحوير ما تضره دوسة أمه». وعبَّر عن هذا الفرزدق حين شبه علاقته بسعد فقال:

وإنِّي وسَعدًا كالحُوارِ وأمِّهِ

إذا وَطِئَتْه لم يَضِرْهُ اعتِمادُها

وحدث معي موقف: أغْضَبتُ في مجلسٍ رجلًا يَكْبُرُني، فخرج مُحنَقًا مغيظًا. فتركت المجلس وتبعتُه، وقبَّلْت رأسه، وقلت له: يَصدُق فِيَّ وفيك قولُ الشاعر:

تَميلُ على جوانِبِهِ كأنَّا

تَميلُ إذا تَميلُ على أَبِينا

فرضي وأعتَبَني، فسُررتُ بِرضائِهِ، وأعجَبَتْني نفسي أَنْ جِئتُ بالبيتِ في موقِعِه.

قصة من ثلاث كلمات

ها هي قصة تعرفها جيدًا إن كنت دخلت مدرسة. كيف مات الجاحظ؟ القصة مكونة من كلمات ثلاث: «وقعت عليه الكتب». في القصة قدر كبير من المعلومات. أولًا: حضارتنا العربية الإسلامية قبل ألف ومائتي سنة كانت حضارة زاهرة يملك فيها الفرد مكتبة تستطيع أن تقتله بكتبها. ثانيًا: كان الجاحظ سوسة كتب. ثالثًا: كان شيخًا كبيرًا، وإلا ما قتلتْه الكتب. حقًّا كان قد جاوز التسعين. رابعًا: كان عاجزًا، وإلا فإنه كان قام من تحت كتبه. حقًّا كان مصابًا بفالج نصفي. قصَّةٌ من ثلاثِ كَلِمات فيها كل هذه المعلومات.

هل أدركت قيمة القصة؟

قد كشفتُ لكَ سرَّ الصَّنعَة، فأنا كثيرًا ما أسرد القصص والمواقف. أنا أتسلَّى، غير أنَّني أَعِي جيدًا أن القصة خيرُ ناقلٍ للمعلومة.

بائع الكلمات

في أول صحيفة اشتغلت فيها وكنت في التاسعة عشرة، كان يأتي إلى مقر الجريدة رجل في نحو الأربعين، يدخل المكتب يَعْسِلُ، متمايلًا ذاتَ اليمين وذات الشمال، ويسلِّم أوراقًا كثيرة. كانت أوراقُه تضم أخبارَ الفن والأدب، كانت تملأ صفحة كاملة من الجريدة. هذا قبل زمن الإنترنت بكثير. كان صاحبنا معلِّمَ مدرسة، وكان يكتب للمال، وكان غزيرًا. كان «بائع كلمات». يسميه الإنجليز «هاك رايتر».

وثمة نمط آخر هو الكاتب المستتر، ويسمِّيه الإنجليز الكاتب الشبح. وهو يخط للمشاهير مذكراتهم. يروون له شفاهًا أو على آلة تسجيل ما يريدون قوله، ويعطونه الوثائق اللازمة. ثم يُنشَرُ الكتابُ مكتوبًا بلغة أنيقة، وليس عليه اسمُ الكاتبِ الشبح.

افتخرَ توني بلير رئيس وزراء بريطانيا الأسبق بأنه كتب مذكراتِه بالقلم، وبخطه. فقالت له الصحف: هذا واضح جدًّا، فلو استعَنْتَ بكاتبٍ شبحٍ لكان للكتاب أسلوب. الإكثار استنزاف للكاتب الجيد، وهو مورد رزق للكاتب المستتر ولبائع الكلمات. أنا لست كاتبًا شبحًا، ولا أكتب للمال، فلست بائع كلمات. أنا أجد في الكتابة تسلية كبيرة.

الخواطر

«النثر الفني» نوعٌ من الأدب. اسمه هكذا في كُتُب شوقي ضيف. اليوم يكتب الناسُ الخواطر، وهي عندي أحسنُ من النثر الفني القديم. وسأجرب قلمي في خاطرتين.

الأولى: أيتها النخلة، تشربين من الأرض، وتأكلين الشمس، وتمضَغين الهواء، وتتصدقين على البشر في كل موسم. ليتني مثلُك. فأنا لا أحصل على اللقمة إلا بجهد. فإن بقي معي شيء أمسكته، ولم أتصدق به.

الثانية: يا قلم الرصاص، أيها المتدثِّر بثوب من خشب وتُطِلُّ برأسك، وتقول كلَّ ما تريد. ثم تتكئ على ممحاة في ذيلك. فإن لاموك على قولٍ قلتَه محوْتَ أقوالك بمِمْحاتِك، ولم تترك دليلًا. ليتني مثلُك. فإنني لا أقول شيئًا أو أكتبُه إلا خلَّده الإنترنت. تمضي السنون وأغيِّرُ رأيي، وتظل أقوالي القديمةُ تلاحقني.

للرافعي كتاب في الخواطر اسمه كلمة وكليمة، ها هي خاطرة من خواطره:

يَكبُر بعضُ الأدباء من صِغَرِ المحيطين بهم. قالوا: بَعَرَت شاةٌ حول قطعة من حجر فنطقت البعرة، وقالت للحجر: ما أعظَمَكَ أيُّها الجبلُ الشامخ!

الأستاذ حمام، أم وجدان الأمة؟

أنت معلِّمُ رياضيَّاتٍ في مدرسةٍ في لِيون بِفَرنسا، فما الأداةُ الأولى التي تدخُلُ بها على تلاميذِك؟ اللغةُ الفرنسية. وأنتَ معلِّمُ جغرافيا في ميلانو بإيطاليا، أداتُك الأولى اللغةُ الإيطالية. اللغة هي الدَّلْوُ التي تَغتَرِفُ بها ويغترف تلاميذُك العلم من بئرِ المعرفة. الذي يُهمِلُ لغتَه الأمَّ يغترفُ الماءَ من البئر بحِذائِهِ، لكنَّه لا يَنالُ ثوابَ ذلك الرجلِ الذي سَقى الكلب.

ومن هي أهَمُّ معلِّمَةٍ في المدرَسَةِ البريطانية. هي بالطبع معلِّمَةُ اللغةِ الوطنية. هذه المعلمةُ تزوِّدُ الطلبةَ بوِجدانِهم ووجدانِهِنَّ، بتراثِ أُمَّتِهِم. تُعطيهم هُوِيَّةً وشكلًا. لا يخرجُونَ تأْتائِينَ فَأْفائينَ كخِرِّيجي المدارسِ الأجنبيةِ في بلادنا.

اللغةُ الوطنيَّةُ عندنا اسمُها اللغةُ العربية. وكثيرًا ما يُوَكَّلُ بِتدريسِها معلِّمونَ ضِعافٌ في مَعارِفِهِم. معلمونَ دخلوا كليَّةَ اللغةِ العربية قبل بضعِ سنين؛ لأَنَّهُمْ لم يجِدوا كليَّة أخرى تقبَلُ مجاميعَهُم الضَّعيفة.

المفترضُ في معلِّمِ اللغةِ العربية أن يعرفَ الجغرافيا والعلومَ والتاريخ. عليه أن يعرفَ كلماتٍ مِن قَبيلِ الأملاحِ والقَواعدِ والهَدْرَجَةِ والمَلْغَمَةِ والخَوارِزْمِيَّاتِ والنسبةِ التقريبية والصفائحِ التِّكْتُونِيَّة. وهذه كلماتٌ علمية عربية أو معرَّبة. ووراءَ كلِّ كلمةٍ معلومة. على معلم العربية أن يعرِفَ الكلِمَةَ والمعلومَةَ التي وراءَها. فأمَّا إنْ كان لا يعرِفُ إلَّا الفاعلَ والمفعولَ والكامَخَ والسَّبانِخ، فهو سيكونُ الأستاذَ حمام الذي صوَّرَهُ ذلكَ الفيلم.

الطحال

موضوعي الطَحال، وأرجو أن ألتزم به. يمكنك العيشُ بدون طِحال، فالعمليات التي يقوم الطحال بها تقوم بها جزئيًّا أعضاءٌ أخرى. الطحال ينظف الدم من الشوائب ويقتل البكتريا الضارة.

يدخل الدم في الطحال ويخرج منه. لكنه لا يخرج كما دخل. وسآتيك بعد قليل برقْم ستجده غريبًا.

تعيش الكُرَيَّة من كريَّاتِ الدمِ الحُمْر أربعةَ أشهر. عندما تبلغ كريَّةُ الدمِ الحمراءُ شيخوختَها يفكِّكها الطِّحال ويأخُذُ ما بها من موادَّ نافعةٍ وخاصةً الحديد، ثم يتخلصُ منها. في كل يوم أنت تفقدُ ٢٠٠ مليارٍ من الكريات الحمر، والطحال يزودك بكريَّات حمر جديدة بديلة، ويساعده في ذلك مخ العظام.

أنت تجدد في كل يوم ٢٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ من كريات الدم الحمر، وفاقِدُ الكريَّاتِ الحمر يذهب مع البراز. فإن سألت لماذا يكون البراز محمرَّ اللون فقد أتاك الجواب.

وقد يُزال الطحال بعملية جراحية، ولكنك تعيش بدونه، فكريات الدم الحمر تُنتَج في التجاويف العظمية أيضًا.

بعد هذا الكلام العلمي إليكَ بعضَ الشعر. قال الأعشى:

رحَلَتْ سُميَّةُ غُدْوَةً أجمالَها

غضبى عليكَ فما تقولُ بَدا لها

لقد رحلت سمية الجمال، أي وضعت عليها الرِّحال، وكانت غاضبة. ثم يمضي الأعشى في قصيدته، فيفاخر بأنه لاحق امرأة أخرى واختطفها من صاحبها. يشبِّهُ المرأة بالشاة. وحتى يومنا هذا فمن الرجال من يصف المرأة بالنعجة. والنساء لا يقصِّرن فبعضهن ينعتُ الرجل الضعيف بالخروف. ما علينا! يقول الأعشى عن هذه الشاة، أي المرأة التي اعتَلَقَها في غَفْلةٍ من صاحبها:

فرميتُ غَفْلةَ عينِه عن شاتِهِ

فأصَبْتُ حبَّةَ قلبِها وطِحالَها

رجع إلينا الطحال. ونقد الناقدون بيت الأعشى. قال خلفُ الأحمر: «ما دخل الطحال شيئًا قطُّ إلا أفسده».

المعلم في شيخوخته

هناك درسٌ في كتابِ القراءة عن عزمِ الشبابِ وحكمةِ الشيوخ. كنَّا ونحنُ تَلاميذُ نَسخَرُ مِن هذهِ العبارة، ونهزَأُ بما يسمى حِكمَةَ المُسنِّين الشيوخ. كنا

نريد منهم فقط أن يَحُلّوا عنَّا.

وعشْنا، وكبرنا. السيَّارَةُ التي كانتْ ستدهَسُنا لم تَدهَسْنا، والعَمارةُ التي تَهدَّمَتْ على رُؤوسِ أصحابِها تهدَّمَتْ بعد أن خَرجْنا منها، والجَلْطَةُ تأخَّرتْ وبَعثَتْ إلينا أولادَ عَمِّها: الشَّيْبَ والصَّلَعَ والكرشَ والرَّثْيَة، أي الروماتيزم. وشِخْنا، ورَجَعْنا إلى كتاب القراءة. رجعْنا إليه هذه المرة لِنُدَرِّسَه لتلاميذِنا.

أمسكتُ كتابَ القراءة بيدينِ مرتعشتين. لاحظْتُ إبهامَ يَديَ اليُسرى يَنكَسِرُ في زَاوِيَةٍ قائِمةٍ عندَ عُقدَتِه الثانية، كإبهامِ كلِّ كَهْل، ورأيتُ شَعَراتٍ بيضًا يتسلَّلْنَ إلى ذِراعي، ورأيتُ على كَفَّيَّ نُقَطًا داكِنة، فعرفتُ أن المَوْزَ اخْتَمَر، وحانَ حَيْنُه. وتذكَّرتُ أبياتَ الراجز:

إذا الرجالُ وَلَدَتْ أولادُها

وأخذتْ أمراضُها تَعتَادُها

وارتَعَشَتْ من كِبَرٍ أجسادُها

تلكَ زُروعٌ قد دنا حَصَادُها

وعلمت أن المرءَ يزداد خوفُه من الموتِ باستمرارٍ مهما كَبُر، إلَّا إذا خَرِف. فقلت لنفسي: «اللهم ثبِّت علينا الدين، أمَّا العقلُ فما حاجتُنا إليه في الشيخوخة؟».

ثم نظرتُ في الكتاب، وقرأتُ «عزم الشباب، وحكمة الشيوخ». وقلَّبتُ الكتاب، وتعجَّبتُ كيف وَقَفَ الزمنُ أربعينَ سنة، هو نفس الكتاب، هي نفس الدروس. وقبل أن تثورَ ثائرتي وأبدأَ في كيْلِ سيلٍ من السِّبابِ للمناهج، قررتُ أن أستَعمِلَ حِكمةَ الشيوخ. أو لعلِّي تروَّيْتُ تروِّيًا لاإراديًا لأنني صرتُ شيخًا. فكرتُ بهدوء. الحقُّ ليس على وزارةِ التربيةِ والتعليم، ولا على لجنة المناهج. عالَمُنا العربيُّ لم يُنتِجْ شيئًا ذا قيمةٍ في الأدب والفكر منذ عشرات السنين. قرأتُ قطعةً عن البَعوضِ للمَنْفَلوطِيِّ، وقصةً عن حلَّاقٍ للمازني، وقَصيدة عن صُعوبةِ العَيشِ لإلياسَ فَرْحات، وهيَ أشياءُ جميلةٌ ولغتُها ذاتُ بَريق، وهي نادِرَة. أغلقتُ الكِتاب. أدركتُ أننا أفلَسْنا في النثر الفني منذ عقود، وأما في الشعر فقد دخلْنا في الرمزية البغيضة، وصار شعراؤنا يؤلفون الحزازير، أي الفوازير.

نحن أمة تقف في أرض الليل، تنتظر الفجر.

كانت صحافتُنا مليئةً بالأدب، فصار أدبُنا كلُّه صحافة. هذا عن الأدب، وأما العِلْم عندنا فلن أتحدث عنه، حتى لا أتفوَّه بكلماتٍ نابية.

الفوضَويَّة

مصطلح «فَوْضَوِيَّة» التصَقَ بتوجُّهٍ سياسي معين. بيد أن أصحاب هذا التوجه يفضلون كلمة «اللَّاسُلْطَوِيَّة». هؤلاء القوم ضدَّ وجود الدولة. يريدون مجتمعًا تديره التعاونيات، وترفع فيه الحكومة يدها عن المجتمع. المصطلح بالإنجليزية أناركيزم، وهي من «أنارخيا» اليونانية بمعنى اللازعيم.

الفيلسوف الأمريكي نعوم تشومسكي ضد الدولة الأميركية؛ لأن ديمقراطيتها منقوصة، وكثيرًا ما وُصف باللاسلطوي بالمعنى السياسي-الفلسفي.

بعض مشاهير اللاسلطويين في التاريخ طالبوا بالمشاعية، أشهرهم پيير جوزيف پرودون صاحبُ العبارة المشهورة «المِلكِيَّة الخاصَّة سَرِقة». وكان پرودون قريبًا في فكره من كارل ماركس. غير أنه عندما كتب كتابه فلسفة الفقر تلقَّى من ماركس ردًّا بصورة كتاب سماه ماركس فقرَ الفلسفة. وكانت قطيعة. هذا يذكِّرنا بكتابي تهافت الفلاسفة، وتهافت التهافت.

بداوة العرب في جاهليتِهم أبلغُ تعبير عن اللَّاسُلْطوية؛ فقبيلة تميم الكبيرة تعرفُ قبيلةَ بَكر الكبيرة، وتَتعايشان في بعض الأماكن كاليمامة. وعشائرُ تميم كثيرة: فيُربوعُ لها شأن، ودارمُ لها شأن. ليس هناك زعيم مطلق، بل شيوخ. وتفتقر عشيرةٌ من العشائر، فتُغِيرُ على عشيرة أغنى منها، وتسرقُ الإبل. هذه كانت وسيلةً اجتماعيةً لدرءِ غائِلَة الجوع. الدولة غائبة، وطبيعة الأرض فرضت هذا النمط اللاسلطوي. قال القَطامِيُّ التَّغْلِبِيّ:

فمَنْ تَكُنِ الحضارةُ أَعجَبَتْهُ
فَأَيَّ رِجالِ باديةٍ تَرانا
ومَنْ رَبَطَ الجِحاشَ، فإنَّ فينا
قَنًا سُلُبًا وأَفراسًا حِسانا
وكُنَّ إذا أَغَرْنَ على جَنابٍ
وأَعْوَزَهُنَّ نَهْبٌ حيثُ كانا
أَغَرْنَ مِن الضِّبابِ على حَلالٍ
وضَبَّةَ، إنَّهُ مَن حانَ حَانا
وأَحيانًا على بَكْرٍ أخينا
إذا ما لم نَجِدْ إلَّا أَخانا

وفي الضفة الغربية غابت المحاكم وغاب القضاء كلّه نحو ربع قرن تحت الاحتلال. فكيف عاش الناس؟ حلوا مشاكلَهم بأنفسهم، بالقضاء العشائري وبالمغالَبة، عاشوا بدون دولة ترعاهم.

العالم اليوم استقرَّ على صيغةٍ واحدة شبهِ مقدَّسة: هي صيغة الدولة. عالمنا اليوم صاغَه صلح وستفاليا ١٦٤٨م. القانون الدولي يتعامل مع العالم بوصفه مكونًا من دول. الأحلاف تتم بين دول، والمعاهدات التجارية تتم بين دول، والعقوبات تُفرَض على دول. وكما أن الوِحدةَ المكوِّنةَ للجسم الحيِّ هي الخليَّة، فإن الوِحدةُ المكوِّنةُ لجسم العالم هي الدولة. وبتجاهُلِ الدولة لا يستطيع أي حزب لاسُلطوي أن يحققَ نتيجةً عملية.

البدوي في صحرائه يملك الاكتفاءَ الذاتي، وتسألُه: من زعيمُ البلاد؟ وقد يقول: لا أدري، ولا يهمُّني أن أدري. هو لاسلطوي بالطبع. (بالطبع) معناها هنا «من حيثُ طبيعةُ حياته». قال ابن خلدون: «الإنسان مدني بالطبع». ولعل هذه العبارةَ -التي تعني أن الإنسان بطبيعته يميل إلى التمدن، ولا يستغني أحدٌ عن أحد- هي النقيضُ لفكرِ اللّاسُلْطَوِيَّة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس والثلاثون
في هجاء الأكاديميين، دفاع عن المستشرقين، آكلو الشاي، السائق القميء

التربيت

سأتحدث عن مصطلح اخترعته، هو «التَّرْبيت». أنت تُرَبِّتُ على كَتِفِ الصبي إذا أحسَنَ، وتقولُ له: «عفارم»، وهي كلمة تركية، أو «زِهْ» وهي كلمة فارسية، أو «پراڤو» وهي كلمة إيطالية، أو تقولُ له: «أحسنت». وتربِّتُ على كتفه. هذا الصبي واقع تحت سلطتك. تربِّتُ على كتفه فيفرح، وفي مرة أخرى تقطِّبُ في وجهه فيحزن.

التربيت شارع ذو اتجاهين.

كل رئيس أمريكي يستقبل ضيفه في البيت الأبيض، وإراديًّا أو لاإراديًّا يضع يده على كتف الضيف. يربِّت على كتفه، كأنه يقول له: «نحن الكبار وأنتم الصغار».

عندما ربَّتَ أوباما على كتف رئيس الهند لم تَخْفَ الإيماءةُ على الضيف الهندي فرد التَّربيتَ بتربيت. ولاحظت صحيفة إنديا توداي الأمر فكان عنوانها: «لغة الجسد بين مودي وأوباما: لعبة قوة بين السيطرة والصداقة».

وهناك تربيت باللسان. مهندس شاب اسمه سعيد عمره خمس وعشرون، يعمل في المكتب الهندسي لوالده. وهو ينادي مهندسًا آخر يعمل في المكتب وعمره أربعون: «يا حسن!» وحسن يجيبه: «نعم، يا باشمهندس».

ذات يوم كنت ضيفًا على برنامَجٍ تلفزي اسمه «حكي ع المكشوف»، استضافني المذيع وصاحب المحطةً ماهر شلبي، وكان الضيفُ الآخر النائبَ العام. كان الموضوعُ حريةَ الرأي. وفي سياق الحوار وَجَّهَ النائب العام كلامَه إليَّ قائلًا: «حريةُ الرأي مكفولة، اكتب وقل كل ما تريد». وقاطعته بشيء من الحدة: «ليسَ بإذنٍ منك. أكتب وأقول بإرادتي أنا».

المسألة ببساطة، عندما يعطيكَ أحدُهم الحقَّ في الكلام، فالعنصر الخفي في عبارته هو: «مثلما أعطيتُك الحق، فأنا أملِكُ أن أسحَبَه منك».

التربيت موجود في مواقفَ كثيرة، وقد يكون حميدًا بين رئيس ومرؤوس؛ فالرئيس من حقه أن يثنيَ عليك، ومن حقه أن ينبهَك إلى خطئك. والتربيت

حميد بين معلم وتلميذ. ولكن التربيت يكون مقدمة للهيمنة إذا وقع بين صاحب حق وصاحب سلطة.

تعميم وتنميط

هذا شيء عن طباع الناس. هناك شخص طبعه إنجليزي، وشخص طبعه إيطالي، وشخص طبعه ألماني، وشخص طبعه صيني. فأما الصيني فلا أعرف عنه شيئًا. الألماني يلقاك بوجه متجهم، يَسمعُك وينظر في وجهِك بوجهٍ بوكري (أي مثل وجه لاعب البوكر الذي يمسك بأوراق اللعب، وينظر إليها بوجه لا ينم عن أي شعور. تراه يحمل الهاي كارد الضعيفة ووجهه حجري، أو يحمل الفول هاوس القوية ووجهه حجري). الألماني يعاملُك بالقانون، لا يعطيك كلمةً حلوة، ولا يُعطيكَ زيادةَ البياع (وزيادة البياع هي رجْحَةُ ميزان يضعها لك البائع، لتحس بالسعادة، أو من أجل الحرام والحلال تعويضًا عن وزن الكيس). الإنجليزي كالألماني في شُحِّه، ولكنه يعطيك الكلمة الحلوة، يتحرك بها لسانُه ميكانيكيًّا مثلما تتحرك شفَرات الخلاط، فإن نظرت في وجهه فلن تجد ابتسامةً ولا شبحَها.

الإيطالي خَلْقٌ آخر. تدخل المطعم متجهِّمًا وتقعد، فيأتيك النادل وتُحِسُّ بكفه على كتفك، ويبدأ بالتحدث إليك بصوت عالٍ حتى لو كان المطعم مكتظًّا. وتأتي صاحبةُ المطعم، وبابتسامة عريضة تقول لك أشياء كثيرة. بالطبع، أنت لا تفهمها، تفهم فقط أنهم هنا يقدمون الطعام والكلام. وتشير للنادل بسبَّابَتِك إلى الوجْبَة المنشودة. وتستمر صاحبة المطعم البدينة في الكلام. ويذهب النادل. وصاحبة المطعم تتكلم، وقد يشترك أهل المنضدة المجاورة في الحديث. وفي ساعة ليلية قد تجد المطعم كله يتكلم مع كله. قد وصفت لك مشهدًا شهدته.

في مصر أنت كأنك في إيطاليا. لا تتكلم! النادل يقوم بالواجب. فإن سألتَ نِلْتَ ألْشَةً أو تعليقًا، ربما يكونُ ألذُّ من وجْبتك. جيء لي في مطعم بمصر بطبق فريك، فكنت مع كل لقمة أُخرج من فمي حَصاة. جمعتُهنَّ بجانِبِ الطبق، وعندما جاء النادل أشرتُ بِيدي وقلت: ما هذه الحجارة؟ قال على الفور: «إحنا اللي بنينا الهرم يا باشا». وطلبت مرَّةً طبقَ المَشاوي المشكَّلَة، فأُتيت بسيخين متشابهين تمامًا، قلت للنادل: «ما الفرق بينهما؟» فأغمض عينًا ومال برأسه، وقال: «في الطَّعمِ يا بيه».

في هجاء الأكاديميين

هل أثق بالطبيب الشاب لأن علمَه طازج، أم بالطبيبِ الشيخ لأنه عاين حالات كثيرة؟

في الوباء صدَّقت الدكتور فاوتشي (Fauci)؛ لأن علم الأوبئة والفيروسات لم يتقدم كثيرًا منذ سنين، وأيضًا لأنه -بسبب خبرته الطويلة- وَقَفَ تَرمْب عند حدِّه، وحقنَ العالَمَ بحقنة من التشاؤم البنَّاء.

في الطب أثق في الشهادات الكثيرة المعلَّقة على جدار غرفة الطبيب. مرَّتْ بي أوقاتٌ هجَوْتُ فيها الشهادات هجاءً مُرًّا. ومن يَدري فقد أفعلُ بعض ذلك بعد قليل.

في حديثٍ إذاعيٍّ قديم سألتُ رئيسَ جامعةِ بيرزيت الدكتور حنا ناصر عن شهادة الثانوية العامة: هل هي المعيار الصحيح لقبول الطلبة في الجامعة؟ قال: «ما زالت أفضل معيار». ما زالت، أنا موافق. لكن المجتمع شيء أكبرُ من الجامعة. قال شوقي:

وكم مُنجِبٍ في تَلَقِّي الدروسِ

تلقَّى الحياةَ فلم يَنجُبِ

أميركا تشبهُنا في شيء؛ عندنا نقول عند التوظيف: «أين الشهادة؟» هناك يقولون: «كوليج كوليج». هناك أيضًا يقيمون للشهادات وزنًا كبيرًا. لن أكابر؛ للشهادة وزنها في كل مكان.

والآن يبدأ الهجاء. الجامعات التجاريةُ في بلادنا العربية غالية الأقساط، وتقدم العلم الرخيص. والجامعات الرسمية رخيصةٌ سِعرًا وعِلمًا. لو مشيتَ في زِقاقٍ في قرية، فلستُ آمَنُ عليك من الالتقاء بدكتور من الدكاتير الذين تقذفُهم جامعاتُنا على قارعة الطريق. لقد أرخَصَتْ جامعاتنا كلمة دكتور. كثيرون من الدكاترة القديرين صاروا يستحون من حرف الدال الذي يسبق أسماءهم، فالجامعات أغرقت السوق.

أرى رسائلَ الدكتوراه في الموضوع الذي أعالجه كثيرًا وهو اللغة العربية، فأرى العجب. أيُعقَلُ أنَّ الجامعة منحت هذا الصبيَّ شهادةَ دكتوراه على هذا البحث الصبياني؟ ثم نرى الصبيَّ الدكتور قد وُظِّف في الجامعة التي منحته اللقب، وبعد سنين يتدرج في الوظيفة فيصبح لقبه (أ.د.) أي أستاذ دكتور. هذا لقب يجيء بالتقادم لا بالاستزادة من العلم.

في العالم العربي شهادات يمكن الثقة بها، شهادات الطب والهندسة من الجامعات الجيدة. فما المشكلة في شهادات اللغة العربية؟ المشكلة موجودة في فهم الجامعات لهذا العِلْم. فاللغة العربية عندهم تخلو من عنصرين لا بدَّ منهما لأي علم؛ العنصر الأول: التفكير النقدي، والعنصر الثاني: البحث والتجريب. يدرِّسون العربية تلقينًا وحفظًا، ويدرِّسونها استنادًا إلى قوالب

جاهزة. فكل كتاب أو معجم مضت عليه بضعُ مئات من السنين يُحاطَ بهالةٍ من القداسة.

دارس النحو يخلع نعليه ويجثو على ركبتيه وهو يطالع حاشية الصبَّان على شرح الأُشموني على ألفية ابن مالك. اللغة العربية لا تسكُنُ هنا.

دفاع عن المستشرقين

قضيتُ بضعَ ساعات أجمع أسماء المحقِّقين العربِ والمسلمينَ الذين أحْيَوْا تراثَنا الأدبي. ولم أكتبْ سوى أسماءِ المحقِّقينَ المُجيدين. ها هي الأسماء وقد رتَّبْتُها أبجديًّا:

أبو السعود الإبياري، إحسان عباس، أحمد رشيد رضا، أحمد محمد شاكر، بشار عواد معروف، حاتم الضامن، حسين نصار، رمضان عبد التواب، السيد أحمد صقر، شوقي ضيف، الطاهر بن عاشور، طه الحاجري، عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، عبد الرحيم فانْيامْبادي، عبد السلام هارون، عبد العزيز الميمني الراجكوتي، عبد الله كنُّون، عبد الهادي التازي، علي محمد البجاوي، فخر الدين قباوة، محمد أبو الفضل إبراهيم، محمد بن تاويت الطنجي، محمد بهجة الأثري، محمد رضوان الداية، محمد محيي الدين عبد الحميد، محمد يوسف نجم، محمود الطناحي، محمود محمد شاكر، مصطفى السقا، مصطفى جواد.

بعد هذا أخذت أجمع أسماء المستشرقين الذين حققوا تراثنا الأدبي. لم أتعرض للمستشرقين الذين كتبوا الكتب عنا وعن أدبنا واكتفوا بذلك، بل شرطت على نفسي ألا أكتب إلا اسم من حقَّق كتابًا قديمًا ونشره مطبوعًا، فكانت هذه المجموعة:

أتيين كاترمير، آدم متز، إدموند فانيان، إدوارد پالمر، آرثر جون آربري، أريستيد مار، إغناتس غولدتسيهر، إغناتي كراتشكوفسكي، إغنتيسو غويدي، أنتوني بيڤان، أنطوان دي ساسي، أوغست فِشر، البارون كارا دي ڤو، باسكال غايْنغوس، بنجامين سانجنتي، بيرنهارد موريتس، تشارلز ليال، تيودور ڤلم يان يونبول، تيودور نولدكه، جورج فرايتاخ، جوسيپي غبرايلي، جيورجيو دلَّاڤيدا، رامپولدي، ريجيس بلاشير، رينهارت دوزي، رينولد نيكولسون، ستانسلاس غويار، شارل پيلا، صموئيل مرغوليوث، غارسان دي تاسي، غاستون ڤيت، غوتهلف بيرغشتريسر، غوستاف فلوغل، غوستاڤ دوغا، غيرولف فان فلوتن، غيورغ ياكوب، فرانشيسكو كوديرا، فريتز كرينكوڤ، فريدريش أوغست مولر، فريدريش ديتريصي، فريدريش روكارت، ڤلاديمير مينورسكي، ڤلهلم آلڤارت (وليم الورد)، كارل بروكلمان، كارل يوهان

تورنبرغ، كارلو ألفونصو نلينو، لويس ماسينيون، ليڤي پروفنسال، ليون ماري غوتييه، مارتينوس هوتسما، ماريا نلينو، ماكس مايرهوف، ماكس هورتن، مايكل أنغلو غويدي، مكسمليان هابيشت، ميخائيل دي خويه، هارتڤيغ دورنبور، هاينريش توربكِه، هاينريش ڤوستنفلد، هلموت ريتر، هنري أمِدروز، هنري كوربان، وليام رايت، ياكوب بارط، يوزف دورنبور، يوزف فون هامر بورغشتال، يوزف هِل، يوزف هوروڤتس، يوكولس غوليوس، يوليوس ڤلهاوزن، يوهان ڤولرز، يوهان كوزيغارتن.

استعنت بالكتب لاستخراج أسماء المستشرقين. بعضهم انتفعت بعمله مباشرة، وكثير منهم انتفعت بعمله بطريق غير مباشر. فكيف كان انتفاعي المباشر؟

قرأت شرح المفضليات للأنباري بتحقيق كارلوس يعقوب لايَل. وقرأت تحقيق پالمر لـ ديوان البهاء زهير، وترجمة المستشرق فريدريش روكارت لـ ديوان الحماسة. وهؤلاء نشروا تراثنا عن المخطوطات.

أفدت من جهد تشارلز لايَل عندما أكبَبتُ على المفضليات دارسًا. ولكنني قبل ذلك بسنوات كنت قرأتُ المفضليات قراءةَ استمتاع، بتحقيق اثنين من أكبر المحققين العرب هما عبدُ السلام هارون وأحمد محمد شاكر، اللذان طبَعا المفضليات بعد لايل بعشرين سنة، واستفادا منه كثيرًا، لقد مهَّدَ لهما طريقًا صعبًا كل الصعوبة. وذكرا له اسمًا في المقدمة، دون الإشارة إلى الفائدة الكبيرة التي نالاها من طبعته. ذكراه ذكرًا عارضًا.

ومثلما قلنا عن كتاب المفضليات نقول عن كتب الجاحظ، فقد بعثها من مراقِدِها المخطوطة شارل بلا، واستفاد منه هارون في طبعته اللاحقة. واستفاد طه الحاجري من فلوتن في بخلاء الجاحظ.

للمستشرقين يدٌ بيضاءُ على تراثنا الأدبي. لقد حفروا أرضًا بكرًا. وجاء مِن بعدِهم محققون عربٌ كبار استفادوا من عملهم وتمَّموه.

وتَرى من يُنكر جهود المستشرقين. ولماذا؟ لأن بعضهم كتب كتبًا تنتقد الدين الإسلامي وتسيء إليه؟ ولأن بعض المستشرقين كان يعمل في خدمة دولته المستعمِرة؟ ولأن بعض المستشرقين ارتكب أغلاطًا في تحقيقاته؟

نقول لمن يسيء إلى الإسلام ما قاله شوقي: من سبَّ دينَ محمدٍ فمحمدٌ متمكِّنٌ عندَ الإلهِ رسولا. ونقول لمن خدم دولته: فعلت ما يفعله الكرام، وإن كانت دولتك مستعمِرة ومجرمة. وأما من ارتكب أغلاطًا في نقل المخطوط إلى المطبوع، فأنا أغفر له أغلاطه.

وأسأل: هل أخفى المستشرقون المخطوطات؟ هل أحرقوها بعد تحقيقها؟ لا، بل فهرسوها فهرسة ممتازة وحافظوا عليها، وظلت جامعاتهم تُتيحُها لمن يريدُ من المسلمين والعرب.

جهد المستشرقين كبير، ولولاه لبقي كثير من تراثنا الأدبي في بطون المخطوطات.

السائق القميء

كان يومًا من الأيام العادية، لا شيء مثيرًا ولا مبهجًا ولا محزنًا. كان يومًا ما كنت لأندم عليه لو حُسِم من عمري. لو كان يمكنني تسريعُ ذلك اليوم، مثلما أسرِّعُ الشريطَ الممل على اليوتيوب، كي أصل إلى اليوم التالي فورًا، لفعلت. قعدت مترددًا أفكر في أمور وجودية، ثم قررت أن أنتشل نفسي من هذا الاستواء، فقمت عن كنبتي البليدة، وارتديت معطفي وصح عزمي على التوجه إلى دائرة حكوميَّة لتسوية أمرٍ اقترب أَجَلُه. أحصيت ما معي من النقد السائل فهم لا يقبلون غيره، وانطلقت وركبت التاكسي.

السائق قصير غارق في مقعده، لا أكاد أراه. جعلني -وأنا جالس في المقعد الخلفي- أفكر في السيارات التي تسير بلا سائق. لكنني كنت ألمح سالِفَه وهو يميل برأسه طربًا على أغنية الراديو. أنا في إستانبول، كأنني أغفلت ذكرَ ذلك؟ وفي إستانبول أربعةُ ملايينَ ومائةٌ وسبعةٌ وثلاثون ألفَ سيارة.

وصلنا. وترجَّلت. وكأنما شعر السائق القميء ببعض الخطر فترجَّل. ربما كان صادف فيما مضى راكبًا ترجَّل وسارع بالفِرار. وقفت بإزائه وقلت له: مائة وتسعون، تفضل. قال لي: «أبدًا، مائتان وثلاثون لا أقل». وحاججته وأنا أمسك بحافظة نقودي وأبحث في الأوراق النقدية عما يفي بالمائة والتسعين بالضبط، فلا والله لا أعطيه مائتين، فقراءة العداد كانت مائةً وثمانين. قلت له: «أنا أعطيك عشَرةً زيادة، ألا يكفي هذا؟» قال وهو يهز رأسه بدون طرب: «لا»، واستمرت الفصيلة. ثم وقعت كارثة صغيرة. اندلقت الأوراق النقدية، وجُلُّها من الفئات الكبيرة، من الحافظة على طرف الطريق. فهبط السائق على ركبتيه يجمعُها. هو أقرب مني إلى سطح الأرض، وركبتاه كما اكتشف أَلْيَنُ من ركبتيّ. اكتفيت بأن انحنيت كي ألتقط بطاقة مهمة. ثم نهض السائق، وسلَّمني المال. ووضعته في حافظتي. واستمر في كلامه لم يقطعْهُ، عاد إلى المحاججة. قلت له، وشبح ابتسامة يأبى أن يفارق شفتيَّ: ألا تكفي مائة وتسعون؟ فعاد بحماسة إلى الجدل القديم. فتحولت ابتسامتي إلى ضحكة، ونقدته مائتين وخمسين. فشكر وانصرف. المائة والتسعون هي أقصى ما يستحق، والزيادة كانت لأنه أضفى على يوميَ معنى.

آكلو الشاي

الرابعةَ عصرًا، وأنتُمْ مَدعُوُّونَ إلى أَكْلِ الشاي. وهل الشايُ يُؤكل؟ هذا التعبيرُ سمعتُه أولَ مَرَّةٍ عندما جئتُ إلى بِلادِ الإنجليز. فشايُ الرابعةِ عَصرًا ليسَ شايًا فحسْبُ، بل شايٌ وشطائرُ و«سْكُون» مع الزُّبْدِ والمربَّى، والكِيك.

السكون عُنصرٌ ثابتُ في شايِ العَصارِي، وهو كُتْلَةٌ مخبوزَةٌ بِحجْمِ قَبضَتِك، تَفلَقُها بِبَنانِك، وتَضَعُ شيئًا مِن الزُّبْدِ ثم شيئًا من المربى. وإيَّاك أن تَفلَقَها بالسِّكِّين. تلكَ زلَّةٌ سَيَعُدُّها الإنجليزيُّ عليك.

ويُصَبُّ لكَ الشايُ، والمُضيفَةُ هيَ مِنْ يَصُبُّ لكَ الشاي، حتى لو كانت ليدي زوجةَ لورد. ثم تضَعُ أنتَ بعضًا من الحليب في الكوبِ فوقَ الشاي. الشاي قبل الحليب، وليس العكس.

وعبارة «بعضًا من الحليب» ترجمة حرفية، بالعربية نقول قِدْرًا من الحليب. لكننا نَصِفُ لكَ مائِدةَ العَصارِي الإنجليزية حيث يؤكَلُ الشايُ أَكْلًا، فاغْفِرْ لي بعضَ التَّرجمةِ الحَرفِيَّة. وقد تُضِيف قطعةَ سُكَّرٍ، وتُحَرِّك. لا نُريدُ أن نَسْمَعَ عزفًا منفردًا بين مِلعَقَتِكَ وكوبِك. حَرِّكْ بلا صوت. ولا تُحَرِّكْ دَائريًّا، ممنوع. حرِّكْ أمامًا ووَراءً، ولا تُحَرِّكْ ذراعَك بَل يَدَك مِنَ الرُّسْغ فقط. وارتَشِف شَايَك بِلا صوت، ولا تَرتَشِفِ الشايَ واللُّقْمَةُ في فَمِك. الشايَ ليسَ سائلًا تُذيبُ بِه اللُّقْمةَ التي في فَمِك. فأمَّا إنْ غَمَسْتَ بَسكوتَةً في شايِك فسوفَ تَشعُرُ بِسَهمَينِ يَنْغَرسانِ في رَأسِك. إنَّهُما نَظْرةٌ مِن عَينَيْ سيدةِ البيت التي لن تَدعُوَكَ مَرةً أُخرى.

هذا الذي وصفْتُ يتَّبعُه قليلونَ في بِلادِ الإنجليز، هو الإيتيكيتُ الرسمي. ولنا نحنُ إيتِيكيتُنا. هيَّا إلى الأردنِّ وإلى المَنسَف. وأنتَ مَدْعُوٌّ إلى جَلْسَةِ صُلْحٍ وتَطييبِ خَواطِر، وأنت كبيرُ المدعُوِّين.

جَعلوا رأسَ الذَّبيحَةِ في الوَسَط، فهذا معناه أنهم ذَبَحوا لك ذبيحَة. اللُّقْمَةُ الأولى لِصاحِبِ الدَّعوة، يَلتَقِطُ أرُزًّا من هنا وهناك، من كل مكان في الدَّست، ويصنَعُ لُقْمَةً ويَزدَرِدُها. كأنَّه يقولُ لِضيفِه: الطعامُ ليس مَسمُومًا.

والمَنْسَفُ خُبْزٌ رَقيقٌ يُفرَشُ في أَرضِ الدَّسْت، ثم أَرُزٌّ ثم لَحْمٌ مَطبوخٌ باللَّبَنِ الجَميدِ المُذَاب، ويُسْكَبُ اللبنُ فوقَ كلِّ شيء. وتقولُ لي: إنَّ الأَرُزَّ ليس أصيلًا في بلادنا. وأقول: بلادُنا في وَسَطِ الدنيا، وكانتَ مَمَرَّ بِضاعَةِ الصينِ وكلِّ آسيا إلى مغارِبِ الأرض. لا نَزرَعُ الفُلفُلَ ولا البَهار لكنَّنا منذُ آلافِ السنين نعرفُ كلَّ ذلك، ونعرفُ الأرُز. ويقولونَ للأرُزِّ في بعضِ بلدانِ الخليجِ العربية: العَيْش. وفي بعضِ لُغاتِ آسيا فإنَّ الكلِمَةَ التي للأرز هي نفسُها الكلمةُ التي تعني الحياة.

السيدةُ مِلْعَقة لا تَظهَرُ على مائدةِ المنسفِ. بل هِيَ أصابِعُ ثلاث. ضَعْ يَدكَ اليُسرى خَلفَ ظهرِك، واصْنَعْ لِنفسِكَ بِثلاثِ أصابِعَ مِن يَدِكَ اليُمنى لُقْمة: اجبِلِ الأرُزَّ المَسْقِيَّ لَبنًا بقُدَيْرةِ لَحْمٍ واصْنعْ كُرةً، وقَرِّبْ يدَكَ مِن فَمِكَ. لا تَلْمَسْ شَفتَيْكَ بِأصابِعِك بلَ استعمِل إبهامَكَ كَي تُمَجْنِقَ الكُرةَ في جَوفِ فمك. وتُمَجْنِقُ من المنجنيق. هذا الإيتيكيتُ العربي يُلبِّي شروطَ الصحَّةِ ويَرعى حَقَّ الضِّيافَة.

والآدِبُ، أي صاحبُ الدعوة، يأكلُ بطيئًا، فإن كان مهزولًا قليلَ الأَكلِ وشَبِعَ، فهو لا يقومُ، بل يُبقي يدَه على حَافَةِ الدَّسْت؛ حتى لا يرفعَ الضَّيْفُ أيدِيَهُم. يَظلُّ الآدبُ ينتظرُ حتى يشبعَ الجميع. وشبيهٌ بهذا ما يجري على مائدةِ مَلِكَةِ بريطانيا، فإنَّها إن رَفعَتْ يدَها وَجَبَ على القومِ أن يُمسكوا، شَبِعوا أم لم يشبعوا. وأظن ابنها تشارلز الثالث سيسير سيرة أمه.

قريب مِن هذا أنَّ خليفةً عباسيًّا كان في مجلِسِه فحَضَرَ الطعامُ، فقال للقومِ: «هَلُمَّ!» فأقبلوا إلَّا واحِدًا قال: إنَّه شَبعان. فقال الخليفة: «سُوقيٌّ ورب البيت، أخرِجُوه عنَّا». فالمرءُ لا يحضُرُ مائدةَ الخليفةِ كيْ يَسُدَّ جوعَه، بل كي يَنالَ شرَفَ المُؤَاكَلَة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع والثلاثون

أنا والجميلة، هم أشبه بزمانهم، مسح الأطباق، السلفي والبوذي والعسكري

أنا والهاتف والرجل الثقيل

يعرِفُ من يعرفُني أنني أستعملُ الهاتِفَ مِثلَما أستعملُ طبيب الأسنان: للضرورة القصوى، وأنَّني لا أُحِبُّ أن أُهاتِف، ولا أن أُهاتَف إلَّا في الشديد القوي. فإن هاتفتُكَ لأمر -لهذا الشديد القوي- أو إن هاتفتَني لأمر، فبِالله عليك لا تقل: «مع السلامة» عشرين مرة عندما تُنهي المكالمة. قلها مرةً وأغلق الخطَّ في وجهي. أنا أقول لك: «مع السلامة»، ويدي على الزرِّ أريد أن أنصرِفَ إلى حال سبيلي، وأسمعك تقول: «مع السلامة، مع السلامة، مع السلامة».

لا تَلُمْني! المِزاج الشيخوخي يزحفُ عليَّ زحفًا.

ويا صاحبي الشاب، لا تبالغْ في تبجيلي عندما تخاطبُني أنا وأنت نعرفُ أن فارقَ السن يوجبُ بعض الحَذَرِ في الخِطاب؛ فأنتَ لا تكلِّم شيخًا سبقك إلى هذه الدنيا بثلاثينَ سنةً، مثلما تكلِّمُ قرينَك. أنت تَتحَسَّب. أنت تكلم الشيخ بحذر أيها الشاب. أَفهَمُ ذلك. ولكن لا تقلْ أشياءَ سخيفة. الشيخ يشعر عندما تبدأ بتبجيله تبجيلًا زائدًا أنك أقمتَ سدًّا يحرِمُه من التعامِلِ معكَ ببساطة. أتكلم عن نفسي. غير أنني أعلمُ يقينًا أن بعض الشيوخ، أعني كبارَ السن، يُحِبُّون أن تُجْلِسَهم فوق المِنصة أولًا ثم تكلِّمَهم. حالة نفسية.

اضطُررتُ قبلَ مدَّة إلى مجالسةِ رجلٍ يكبُرُني بنحوِ خمسِ سنين. جالسته نحو ساعتين. جاء صاحبُنا في ذلك اليوم البارد وعليه معطفٌ ثمين، وقد رفع ياقَتَه كما يفعلون في الأفلام الأجنبية القديمة. قضى وقتًا وهو يُنَحِّي بُرنيطةً سوداء، ويعلِّقُها بتَؤُدَة في المكانِ المخصص لها -كان ذلك في مطعم غالٍ في لندن- ثم خَلَعَ مِعطَفَه بأناقة، وجلسَ بجانبي. قضى تَيْنِكَ الساعتين وهو ينظر إليَّ بطرف عينه كلما تكلمت، لا يكلف نفسه الالتفات. وقَاءَ الرجل عليَّ وعلى الجالِسينَ صفَحاتٍ مما قرأ. ثم قام وأخذ يعالج ملابسه الشتويةِ لابسًا، مثلما عالجها خالعًا. مَرَّ على الأمر بضع سنين وما زِلْتُ أشعرُ بثِقْلٍ في روحي كلما تذكرتُ الرجل. سهَّل اللهُ أمرَه أينما كان. كان عِلَّةً على قلبي.

هم أشبه بزمانهم

كنت واقفًا في دكّان الجزار وهو عاكِفٌ على فخذِ خَروفٍ ينقِّيها من الشحم، يسيرُ بِسكِّينِه على تُخومِ اللحمِ الأحمر مُحاذِرًا أن يقَعَ فيه. كان متأنِّقًا في عمله، فإذا اشتغَلَ شَغْلةً دقيقة كهذه وضع لسانه بين شفتيه وانهمك.

وجدت فرصة للكلام لأن لسانه محبوس، قلتُ له: «لم يكن هذا الموضعُ من السوقِ مزدحمًا هذا الازدحام قبل تسعِ سنين عندما افتتحتَ محلَّك». رفع الجزار رأسه وأطلق لسانَه وقال متعجبًا: «لكنني هنا منذ عشرين سنة». ولقْلَقَ بلسانِه بكلام آخر، ثم عاد وأسْكَنَهُ بين شفتيهْ، وعكف على اللحم الذي بين يديهْ.

لقد ظننت الجزار قد فتح دكانه قبل تسع سنين، ولكنه قد فتح الدكان قبل عشرين سنة. والسر في الغلطة التي ارتكبتُها أنني أنا قد سكنت في الحي وبدأت أتعامل مع الجزار قبل تسع سنين. فبالنسبة لي: الجزار موجود هنا منذ تسع سنين. لقد ألغيت إحدى عشرة سنة من تاريخه الملحمي؛ لأنه لا علاقة لي بها.

ومتى كانت بداية العالم بالنسبة لي؟ كانت في زمن العدوان الثلاثي على مصر. لم أكن سنئذ واعيًا. كنت في الواقع رضيعًا. وحدثتني أمي عندما كبرتُ أنها كانت تسمع أزيز الطائرات وهي ترضعني.

اليوم أعلِّم فتيةً وفتياتٍ، وأحدثُهم عن التاريخ السياسي الذي أثَّر في حياتنا. وأُفاجَأُ عندما أجدُهم لا يعرفونَ شيئًا عن أنور السادات، والملكِ الحسنِ الثاني، والملكِ حسين، وعن الانتفاضة الفلسطينية الأولى والثانية.

هم في نحوِ العشرين من العمر، وقد بدأ التاريخ عندهم بالقبض على صدام حسين. نحن -الكبارَ في السن- نلوم الشباب لأنهم لا يعرفون ما نعرف. هم أبناء جيل مختلف، علينا أن نعترف.

السلَفيُّ والبوذيُّ والعسكريُّ

أحدِّثكم عن شيخ سلفي له لحية مشعَّثَة. هو في نحوِ الأربعين، وهو داعِية. دخَل عليه شبابُ الحيِّ ومعهم رجلٌ يتحدث الإنجليزية. قالوا له على الباب: «شيخَنا! هذا الرجل بوذيّ». فرحَّب، وأقعدهم على مجلس أرضي، وزوَّدهم بالوسائد كي يتكئوا، واحتفى بالبوذيِّ وأجلسه بجانبه، وسأله عن نفسه وعن رحلته إلى مدينتهم. لم يتطرَّقْ إلى العقيدة. وجيء بالطعام فوُضعت الأطباق على طبلية، وتحلَّقوا حولها. أخذ الشيخ يشرح للبوذي: «هذا دجاج، وهذا لحم، وهذا حمص، وهذه فاصوليا بالزيت فقط». وجاء الشاي، وتفكَّه القوم ببعض القول، والشيخ لا يفوِّتُ نادرةً إلا تَرجَمَ للبوذيِّ فحواها، حتى لا يكونَ خارجَ الحديث. وتململ المجلس، وقام أحدُهم فقام بقوْمته الجميع.

على الباب همس أحدهم للشيخ: «لم تسألْه عن دينِه، ولا دعوتَه إلى الإسلام؟» قال الشيخ: «الرجل مثقف، وهو يعرف كيف يختار طريقَه».

هذا الشيخ يدعو إلى دينه بأن يعرِضَ ما في شخصيته من دماثة. هو ذو قلب حيٍّ فلا يحتاج إلى تلسين الناس. والتلسين في هذا السياق معناها أن تطلقَ لسانَك على الناس، وأن تغرقَهُم بمسلَّماتِك، وأن تحاصِرَهُم بالحُجَّة والموعظةِ والاستمالة، وبالترهيب والترغيب.

وأحدثكم عن عسكريٍّ التقيت به على معبر حدودي. كنت واقفًا في الطابور، وكانت عندي مشكلةٌ في ورقة لها علاقة بوباء كورونا. تحدث العسكري إلى الرجل الذي أمامي، ورحب به، ثم استل هاتفه ونَقَر عليه، واستخرج للرجل وثيقة، ثم أخذه إلى الشباك، وسلَّك للرجل أموره، وعاد إلى مِنضدته. وضعتُ جواز سفري أمامَه، قلت له: مشكلتي هي بالضبط كمشكلة الرجل السابق. نبذ جوازي بأظفاره، وقال لي: لا ينفع. وما بدأت بالكلام حتى قام وولّاني ظهرَه. وقفتُ مشدوهًا من سلوكه. وإذا بيدٍ تُربِّتُ على كَتِفي. التفتُّ فإذا عسكريٌّ آخر، قلت له بحرارة: مشكلتي هي بالضبط مشكلةُ الرجل السابق. غمز بعينِه، وقال بصوت خافت: ذاك الرجل من جماعته. ثم نصحني قائلًا: تذهب إلى المكتب الفلاني في طرف البلدة، وفي نصف ساعة تحصل على تلك الورقة. شكرت وانصرفت. ذهبت إلى ذلك المكتب. رأيت على الحائط كرتونةً مكتوبًا عليها سعرُ الحصول على تلك الوثيقة. كنت محتاسًا. (والمحتاس في كلامنا أعلى درجة من المحتار). رأى الموظف حالتي، وسلَّك أموري، ورفض أن يتقاضى مالًا. وعزمتُ عليه، قلت: يا أخي تصدَّق بهذا! ووضعت ورقة نقدية كبيرة ضعفَ المطلوب وولَّيْت، فشدني من كمي رافضًا، وابتسامةٌ خجولةٌ تعلو مُحيَّاه.

هناك ناس روحُهم فيها متَّسعٌ للخير. وهناك ناس روحُهم لا تتسع إلَّا لأبناء عشيرتهم.

أنا والجميلة

عندما أكون مغتربًا بعيدًا عن ابنتيَّ، فإنني أعامِلُ كلَّ فتاة كابْنَة. لستُ نِسْوِيًّا، لكنني أرى رأيَ الشاعر الذي قال:

كُتب القتلُ والقتالُ علينا

وعلى الغانِياتِ جَرُّ الذيولِ

وعندي أن كل امرأة تحت سن التسعين صندوق مغلق، كالخزنة الفولاذية في بنك إنجلترا المركزي. كانت لي بنةٌ (غيرُ بنة) في بلد بعيد. واصطحبتُها مرَّةً إلى مطعم أَغْشاهُ كثيرًا، وهو يتميزُ بأن جراسينَه يمرُّونَ بكَ وهم صم بكم

عمي فهم لا يرجعون، تلوِّح بيدِك وتطرُقُ بمِلعقتِك حافَةَ الكوب حتى لتكادُ تَثلُمُه، ولا حياةَ لمن تنادي. أقول: جلست قُبالتَها في المطعم. (فاتني أن أقول لك: إنها كانت شابَّةً رائعة الجمال، وبيني وبينَها ثلاثون سنةً تزداد خمسًا). قضينا تلك السويعةَ في المطعم ونحن غارقان في الضحك، فلماذا؟ الجراسينُ كانوا يحومون حولنا: جرسونًا يستدعي جرسونًا، هذا يمسح المنضدة، وذاك يبدل الملاعق، وآخرُ يلقي التحية، ورابعٌ ينفُضُ الوَفِيعةَ أي الفوطة، وكلهم ينظر نظرات (مؤدبة في الواقع) في وجه بُنيَّتي، وهكذا كنت أدعوها. ولم يلقِ أيٌّ منهم نظرةً إلى خِلْقتي. كان مشهدًا.

وهذه الفتاة -وهي الآن أمٌّ تجرُّ وراءها نصفَ كتيبة- كانت لا تقصِّر معي فقد تُحضِر لي شطيرةً، أو كيكة. مرة أحضرتْ لي شيئًا ملفوفًا لفَّةً متقنة، قلت لها: «ما هذا؟»، قالت: «كادوه». سألت: «من هم الذين كادوه، وعلام يكيدونه؟» فأغرقت في الضحك، ظنتْني أمزح. ثم إنها لَمَحَتْ في وجهي أمارات الجهل لا العبث، فكررت: «كادوه كادوه». ولأنها فسرت الماء بالماء بقي وجهي غبيًّا. فقالت لي: «هدية». ومن يومها وأنا أعرف معنى هذه الكلمة الفرنسية. أنا قد وقفت في الفرنسية عند بونجور.

مسح الأطباق

أحدثكم عن مشكلة من مُشكِلاتي الكثيرات. ولا والله ما أطمع في أن أجِدَ لها علاجًا. هي مشكلةٌ كانت وظلَّتْ وستَبقى معي، وستبقى من بعدي طويلًا؛ ذلك أنني أورثتها أبنائي وأحفادي. وأراك قد طقطقت أذنيك تريد أن تعرف ما هي هذه المشكلة. ولِمَ هذا الفضول؟ رجل عنده مشكلة، ولا علاج لها، فاتركه لحالِه.

لكنني أمضي في الكلام. مشكلتي أنني لا أرمي فولة ولا حمصة، ولا أُبقي في طَبقي حبَّة أرزٍّ فما فوقها وما تحتها، بل أجْلُو طبقي بآخر لقمة خبز.

لم أولد في الفقر، بل في بيتٍ الطعامُ فيه كثير، فاعلم ذلك. ولم يقلْ لي أحدٌ في الصِّغَر أن أمسَحَ طبقي. قد ولدتُ وهذا الشيءُ موجودٌ في العائلة، فكأنه قانون من قوانين الطبيعة.

واليوم أدعو أحدَهم أو إحداهُنَّ إلى مطعم. وأُسَرُّ أيَّما سرورٍ عندما يكون الضيفُ جائعًا، فيطلبُ ما يشتهي ويأكل. لكنني قد أصادفُ ضَيفًا ينتَقِرُ كما تَنتَقِرُ الدجاجة، ويترك طبقَه على حاله. هو ضيف، وحقه عليَّ أن أَبَشَّ في وجهه. لكنني أنزعج.

كنت أهجُسُ في أحلام يقَظَتي بفتح مطعم. هذا حلمٌ حُلو، ويراه في اليقظة كثيرون ممن لهم في تذوق المآكل شَغَف. غير أنني لو أقدمتُ على هذه

الخطوة لجُنِنْتُ بعد أيام. أنا لا أقوى على رمْيِ كِسرةِ خبز، فكيف سألقي في حاويةِ القُمامة بقايا أطباقِ الزبائن؟ مشكلتي أنني لا أستطيعُ رمْيَ الطعام الزائد. وقد عوَّدْتُ ابنَتيَّ عادةَ مسحِ الأطباق، وعوَّدْتُ حفِيدَيّ. فهذا تفسير قولي إن المشكلة ستبقى معي، وبَعدي.

ضياع سنة دراسية

في الطبقة الوسطى يعاني الآباءُ من ذعر سخيف اسمه ضياع سنة دراسية. «ابني ضاعت عليه السنة، يا ويلي!» ولماذا؟ أتخاف أن يسبقه ابن جارك؟ أم أنت تتعجل تخرُّجَه كي يشتغل؟ ربما يتخرج ويصيع في الكوفي شوبَّات -جمع كوفي شوب- وينفق من مالك إنفاقًا ذريعًا.

أيها الأب الحنون لا تستعجل. في بعض بلدان أوروبا لا يدخل الطالب الجامعة إلا بعد أن يحمل على ظهره حقيبةَ مَنامٍ ويطوِّفَ في بلاد الله الواسعة متعلمًا من السفر والحياة، فيقضي عامًا أو عامين متجولًا، ثم يدخل الجامعة، وهو أنضج وأعقل. يستوعب دروسه أكثر، ويكون أحسنَ اعتمادًا على نفسه، وأعرفَ بسبل التوفير، وأفضلَ تقديرًا للمال.

وأريدُك أيُّها الأبُ الحنون أن تسمع من رجل علَّم في المدارس ثلاثَ سنين، وفي الجامعة سبعًا. التعليم خرافة. والتعلُّمُ هو الشيء الحقيقي. الشاب لا يتعلم من المدرسة ولا من الجامعة، بل يعلِّم نفسَه في المدرسة والجامعة والبيت، وفي السفر. والدافع الوحيد للتعلم هو الرغبة.

أنتَ أيها الأب، وأنتِ أيتها الأم على وجه الخصوص، تريدان المدارس حبسًا صباحيًّا يخلصكما من الأولاد والبنات نصف النهار، هذه فضيلة المدارس.

مناهج المدارس في البلاد العربية أمر لا يُؤسف على ضياعه. وضياع سنة دراسية أمر حميد: يشعر الطلبة ببعض الحرية، ويمارسون بعض الهوايات.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنــــاة

فهرس..